مجتمعات ماقبل التاريخ والعصر التاريخى فى مصـــــــر

الاستاذ الدكتور

رشيـــد الناضورى

١٩٨٧

• مصر بلد عظيم حافل بالعديد من الانجازات الماديه والفكرية منذ بداية حياة الانسان • فقد تمكن الانسان المصرى القديم من صنع الحضارة وانتاج عدد كبير من الصناعات الحجرية والخشبيه والزجاجية والنحاسية والطينية وغيرها • منذ تمكن من التوصل الى اكتشاف الحياة الزراعية وبداية نشأة القرى والمجتمعات المستقرة • ثم سرعان ماطور حياته وبدأ فى اعتناق عدد من القيم والمفاهيم الدينية والسياسية والاجتماعية وبصفة خاصة عقيدة الخلود ونظام الملكية الالهية •

والواقع ان الانسان المصرى القديم كان مخلصا غاية الاخلاص فى تحقيق كافة مهامه الحياتية وانشطته المختلفة • وقد نبعت هذه المشاعر الصادقة طوال حياته من وحى البيئة المصرية المنتظمة التى تتمثل فى الشريان المائى الوافد من الجنوب وهو نهر النيل والذى يضفى على شاطئيه الشرقى والغربى وعلى منطقة الدلتا بالثراء الغرينى الهائل الذى تجزع منه الطبيعة والتى تتمثل فيها الحياة النباتية المشرقة والتى عاصرت حياة الانسان المصرى القديم منذ العصر الحجرى الحديث •

هذه البيئة المصرية المستقرة والتى تجانست مع مختلف القوى الكونية الطبيعية المحيطة بها جعلت من الفرد المصرى القديم مجرد نموذج من النماذج الحية الكائنة فى هذه البيئة المصرية القديمة والذى يتجانس مع النماذج الحية الاخرى كالنبات والحيوان ومختلف الظواهر الطبيعية والاخرى الكائنة فى هذه البيئة • فقد

شعر الانسان المصرى القديم منذ بداية استقراره بالصلة القديمة بينه وبين البيئة الطبيعية المستقرة .

فهو يبدأ حياته اليومية بشروق الشمس وينهى يوم عمله بغروبها .. ويبدأ تقويمه الزمنى بمجئ الفيضان وينهى عامه المدنى بانحسار المياه فى نهاية العام . وينعم بالحياة الزراعية فى الارض الخضراء على جانبى الوادى فى الصعيد وارض الدلتا المتسعة ويبنى فى هذه الارض منازله الدينية اى معابده .. أما منازله الابدية فقد اتجه الى عالم الصحراء حيث اعتبرها بمثابة بداية للعالم الاخر . وهكذا انتبس فكرة من وحى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها . فقد لمس عن قرب حقيقة الحياة والموت ودورة الحياة والموت الى مالانهاية فنهر النيل على سبيل المثال ذاخر بعدد من كبير من الجزر التى تغطيها مياه الفيضان كل عام بمعنى انتهاء حياتها . ثم سرعان ماتنحسر المياه وتبزغ الارض كخلق جديد وتنبش الحياة النباتية بدورة تلقائية فور انحسار المياه وهكذا يشاهد امام عينه دورة الحياة والموت بصورة رائعة ملموسة كل عام .

وكان لطبيعة مصر المستقرة آثارها البالغ فى ملاحظاته المتكررة المتنامية لهذه الظواهر الطبيعية المتكررة والتى تجسد له الخلق الجديد والحياة الابدية بعد ظاهرة الموت الدنيوى .

وقد لمس ذلك بوضوح ايضا فى حياة النباتات والحيوانات وعالم الطيور والاسماك والحشرات وغيرها من الكائنات الحية . كما لمس ذلك ايضا فى حياة

الانسان ومن ذلك اعتبر نفسه يعيش في عالم كوني كائن وازلي ولابد ان تكــــون هناك رابطة بينه وبين كافة الكائنات الحية فهو لايختلف عنها بل تكون في مجموعها ظاهرة كونية واحدة تتمثل كافة نماذجها الحية في الانسان والحيوان والنبات • ومختلف الكائنات الطبيعية وهي ظاهرة الولادة والنمو والازدهار ثم الموت الدنيــوى واخيرا البعث الاخروى الى مالانهاية •• ومن ثم فحين طين هذه الفترة لم يقتصــر على بناء المقابر بالنسبة للانسان فقط بل خصص ايضا مقابر لكافة الحيوانات والطيــور بل حتى التماسيح ابتداء من عصر حضارة الوادى حوالى منتصف الالف الخامـــس ق • م •

وهذه الحقيقة تؤكد ان اعتقادات الانسان المصرى القديم ليست مجرد ظاهرة عابرة آمن بها لسبب او لاخر بل هي حقيقة عميقة في جوهر نفسه مما جعلها تستمر معه فترة زمنية طويلة للغاية •

• وتجدر الاشارة في هذا المجال الى القول بان التاريخ المصرى القديم والحضـــارة المصرية القديمة اطول فترة عرفها تاريخ الانسانية في كافة انحاء العالم •• فليست هناك حضارة في العالم في الشرق او في الغرب قد استمرت مثل الحضارة المصرية القديمة ••• وهذه الصفة الاستمراريه الطويلة توضح عمق اعتقاد الانسان المصـرى القديم في مبادئه وقيمه المتعلقة بحياته الدنيوية ومصيره في العالم الاخر • ولذلك ينفرد التاريخ المصرى القديم في العصر الفرعوني بسمات خاصة لم يألفها في العصور الاخرى •

ويرجع ذلك الى ان الانسان المصرى القديم لم يرث المبادئ والقيم الـــتى آمن بها من حضارة اجنبية او مؤثرات وافدة عليه بل انه قام بصنع حضارته بمعـــنى الكلمة الحرفى متأثرا بمقومات البيئة البحتة والناتجة عن تجاربه الطويلة فى بيئته المصرية الصميمة ..

وهكذا بدأ التاريخ المصرى القديم ابتداء من استقرار الانسان خلال الالـــف السادس قبل الميلاد فى المرحلة المعروفة بالعصر الحجرى الحديث او عصـــــر اكتشاف الحياة الزراعية المستقرة او عصور انتاج الطعام . ثم انتقل من مجتمـــع القرية فى تلك المرحلة الى مجتمع الاقليم خلال عصر الحجر والنحاس حوالى منتصـف الالف الخامس قبل الميلاد .. والذى خرج فيه الانسان باحثا عن الامكانيات ـــ الجديدة التى تيسر له مختلف متطلباته فى الحياة الصناعية . وبصفة خاصة فـــى صناعة الادوات النحاسية التى تمكنه من صنع الادوات الكمالية والتى تختلف فـــى الانتاج الراقى الذى عثر عليه فى موقع البدارى جنوب شرق اسيوط . ثم انتقل بعد ذلك التاريخ المصرى القديم الى مجتمع الاقاليم الاكثر ثم عصور ماقبل الاسرات والتى سرعان مانمت الى محاولة اقامة وحدات سياسية فيما بينها وصلت الى قمتهـــــا بايجاد نوع من الوحدة الاكبر وهى مملكة خاصة بالدلتا بكافة ارجائها الى ان تحققت الوحدة السياسية الكبرى بين الجنوب والشمال بعد محاولات من كل جانب .

وتحققت تلك الوحدة على يد الملك نعرمر الذى بدأ الاسرة الاولى وبدأ بذلك العصر التاريخى بانشاء اول دولة متحدة فى تاريخ الانسانية جمعاء •

وليس ذلك مجرد تعبير نا فى وطنى بل هذه حقيقة تاريخية بناء على الدراسات المقارنة لكافة الادلة الاثرية التى عثر عليها فى الشرق الادنى القديم والهند والصين واوربا وحضارات الهنود الحمر فى امريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ••

وببداية العصر التاريخى بدأ الانسان المصرى مرحلة جديدة فى حياته تعرف بالتاريخ الفرعونى وتنبغى الاشارة الى ان الانسان المصرى القديم قد قدم للانسانية عددا اكبر من الابتكارات فى كافة مجالات النشاط الانسانى سواء فى الجانب الاقتصادى بشعبة الزراعية والصناعية والتجارية • وفى المجال الاجتماعى سواء فيما يتعلق بنظام الحياة الاسرية والعلاقات الاجتماعية والتقاليد المتعددة المختلفة وكذلك فى مجال النظم السياسية والادارية والقضائية وايضا فى مجال النشاط العسكرى المدنى والحربى والنهرى والبحرى •

• اما فى مجال التعبير الفنى كالنقش والنحت والعمارة بمختلف اقسامها • كذلك فى مجال الفكر الدينى بكافة جوانبه الطقسية والعقائدية والجنزية والاسطورية والادبية •

وهكذا يتضح ان الانسان المصرى القديم قد صنع سجلا حافلا بالانجـــــازات الحياتية فى كافة المجالات وقدمها حصيلة سائغة للانسانية سرعان ماتأثر بهـــــا الفكر اليونانى والرومانى بعد ذلك ٠٠ فقد ذهب بعض مؤرخى وفلاسفة اليونـــان الى جامعة ايون (عين شمس) المصرية للتعرف على التجربة المصرية القديمـــة فى مجال الحضارة المصرية فى الفكر والفن والادب ٠

كل ذلك يؤكد حقيقة ظاهرة الاستمرارية فى التاريخ المصرى القديم ، تلك الظاهرة التى انفرد بها هذا التاريخ بالمقارنة بسجلات حياة الانسان فى مختلف انحـــاء العالم ٠

ومن ناحية اخرى يلاحظ ان العصر الفرعونى اذا حاول الباحث ان يتتبعه فـــى صورة خط بيانى يجده ينقسم الى ثلاثة مراحل رئيسية يرتفع فيها هذا الخط الـــى قمته القصوى بمعنى انه ينتهى بمستوى حياة الانسان الى مثالى مرتفع من حيـــث الاراء والعطاء الذى يقدمه للانسانية فى مختلف المجالات والانشطة ٠

وتتمثل تلك المرحلة فى عصر الدولة القديمة بصفة خاصة الاسرة الرابعة ، وعصـــر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة وبصفة خاصة عصر الاسرة الثامنة عشرة ٠
تتخلل تلك الفترات مراحل من الضعف السياسى الداخلى والتى تتمثل فى عصر الانتقال الاول وعصر الانتقال الثانى وعصر الانتقال الثالث ٠

وهذه المراحل تتطلب اسباب حدوثها عندما ابتعد الانسان المصرى القديم عن قيمته الاصلية التى منحها فى مراحله الاولى •

وعلى الرغم من ذلك فقد برزت بعض الجوانب الايجابية الغاية فى الاهميـــة بالنسبة للتاريخ الانسانى • ففى عصر الانتقال الاول وهو العصر الممتد من الاسرة السابعة وحتى الاسرة العاشرة وذلك قرب اواخر الالف الثالث قبل الميلاد — انبثقت فى الشعب المصرى القديم رغبة صادقة فى الشعور بالذاتية والمناداة بالعدالة الاجتماعية وانها• مراحل نزعة التسلط من بعض فئات المجتمع الاول مرة استيقظ ضمير الانسان المصرى القديم وطالب بالحرية والعدالة الاجتماعيـــــة والمساواة بين افراد المجتمع مما ادى الى انبثاق مايمكن تسميته بالثورة الاجتماعية الاولى •

اما عصر الانتقال الثانى وهى المرحلة التالية لعصر الاسرة الثانية عشر فقـــد ساد فى جزئها الاول نوع من الضعف السياسى وادى ذلك الى تسرب عناصر هندية واوربية وهى الهكسوس التى اختلطت ببعض العناصر فى سورية وفلسطين ووصلـــت حتى مصر الوسطى • ولكن الجانب الايجابى فى التاريخ المصرى القديم هـــو انبثاق النزعة الوطنية الصحيحة عن طيبة فى صعيد مصر حيث تمكن المصريــون فى نهاية الاسرة السابعة عشر وبداية الاسرة الثامنة عشر من تحقيق استقــلال مصر بالوسائل الحربية البرية النهرية • واستكمال اواصر المهمة العسكرية بصـورة نموذجية الى ان وصل ذلك الى تكوين الامبراطورية المصرية الاولى •

ولكن سرعان ماتطورت المواقف التاريخية عندما قام رجال الدين فى استحواذ علـى السلطة السياسية خلال الاسرة الواحدة والعشرين فى بداية عصر الانتقال الثالث مما ادى الى تدهور الموقف السياسى العسكرى كله وتمكين العناصر الليبية والنوبية والاشورية والفارسية من احتلال مصر • ولكن رغم ذلك فقد تمكن الانسان المصـــرى التسلح بالصمت وهو نوع من الفلسفة بل نوع من الحرب ذات الفاعلية الايجابيـــة على المدى الطويل الى ان تمكن من استعادة الانطلاقة المصرية السياسيـــــة والحضارية خلال عصر الاسرة السادسة والعشرين بما يعرف بعصر النهضة (العصر الصاوى) واينما خلال عصر الثورات المصرية الهامة اثناء فترة الاحتلال الفارسـى لمصر الى ان انتهى العصر الفرعونى بدخول الاسكندر الاكبر المقدونى مصـــــر خلال الجزء الاخير من القرن الرابع قبل الميلاد •

الانسان والبيئة قبل عملية انتقال الاسلام

يتجه الدارس اولا الى الانسان ثم الى البيئة :

الانســـان :

بدأت الحياة الانسانية بظهور آدم عليه السلام كما نص القرآن الكريم والكتب المقدسة الاخرى ، وهذه حقيقة نهائية نؤمن بها جميعا والحمد لله . وقد حاول بعض العلماء البحث والتنقيب عن بقايا المجتمعات الانسانية الاولى فلاحظوا بعض اطوار من التطور البدني والفكرى ، وقد استغرق ذلك وقتا اثناء الزمن الجيولوجي الرابع الذى يقدر بحوالي مليون سنة بعصرية البليستوسين والحديث وهناك من العلماء من يعتقد ان تطور الانسان قد حدث في اثناء الزمن الجيولوجي الثالث وخاصة في عصر الميوسين والبليوسين وذلك بناء على دراسة بعض الحفريات ويرجع هؤلاء العلماء زمن تطور الانسان الى حوالى ١٥ مليون سنة .

ولكن الرأى الغالب بين العلماء ان الحفريات الانسانية لايتعدى تقديرها الزمني مليون سنة ، أى تنتمي الى عصر البليستوسين ، ولكن الانسان يرجع في تطوره الاول الى عصرى الميوسين والبليوسين ان حوالى ١٠ مليون سنة على الاقل ويحتمل الى حوالى ١٥ مليون سنة . وعلى الرغم من العثور على عدد من الحفريات الانسانية في جهات متفرقة من العالم القديم الا ان العلماء قد اعتبروا بقايا

الهياكل العظمية الخاصة بكل من انسان جاوة او كما عرف باسم انسان بكين من اقدم الهياكل العظمية الشبيهة بالانسان ٠ وترجع تلك الحفريات الى حوالى نصف مليون سنة ٠

ولم يقتصر بحث العلماء على دراسة الحفريات الانسانية بل شمل ايضا صناعات الانسان الحجرية الاولى ٠ وتدل دراسة الادوات الحجرية التى عثر عليها انها كانت قصد من صنع الانسان ولم تكن من نتاج العوامل الطبيعية او الحيوانية ٠ ومن الاهمية بمكان القول انه عثر مع انسان بكين على ادوات حجرية مما كان لـــه اثره البالغ فى تأكيد توصل هذا الانسان الى نوع من التفكير العملى المؤدى الى استفادته من البيئة المحيطة به واستغلاله التدريجى لخاماتها وذلـــك لمساعدته على القيام بأعباء حياته الانسانية الجديدة ٠

ويغلب ان انسان جاوة قد توصل الى صنع ادواته ايضا رغم عدم العثـــور عليها ٠ اما فى افريقيا وغربى اوربا فقد عثر على الادوات الحجرية التى صنعها الانسان الاول ٠ ويقدر عمرها بحوالى نصف مليون سنة ولكن لم يعثر على عظـام صانعيها ٠

ويمكن للباحث فى التطور الانسانى حصر المراحل الرئيسية لهذا التطور فـى النقاط التاليـة :

(أ) مرحلة ماقبل الانسان فى عصرى الميوسين والبليوسين منذ حوالى ١٥ مليون

سنة ومابعدها .

(ب) مرحلة الانسان الاول وذلك في عصر البليستوسين وتشمل مايلي :

١ ـ مرحلة انسان جاوة وانسان بكين وبداية صناعة الادوات الحجرية منذ حوالي نصف مليون سنة .

٢ ـ مرحلة بداية الانسان الحديث الاول في المانيا وانسان هيدلبرج في المانيا وانسان روديسيا في افريقيا وانسان صولو في جاوة .

٣ ـ مرحلة الانسان الحديث الاول ويشمل انسان جاللي هل في انجلترا وانسان سوانسكوب في انجلترا ايضا وايضا وانسان ستاينهيم في المانيا .
وينتمي الى تلك المجموعة ايضا انسان جبل الكرمل بفلسطين .

(جـ) مرحلة الانسان الحديث او الانسان العاقل وقد ظهر منذ حوالي ٧٥٫٠٠٠ سنة وما بعدها .

وقد ظهر هذا الانسان في اوربا منذ حوالي ٥٠٫٠٠٠ وينتمي الى هذه المرحلة مجموعة انسان كرومانيون بفرنسا ومجموعة كومب ـ كابل ـ برن وانسان جريمالدى ذو الصفات الزنجية بايطاليا .

وهناك امثلة اخرى تمثل السلالات البشرية المختلفة البيضاء والسوداء والصفراء ان العناصر القوقازية والزنجية والمغولية . ويتجه بعض العلماء الى القول بوجود صلة تطورية مباشرة بين بعض هذه المراحل مثل صلة انسان جاوة بانسان صولو في جاوة ايضا .

ولكن ذلك لاينطبق تماما على جميع هذه المراحل كافة ولا يزال مجال البحث والتنقيب مفتوحا وسوف ينضفي من آن لاخر بحفريات جديدة تساعد على تفهم مشكلة التطور الانسانى • هذا وقد اتفق العلماء على انه لايوجد مايسمى بالعنصر البشرى النقى ولهذه الحقيقة نتائجها الحضارية الهامة •

وتلزم الاشارة هنا بان منطقة الشرق الادنى القديم لاتزال بعض اجزائها فى اشد الحاجة الى استكمال البحث فيها مثل شبه الجزيرة العربية والصحراء الكبرى كما ان كون هذه المنطقة اقدم مناطق العالم فى الاستقرار والتوصل الى انتاج الطعام وانشاء القرى والمدن لما يساعد على ضرورة زيادة الاهتمام ببحثها •

وتبين دراسة مراحل التطور سالفة الذكر على ان الانسان قد مر بعدد كبير من مراحل النمو والتطور البدنى والعقلى وتمكن من تدريب عقله وحواسه وقدراته والاستفادة من تجاربه المختلفة مما كان له أثره فى نقل حياته الى مراحل اكثر تطورا فى المجالين المادى والمعنوى •

وقبل التعرض الى مظاهر حياته وحضاراته قبل مرحلة عملية انتاج الطعام فى الشرق الادنى القديم تحسن الاحاطة ببعض المظاهر البيئية فى عصر البليستوسين وهو العصر الذى ظهر فيه الانسان •

وكما كان الانسان فى هذا العصر يسير فى عدة مراحل تطورية كذلك كانت البيئة فى صورة متغيرة وغير مستقرة لحد كبير مما كان له اثره فى تشكيل وتوجيه حياة

الانسان الناشئ فيها . وفيما يلى بعض الظواهر البيئية فى ذلك الوقت .

البيئـــة :

يتميز عصر البليستوسين بالهجمات الجليدية التى كان لها اثرها فى تغيير جو ذلك العصر فى نصف الكرة الشمالى . ولكن هذه الهجمات الجليدية لـــم تستمر طواله بل كانت على عدة مراحل تتخللها فترات انسحاب الجليد نحـــو الشمال وبالتالى عودة المناخ الى حالته الاولى . وقد قام العلماء بحصر المراحل الرئيسية التى ساد فيها الهجوم الجليدى وتقدر بأربع مراحل رئيسية على الاقل وهى مراحل جنز ومندل ورس واخيرا فورم .

وذلك فى اقاليم جبال الالب الاوربية . اما عن التوقيت الزمنى لبداية هـــذه الهجمات الجليدية فلم ينته هذا الموضوع الى رأى نهائى بعد ولكن الـــرأى الذى يبيض العلماء ان الهجمات الجليدية قد بدأت حوالى ٥٠٠٠ر٦٠٠ ق.م. ويميل بعض العلماء الى القول باحتمال وجود مرحلة هجوم جليدى قبل مرحلـــة جنز وهى مرحلة دونو وذلك فى الفترة بين ٨٣٠ر٠٠٠ ــ ٧٢٠ر٠٠٠ ق.م. وتذلك هناك فترات تراجع جليدى بين مراحل الهجوم السابقة ، فهنـــاك فترات التراجع الاول والثانى والثالث والرابع . وفى شمال افريقيا وشبه الجزيـــرة العربية كان يسود العصر المطير اثناء وجود العصر الجليدى فى اوربا .

وكان لذلك اثره البالغ فى تحول الصحراء الكبرى وصحراء بلاد العرب الى منطقـــة

تتوفر المياه في اوديتها وتطور فيها حياة نباتية برية .

• يتبين من دراسة حياة الانسان وظروف البيئة قبل " الثورة " الصناعية الاولى ان الانسان والبيئة لم يكونا مستقرين في صورة نهائية بل كان عنصر التغير والتطور مستمرا منذ البداية ، وكان لذلك اثره البالغ في تحديد طبيعة تفكير الانسان وصناعاته . وقد اضطر الانسان الى الالتجاء الى الكهوف في اثناء الهجمات الجليدية والخروج منها من آن لآخر وخاصة اثناء فترات التراجع الجليدي الى الشمال . واخيرا وصل الانسان الى مرحلة الاستقرار والانتاج وانشاء القرى او بالاحرى عصر انتاج الطعام وذلك بعد فترة زمنية طويلة تقدر باكثر من ٩٩ بالمئة من حياة الانسان جامعا للطعام وعائشا في تلك الظروف الجوية المتغيرة . ولكنه على الرغم من قسوة ظروفه البيئية فقد تمكن من التوصل الى اقلمة حياته لحد كبير بالبيئة التي يعيش فيها وتوصل الى صنع حضارته وترك ادواته الحجرية في مرحلة العصر الحجري القديم باقسامه الثلاثة الاسفل والاوسط والاعلى .

وكانت نقلة حياته الى مرحلة انتاج الطعام بمثابة ثورة خطيرة في حياته الطويلة الجامعة للطعام . وكان الانسان في الشرق الادنى القديم صاحب الاولوية في هذا الانتقال قبل ان مكان آخر في العالم منذ حوالي ٩٥٠٠ .

وفهم دراسة كيفية حدوث الانتقال من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة انتاجه ، وكذلك موضوع تقدير ازمنة حضارات الانسان في هذه المراحل ، يتجه الدارس

اولا الى تقسيم حياة الانسان من ناحية تطوره الحضارى وذكر الدعائم الرئيسية فى هذا التطور .

مراحل التطور الحضارى :

يمكن تقسيم حياة الانسان من ناحية تطوره الحضارى وخاصة فى المجال الاقتصادى والصناعى الى المراحل التالية :ـ

(أ) مرحلة جمع الطعام وهى المرحلة التى بدأت منذ ظهور الانسان واستمرت الى حوالى ٧٠٠٠ ق٠م٠ فى بعض المواقع او بعد ذلك فى المواقع الاخرى وهى الفترة التى ظل فيها الانسان متنقلا فى سبيل البحث عن رزقه ولم يصل طوال هذه الفترة الى مرحلة الاستقرار الكامل .

وتعرف هذه المرحلة ايضا باسم العصر الحجرى القديم (الباليوليتى) واحيانا باسم مرحلة الوحشية .

(ب) مرحلة عملية انتاج الطعام او " الثورة الصناعية الاولى " وهى مرحلة التحول الاول الكبير فى حياة الانسان من جامع للطعام الى منتج له اى بداية التوصل الى الزراعة وذلك حوالى ٧٠٠٠ ق٠م٠ فى منطقة الشرق الادنى القديم .

(جـ) مرحلة انتاج الطعام وهى المرحلة التى توصل فيها الانسان الى بناء القرى والاستقرار المادى والمعنوى وتتضمن مرحلة العصر الحجرى الحديث النيوليتى

واحيانا يطلق عليها البربرية • وعصر استخدام الحجر والنحاس (الانيوليتى) وعصور ماقبل الاسرات فى الشرق الادنى القديم • وقد بدأ هذه المرحلة فى هذه المنطقة حوالى ٥٠٠٠ ق٠م٠

(د) مرحلة المدنية وهى المرحلة التى حدثت فى بداية العصر التاريخى • فى الشرق الادنى القديم والتى تميزت بتوصل الانسان الى الكتابة وبناء المدن • وتنظيم مجتمعه من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وذلك حوالى ٣٠٠٠ ق٠م٠ هذا وقد تطور الانسان فى اثناء العصر التاريخى وهو عصر المدنية تطورا سريعا فى كافة مجالات حياته وتوصل الى الثورة الصناعية الثانية بتعرفه على قوة البخار فى القرن الثامن عشر الميلادى وكذا الى الثورة الصناعية الثالثة الان بتعرفه على الطاقة الذرية •

والواقع ان التقسيم الحضارى لحياة الانسان يقوم على اساس تطور تفكيره الاقتصادى • وقدرته الصناعية الفنية وايضا تطور تفكيره المعنوى وهذا التطور يعتبر من اهم المراحل التى مرت بحياة الانسان مما يستوجب قياس حضارته ونتاجه الحضارى على اساسه وقد اتجه الى هذا التقسيم الحضارى على اساس التفسير الاقتصادى والصناعى ج • تشيلد فقد قسم حياة الانسان الى مراحل اطلق عليها تعبير (ثورات) • وذلك على اساس ان هذه المراحل الحاسمة فى حياة الانسان تعتبر بمثابة انقلابات وتغيرات رئيسية او بالاحرى ثورات • وركز تشيلد اهتمامه بصفة خاصة على ثورات انتاج الطعام والتوصل الى المرحلة

الحضرية او المدنية وايضا الى الثورة الصناعية .

ويرى الدارسون ان وجهة نظر تشيلد في هذا التقسيم الحضارى صحيحة الى حد كبير ، ولكن التعبير الذى اطلقه الاستاذ تشيلد على هذه المراحل وهو اسم " ثورات " تعبير يستوجب ضرورة الحذر في استخدامه ، وذلك لان الثورات في حد ذاتها تحمل معانى الانقلابات والتغيرات المفاجئة . صحيح ان مرحلة انتاج الطعام تمثل تغيرا كليا في حياة الانسان مما دفع تشيلد الى تسمية هذه المرحلة باسم ثورة انتاج الطعام ، ولكن الواقع يبين ان هذه المرحلة قد مرت بعدد من التطورات الحضارية المختلفة الممهدة لها ، ولذلك فالدارس يميل الى استخدام تعبير عملية انتاج الطعام ، آخذا في الاعتبار هذه التطورات السابقة لها ويدفعه ذلك نحو قبول هذا التعبير مع التحفظ ولذلك يكتبها بالصورة التالية " ثورة " انتاج الطعام .

ويمكن تطبيق ذلك ايضا على مراحل الانتقال التالية وهى مرحلة التوصل الى المدنية والثورات الصناعية الحديثه .

وهناك رأى آخر يتجه اليه ر. ردفيلد يقسم التطور التاريخى الحضارى الى مرحلتين رئيسيتين :ـ

المرحلة الاولى وهى ماقبل المدنية واحيانا يطلق عليها تعبير المرحلة البدائية او تعبير ماقبل الكتابة او مرحلة العشائر والمرحلة الثانية مرحلة المدنية ، وعلى ذلك فقد حصر ردفيلد مراحل التطور التاريخى الحضارى فى هاتين المرحلتين شاملا

المراحل المختلفه ، وذلك على اساس ان مرحلة الانتقال الى المدنية هى محــور التقسيم الحضارى فى وجهة نظره . اما مرحلة " ثورة " انتاج الطعام فهى فـــى وجهة نظره مجرد تحول من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة انتاجه ، ولذلك نرد فيلد لا يعتبر هذه المرحلة " ثورة " فى حياة الانسان ويقول انه من الممكن نشأة قــرى دون توصل الى الزراعة مثل قرى الصيادين الهنود الحمر فى شمال غرب الولايات المتحدة الامريكية وايضا قرى الصيادين على ساحل استند ناوة .

ويرى الدارسان ان وجهة نظر رد فيلد تنطبق على كافة المجتمعات بوجه عــام ، ولكن فيما يتصل بمجتمعات الشرق الادنى القديم فقد تميزت بصفة خاصة وذلــك بتوصلها الى انتاج الطعام وانتشار الزراعة وانشاء القرى المتصلة بالحياة الزراعية اكثر منها بحياة الصيد ، ولذلك فمرحلة " ثورة " انتاج الطعام تمثل حقيقة هامة فى مراحل التطور التاريخى الحضارى بالنسبة الى منطقة الشرق الادنى القديم ، ولذلك يميل الدارس الى تأييد وجهة نظر تشيلد الى حد كبير بالنسبة لمنطقـــة الشرق الادنى القديم واعتبارها اكثر ملائمة لمجتمعات هذه المنطقة من وجهـــة نظر رد فيلد فى هذا الصدد .

وقد قام الانسان فى منطقة الشرق الادنى القديم بدور اساسى فى مراحـــل التطور الحضارى السالف الذكر . فهو صاحب الفضل الاول فى الانسانية جمعـاء فى الانتقال بحياة الانسان من مرحلة الطعام الى " ثورة " انتاجه .

وهذه الحقيقة مدعمة بالادلة الاثرية الثابتة . ولم يقتصر مجهود الانسان فـــى

مراحل صنعه وتطوره للحضارة في هذه المنطقة على نواحي الانتاج المادي بل ايضا امتد الى الانتاج الفكري وسار في هذا المجال الى مدى بعيد • وعلى ذلك فان التطور الحضاري في هذه المنطقة يتميز باشتماله على كافة المظاهر المادية والمعنوية للحضارة الانسانية • هذا وقد اختلف العلماء في تعريفهم للحضارة كل حسب وجهة نظره التاريخيه او الاجتماعية او الاقتصادية او الانثروبولوجية او الفلسفية ومنهم شبنجلر وكروبر وردفيلد وتوينبى وكولنجود •

ويمكن القول ان الحضارة تمثل في الحقيقة مجموعة النشاط الانساني بمختلف مظاهره المادية والمعنوية وهي نتيجة مباشرة لمجهوداته وعاداته وتقاليده وسلوكه وتفكيره واستجابته وترتبط في نشأتها وتطورها بحياة صانعها الانسان ومدى تطور تجاربه المتوارثة والمحلية بالاضافة الى المؤثرات الخارجيه •

وهذا المفهوم الشامل للحضارة يتمثل بصورة واضحة في منطقة الشرق الادنى القديم • وقبل دراسة المراحل الحضارية السالفة الذكر في هذه المنطقة يجدر بالباحث التعرض اولا الى موضوع التقويم الزمني لهذه المراحل وطرق التوصل الى هذا التقويم حتى يمكنه وضع كل حضارة منها في مكانها الصحيح تاريخيا وكذلك دراسة هذه الحضارات دراسة مقارنة على اساس تقويمي سليم •

طرق التقويم الزمني :

تعتمد الشواهد الحضارية في تقدير قيمتها التاريخية فيما تعتمد على تقويمها الزمني، لان تقدير عمرها يساعد الدارس على تحديد مكانها الزمني في سجل الادلة الاثرية المختلفة التي تكون في مجموعها مادة التاريخ •

فالتقويم الزمني اساس رئيسي من اهم أسس المادة التاريخية التي يقوم الدارس ببحثها • وبواسطته يتمكن المؤرخ من اثبات وجود الصلات التجارية والحضاريه والسياسية بين مختلف المراكز الحضارية • ويتضح ذلك بصفة خاصة على صلات مصر بغربي آسيا منذ عصور ماقبل الاسرات واثناء العصر التاريخي •

ولذلك يعتبر من الضروري للباحث في التاريخ وفي موضوع الصلات التاريخية بكافة مظاهرها ان يصل الى حل سليم في موضوع التقويم الزمني الخاص بالادلة الاثرية التي يعتمد عليها • وقد اتجه العلماء الى عدد من الطرق منها طرق تقويمية مباشرة وطرق غير مباشرة استخدمت فيها كافة الادلة النباتية والحيوانية والاثرية في محاولة الوصول الى تقدير الزمن الصحيح الذي يمكن للدارس الاعتماد عليه في تاريخه •

ويمكن حصر هذه الطرق التقويمية فيما يلي :ـ

أ ـ طريقة تقويمية مباشرة :ـ

١ ـ طريقة الكربون المشع

٢ ــ ·ريقة التقويم الفلكى

ب ــ ·رق تقويمية نسبية

١ ــ ·اريقة التوقيت المتتابع

٢ ــ طريقة الـ·ابقات

٣ ــ ·ريقة حلقات جذوع الا شـ·ا

٤ ــ ·ريقة الدراسة المقارنة

ويبدأ الدارس بالطرق التقويمية المباشرة :

(١) ·ريقة الكربون المشع :

تعد ·ذه الـ·ريقة من احدث الـ·رق العلمية فى التعرف على اعمار بعـــض الادلة الاثرية وبالتالى ازمنة الحـ·ارات التى تنتمى اليها ·ذه الادلة • وتـ·تمد ·ذه الـ·ريقة على الابـ·اث العلمية الخالصة حيث امكن تـ·بيق بعـ·ـ النظريـــات التى سبق ان توصل اليها العلماء فيما يتعلق بكربون ١٤ وعلاقته بالا·ـعـــة الكونية •

ويمكن تلخيص الحقائق الرئيسية الخاصة بهذه الـ·ريقة فى ان الا شعـــة الكونية الصادرة من الشمس بصفة خاصة تصل الى الـ·ـلاف الجوى للكرة الارضيـــة فتصادم به • وحيث ان كل ذرة من ·ذه الا شعة تتكون من نواة و الالكترونـــات

المحيطة بها وهي شحنات كهربائية سالبة ، والنواة بدورها تتكون من الشحنات الموجبة وتسمى البروتونات والشحنات المتعادلة وتسمى النيترونات فقد ثبت بالتجارب العلمية ان النيترونات الخاصة بهذه الاشعة الكونية سرعان ما تتفاعل مع النيتروجين الموجود في الهواء ، وينتج عن هذا التفاعل كربون ١٤ أي كربون وزنه الذري (١٤) مضافا اليه هيدروجين وزنه الذري ١ وذلك حسب المعادلة التالية :

أي نيتروجين ١٤ + نيوترونات = كربون ١٤ + هيدروجين ١

ومن الملاحظ ان الاكسجين الموجود في الهواء لايتفاعل ابدا مع النيوترونات الخاصه بالاشعة الكونية • ويحمل كربون ١٤ الناتج عن هذا التفاعل الصفة الاشعاعية ويتحول بمجرد تكونه الى ذرات غاز ثاني اكسيد الكربون المشع ويمتزج هذا الغاز بثاني اكسيد الكربون الموجود في الجو •

وتنتقل هذه الذرات الكربونية المشعة بدورها الى النبات الذي يعتمد في حياته على ثاني اكسيد الكربون وبالتالي الى الحيوان الذي يعيش على النبات • وعندما تنتهي حياة النبات يبدأ كربون ١٤ في التحول التدريجي وبسرعة ثابتة الى كربون وزنه الذري ١٢ فاقدا ظاهرة الاشعاع • وقد توصل العلماء الى تقدير نصف عمر كربون ١٤ وهو ٥٦٨٠ = ٢٠ سنة • وعلى ذلك فعندما يعثر علماء الاثار على بقايا مواد عضوية مثل الفحم والخشب يمكنهم قياس بقايا كربون ١٤ المتخلف في هذه المواد واحتساب عمر الاثار على بعد اعتبار الزمن الذي يستغرقه

هذا التحول من كربون ١٤ الى كربون ١٢ . وبذلك يمكن التوصل الى عصر هذه الاثار وبالتالي عمر الحضارة التي تنتمي اليها هذه الاثار . وقد طبقت هذه الطريقة العلميه على عدد من الادلة الاثرية المختلفة في منطقة الشرق الادنى القديم وثبتت نسبيا دقة التقويمات الزمنية التي ادت اليها . اما الطريقة الثانية فهي طريقة التقويم الفلكي .

(٢) طريقة التقويم الفلكي :-

تعتمد هذه الطريقة على دراسة بعض الكواكب والزمن الذي تستغرقه في دوراتها . فقد ثبت فلكيا ان الارض تدور حول الشمس في فترة عام يعرف بالعام الشمسي ويقدر ذلك بمدة ٣٦٥ يوما وخمس ساعات وثمانية واربعين دقيقة وستة واربعين ثانية اي مايقرب من ٣٦٥ وربع يوما . . وبالاضافة الى هذا العام الشمسي هناك ايضا السنة القمرية .

وقد بذل الانسان في منطقة الشرق الادنى القديم وخاصة في كل من مصر وبلاد الرافدين مجهودا كبيرا في سبيل التوصل الى نظام توقيتي سليم يساعده على تنظيم حياته الاقتصادية والسياسية . وكان الاتجاه بين العلماء ان المصريين قد تمكنوا من التوصل الى اختراع التقويم الزمني السنوي في عصور ماقبل التاريخ وخاصة في المرحلة الاخيرة من هذه العصور . اي قبل بداية العصر التاريخي .

وكان اتجاههم هذا مبنيا على اساس ان المصريين قد ربطوا بين ظاهرة مجيء الفيضان في ميعادكل عام بانتظام وبزوغ نجم الشعرى اليمانية سبدت • وهي أولى مجموعة النجوم المعروفة بالكلب الاكبر ، في الشرق قبل طلوع الشمس ، وبتكرر ملاحظاتهم تمكنوا من حساب السنة المدنية على اساس ٣٦٥ يوما • وقد اتجه الى هذا الرأي الاساتذة ماير وبرستد وزيته وبيرنم •

ولما كان الزمن الفعلي للسنة الشمسية يقدر ٣٦٥ ١/٤ من يوما فقد كان هناك فارق يقدر بربع يوم بين التقديرين الحقيقي والمصري القديم ، وهذا الفارق يتضح كل اربع سنوات بيوم واحد وكل ١٢٠ سنة بشهر الى ان يتفق هذا النجم مع بداية السنة وذلك يحدث كل ١٤٦٠ سنة •

وقد سجل المؤرخ الروماني سنسورينوس توافق بداية السنة المدنية مع ظهور هذا النجم سنة ١٣٩ م ، ويمكن احتساب حدوث هذا التوافق سنة ٢٧٧ اق•م وسنة ٤٢٤١ ق•م ، وعلى ذلك امكن حساب تواريخ بعض الحكام المصريين الذين سجلوا ظهور هذا النجم مثل تحتمس الثالث وامنحتب الاول وسنوسرت الثالث فقد سجل تحتمس الثالث الوحدة النجم في الشهر الحادي عشر واليوم الثامن والعشرين ولم يذكر سنة معينة من حكمه ، اما امنحتب الاول فقد ذكر طلوع هذا النجم في السنة التاسعة ، في الشهر الحادي عشر ، اليوم التاسع • وسجل سنوسرت الثالث طلوع هذا النجم في السنة السابعة ، الشهر السابع ، اليوم الخامس والعشرين من حكمه • وقد ساعد ذلك على التوصل الى السنوات التقريبية

التالية فى عصور هؤلاء الملوك وهى سنة ١٤٦٦ ، ١٥٤٥ ، ١٨٦٧ ق٠م٠ بالنسبة لهؤلاء الملوك على التوالى ٠ ولكن اوتو جيار اتجه اتجاها آخر فى تفسير توصل المصريين الى إختراع التقويم الزمنى السنوى ٠ فقد رأى عدم وجود ارتباط بين سنتهم المدنية وبين ظهور نجم الشعرى اليمانية واخيرا اتجه باركر الى دراسة وجهات النظر المختلفة فى هذا الموضوع وايد وجهة نظر اوتو جباور بعدم ارتباط السنة المدنية فى بدايتها بظهور نجم الشعرى اليمانية ولكنه يتجه فى تفسيره الخاص بتوصل المصريين الى تقدير السنة المدنية بـ ٣٦٥ يوما الى القول بان التقويم القمرى كان هو الاساس الاول فى توصل المصريين الى تقويمهم الزمنى ٠ ويقترح باركر احتمال كون المصريين قد اخذوا متوسط السنة القمرية فى عدة سنوات وتوصلوا بذلك الى تفسير طول هذه السنة بـ ٣٦٥ يوما ٠

وعلى الرغم من اختلاف وجهات نظر العلماء فى تفسير اصل السنة المدنية المصريه الا ان هذه الحقائق تعاون الباحث على دراستها ومقارنتها بالحقائق الفلكيه الحديثة ثم التوصل بالتالى الى تقدير الزمن الذى حكم فيه الملوك المصريين فى اثناء العصر التاريخى ٠ ولا تخلو هذه الطريقة من وجود نسبة من التقويمات الزمنية التقريبية فى تاريخ بعض الاحداث والملوك ولكن ذلك لا يمنع من فائدة هذه الطريقة لحد كبير فى محاولة التوصل الى التاريخ الحقيقى ٠

وفيما يتصل بالمراحل السابقة للعصر التاريخى فاننا بالتالى نؤرخ على اساس

كون نهايتها تمثل بداية العصر التاريخي • ومساعدة الطرق التقويمية يتمكن الدارسون الوصول الى تقدير عمر الادلة الاثرة المختلفة المنتمية الى عصور ما قبل التاريخ وايضا تقدير حضارتها • وبالاضافة الى هاتين الطريقتين التقويميتين هناك عدة طرق اخرى تساعد الدارس على التوصل الى تقويم زمني نسبى •

(١) طريقة التوقيت المتتابع :

بدأ بترى بدراسة الاوانى الفخارية التى عثر عليها فى جبانة نقادة والبلاص دراسة مقارنة من حيث طريقة الصنع واشكال هذه الاوانى وطرق التزيين المختلفة وذلك على اساس حقيقة التطور فى الصناعات منذ البداية بمعنى ان اية ادلة اثرية قد مرت بعدة مراحل تطور فى انتاجها • وعندما يعثر علماء الاثار على مجموعات من هذه الادلة المختلفة يستعينون بالدراسة المقارنة ترتيب هذه الاثار حسب طراز ا آخذين فى الاعتبار الامكانيات الخاصة بكل منطقة وظروف الانسان فيها ومستواه الحضارى فى كل موقع على حدة •

وقد قام بترى بتطبيق ذلك ، فصنف الاوانى الفخارية تصنيفا دقيقا واعتمد فى نظامه على الترقيم ، فقسم هذه الاوانى الى مجموعات من رقم ٢١ الى ٢٩ فيما يتعلق بحضارات العصر الحجرى الحديث وعصر الحجر والنحاس تاركا ماقبل ذلك لما يحتمل ان يستجد به البحث والتنقيب • ومن رقم ٣٠ الى ٣٧ بالنسبة لعصر حضارة نقادة الاولى ، ومابعدها بالنسبة الى حضارة نقادة الثانية او حضارة جرزة الاخيرة

ولا تعطى هذه الطريقة تاريخا ثابتا بل هى احدى الطرق التقويمية النسبية التى تساعد على ترتيب التطور الحضارى للادلة الاثرية وخاصة الاوانى الفخارية ، وبذلك يتمكن الدارس من وضع كل حضارة فى مكانها الصحيح بناء على ترتيبها التطورى فى فنية الصناعة والشكل والحجم والوظيفة .

وقد ساعدت هذه الطريقة العلماء فى ترتيب الحضارات المصرية السابقة للعصر التاريخى ولكن حدث تعديل فى الترقيم بناء على الدراسات المقارنة وكذا العثور على بعض الادلة الاثرية الجديدة ، وعلى ذلك فهذه الطريقة طريقة نسبية صرفة ، وهناك طرق اخرى نسبية ايضا مثل طريقة الطبقات .

(٢) طريقة الطبقات :

يقوم العلماء بدراسة الطبقات المختلفة فى التلال والاكوام والكهوف التى كان يسكنها الانسان . وقد تنوعت هذه الطبقات نتيجة طبيعية لسكنى الانسان فى منطقة ما ، ثم هجرته منها ربما لاسباب اقتصادية او بيئية او سياسية ثم سكنى مجموعة بشرية ثالثة مما ادى الى تكوين طبقات تمثل آثار سكنى واقامة هذه المجموعات البشرية على التوالى ، وتجمعت هذه الآثار بعضها فوق بعض مكونة طبقات التلال والاكوام .

ويقوم العلماء ببحث الادلة الاثرية المختلفة التى يعثر عليها الاثريون فى هذه الطبقات ، وايضا يقومون ببحث الادلة وبدراسة سمك هذه الطبقات أى

مدى مكوث الانسان واستقراره في هذه المنطقة او تلك ، آخذين في الاعتبار مختلف العوامل البيئيه والدوية والظروف السياسية والدينية التي يحتمل ان توثر على مكوثهم او رحيلهم من هذا المكان •

وهذه الدراسه تساعد المؤرخ على التعرف بصورة نسبية على مدى عمر هذه الحضارة او تلك كما تو مبين في بقايا هذه التلال • هذا ومعاونة الطرق التقويمية الاخرى يتمكن الدارس من الوصول الى تاريخ هذه الحضارات •

(٢) طريقة حلقات جذوع الاشجار :

تتلخص هذه الطريقة في انه لما كان النبات يعتمد في نموه على كمية المياه واشعة الشمس ونوع التربة التي ينمو فيها ، فقد لوحظ ان مراحل هذا النمو تظهر في شكل دوائر او حلقات في داخل جذوع الاشجار ، ويتضح ذلك في القطاع الافقي لها • وتتفاوت المسافات بين هذه الحلقات على مدى تأثر الاشجار بالظروف الطبيعية التي تساعد على النمو وخاصة كمية الامطار • وقد طبقت هذه الطريقة على بعض مجتمعات الهنود الحمر في جنوب غرب الولايات المتحدة الامريكيه • حيث لوحظ ان اكواخ هذه المجتمعات مسقفة بواسطة جذوع هذه الاشجار التي تظهر فيها حلقات النمو السالفة الذكر •

وبالدراسة المقارنة و البحث العلمي في الزمن اللازم لمراحل النبات امكن التوصل الى عمر هذه الاشجار وبالتالي عمر المجتمعات التي استخدمتها •

(٤) طريقة الدراسة المقارنـــة :

تقوم هذه الطريقة على مقارنة الادلة الاثرية المختلفة في كافة المراكز الحضارية ويتطلب ذلك المام كافيا بالتراث الاثرى في كل موقع على حدة وفي اماكن متفرقـــة حتى يتمكن من مقارنتها على اساس سليم والوصول منها الى تقدير معاصـــرة او اسبقية بعض الحضارات على الاخرى •

هذه الطرق التقويمية المختلفة يعاون بعضها بعضا في التعرف على ازمنـــة الادلة الاثرية المختلفة ولا يجب الاقتصار على طريقة واحدة منها بل من الضـــرورى الاعتماد على اكثر من طريقة حتى يكون هناك مجال للتأكد والتثبت من تاريخ هذه الادلة • ومن الاهمية بمكان التنويه بأن التقويم الزمنى هو الاساس الاول في الفهم للتاريخ الانسانى • ولذلك فالتثبت من هذا التقويم يساعد على تاريـــخ الحضارات المحلية تاريخا صحيحا من ناحية ، وعلى اثبات او نفى وجود صـــلات حضارية اوسياسية او اقتصادية بين هذه الحضارات وغيرها من ناحية اخرى •

مرحلة جمع المعلومات :

تعددت المدارس التاريخية التى تفسر التراث الانسانى وذلك حســـــب الاتجاهات التى يقوم العلماء بتتبعها فهناك المدرسة الاقتصادية التى ترتكز على الجوانب الاقتصادية فى حياة الانسان وتفسر الاحداث التاريخية على هذا الاساس

وهناك المدرسه الاجتماعية التى تتبنى التطور المجتمعى من حيث طبقاتــــه وتقاليده وعاداته وصفات افراده بصفة عامة • هذا بالاضافة الى المدارس السياسية التى تركز عامة على التطورات السياسية المختلفة • ويمكن اعتبــار المدرسة الاقتصادية صاحبة الاولويه فى التاريخ الانسانى لان حياة الانســان منذ حمله للصفة الانسانية تعتمد اولا على توفير احتياجاته المادية ثم البحــث عن العوامل الموفرة للطمأنينة والمفسرة لكافة الجوانب المادية والفكرية فى حيــاة الكائن البشرى •

وعلى ذلك بدأ الانسان حياته الاولى جامعا للطعام وذلك منذ حوالــى نصف مليون سنة على الاقل • واتصل الانسان خلال هذه المرحلة بمختلف مظاهر الحياة الحيوانيه والنباتية كما واجه الصعوبات البيئية والجوية والمائية البحريــة والنهرية •

فقد كانت حياته تعتمد على الصيد والرعى والالتقاط واستمر على هذا المنوال فترة زمنية طويلة • وذلك لان حياته فى تلك المرحلة لم تكن من السهولة بمكان بل ــ كانت تكتنفها الكثير من الانتقالات والصعوبات • ومع ذلك فقد كان يحاول المحافظة على كيانه الانسانى والتغلب على هذه المشكلات وتكييف حياته فى حدود امكانياته وبما يمكنه من التحكم فى هذه البيئة مستغلا مامنحته الطبيعة اياه من قـــدرات حسية وعقلية وبدنية تميزه عن كافة المخلوقات الاخرى •

وقد قام العلماء بالبحث عن آثار هذا الانسان في هذه المرحلة فاتجهوا الى مناطق الصحارى والهضاب ووديان الانهار والشواطئ والمدرجات المؤدية الى المنخفضات والواحات والعيون والابار وغيرها من المناطق للبحث عن مخلفات هذا الانسان الاول سواء اكانت بقايا عظمية انسانية او حيوانية تمكن من التحكم فيها والاعتماد عليها في غذائه او كافة مخلفاته الاخرى وبصفة خاصة الحجرية ..

وقد بدأت عمليات الدراسات العلمية لهذه الاثار في اوربا ولذلك يلاحظ ان اصطلاحات العصور الحضارية المنتمية الى هذه المرحلة تحمل اسماء اماكن اوربية وبصفة خاصة فرنسية مثل الحضارات الشيلية والاشولية والموستيرية وغيرها . وقد قام العلماء بتصنيف تلك المادة الاثرية وذلك حسب التقاليد الصناعية المتبعة في تشكيلها وكذلك كميتها ووظيفتها . ونجم عن ذلك ثلاث مراحل حضارية رئيسية تنتمي الى هذه الفترة :-

أ - مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل
ب - مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط
جـ - مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى

ويلاحظ ان المادة الحجرية هي المادة الرئيسية التي اتجه الانسان الى استخدامها لصنع ادواته المختلفة وذلك لان الحجر وبصفة خاصة حجر الظران له مزاياه الخاصة بالاضافة الى كونه متوفرا بسهولة في البيئة فهو حجر وحيد التركيب يسهل قطعه الى شظايا تؤدى وظيفة القطع مما يساعد الانسان على تحقيق

اغراضه المختلفه • ولا شك ان الانسان لم يصل الى هذه الحقيقة السالفة الذكر بمحض الصدفة بل قد كان ذلك على اثر خبرة طويلة بالبيئه المحيطة به • حيث تبين له صلابة هذه المادة الحجرية وملاءمتها لتحقيق اغراضه وقد استخدم الانسان هذه الادوات الحجرية في كافة مظاهر حياته السلمية والدفاعية • ولم يقتصر فى هذا الشأن على هذه المادة فقط بل لقد استخدم موادا اخرى كالعظام والخشب والعاج وغيرها • وصناعة الالة الحجرية عملية فنية من الدرجة الاولى ذلك لان الانسان يقطع الحجر ويشكله فى شكل اداة خاصة تصلح لتحقيق غرضه • وتتطلب هذا التشكيل تجارب طويلة وتدريب يستخدم فيه قدراته الحسية كالنظر واللمس وقدراته العقلية وبذلك يحقق اقدم جهد انسانى ويثبت كيانه الفريد والذى يميزه عن عالم الحيوان •• ولقد اصبحت تجاربه هذه بمثابة خبرة لها اعتبارها لمن خلفه من اجيال مما ساعد على تطور هذه الصناعات الحجرية فى المراحل التالية •

ويبدأ الدارس بالمرحلة الاولى وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل •

مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل :

تمثل تلك المرحلة الجهد الانسانى الاول فى ميدان صنع حضارته •• وتعتبر الفأس اليدوى الاثر المميز لهذه المرحلة •

وقد اصطلح العلماء الاوربيون على تسميتها باسم الحضارتين الشيلية والاشولية

وتنبغى الاشارة الى الصفات العامة المميزة لهذه الحضارة تتشابه لحد ما فى عدد كبير من جهات العالم • ولذلك فان استخدام الاصطلاح الدولى كالحضارة الشيلية مثلا فى غير مناطقها الاصلية كمصر وغربى آسيا والمغرب القديم يعتبر متفقا مع واقع وجه الشبه الفنى فى الصناعات الحجرية فى هذه المواقع السالفة الذكر •

وقد سبقت الاشارة الى التغيرات الجوية التى مرت بالعالم فى عصر البليستوسين مثل المراحل الجليديه والمطيرة والجافة • ولكن على الرغم من انتشار طابع معين فى مناخ هذا العصر فان المواقع الحضارية تختلف من حيث طبيعتها من مكان الى آخر • فيلاحظ الدارس مثلا ان آثار العصر الحجرى القديم الاسفل فى مصر تتوفر على الهضاب المطلة على نهر النيل وكذلك فى بعض المناطق الصحراوية المحيطة • وقد عثر مثلا على الفؤوس اليدوية فى ابيدوس والفيوم وقنا • كما ادى الكشف عن ابقات المحاجر فى شمال شرق القاهرة فى موقع العباسية الى التعرف على بقايا آثار العصر القديم الاسفل فى الطبقات السفلى • ولكن فى فلسطين وغيرها من مواقع غربى آسيا مثل شمال العراق وكذلك فى المغرب يلاحظ الدارس انتشار آثار هذه المرحلة ليس فقط فى المواقع السطحية بل ايضا فى داخل الكهوف والمغارات • لان الانسان كان يتجه فى تلك المناطق الى الاحتماء بتلك التجاويف الطبيعية فى الهضاب لحماية نفسه ليس فقط من الاحوال الجوية بل ايضا من الاخطار التى تهدد حياته •

اما المرحلة التاليه فهي مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط •

ب) مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط :

اتجه الانسان الى بداية هذه المرحلة الجديدة في حياته بصناعة ادوات حجرية مشتقة من الفئوس اليدوية ومن الشظايا وتتميز هذه الادوات الحجرية بصغر حجمها وتنوع اشكالها وذلك لكي تمكن الانسان من تحقيق اغراضه المختلفة وقد صنعها الانسان بفصلها عن النواة الاصلية لكي تؤدي وظيفة القطع التي يحتاج اليها • وتعرف تلك المرحلة الحضارية بالنسبة للحضارات الاوربية بالحضارة الموستيريه نسبة الى كهف موستييه بفرنسا • ورغم هذا التقدم النسبي في تلك الصناعة فقد ظل الانسان في تلك المرحلة جامعا للطعام متنقلا من مكان الى آخر بحثا عن البيئة المناسبة لصيده الجديد ومعيشته المؤقتة في الاماكن التي تتناسب مع الاحوال الجوية في ذلك الوقت •

وفيما يتصل بمنطقة شمال افريقيا والشرق الادنى القديم فقد كان الجو يميل الى الدفء مما ادى الى حياة الانسان في المناطق المفتوحة ولكنه يضطر الى الالتجاء الى الكهوف والمغارات في الهضاب والمرتفعات حين تشتد البرودة • وقد صنع الانسان في هذه المرحلة في هذه المناطق السالفة الذكر ادواته الحجرية المناظرة لحد كبير لتلك الادوات التي صنعها زميله في المناطق الاخرى • ولذلك اصطلح على تعيين المثال استخدام اسم الحضارة الموستيرية المصرية

بالنسبة الى الصناعات الحجرية المنتمية لتلك المرحلة فى مصر •

ومن الاهمية بمكان الاشارة الى لنه من اهم مميزات هذه المرحلة الحالية خروج الانسان عن دائرته التى كان يطرقها فى المرحلة السابقة واتساع نطاق اتصالاته الخارجية والتأثير والتأثر بالمجهودات الصناعية والحضارة الاخرى فى المناطق التى يتصل بها • ويمكن تلمس نماذج من هذه الاتصالات فى الدراسات المقارنة للصناعات الحجرية فى الحضارة العاترية فى المغرب نسبة الى بئر العاتر فى جنوب تونس من ناحية والصناعات الحجرية فى مصر فى منطقة الواحات الخارجية حيث تلاحظ شواهد الاتصالات الحضارية • وتنبغى الاشارة ايضا الى ان الصناعة الشظايا قد تطورت فى عدة اشكال لتأدية وظائف ادوات مختلفة من ازاميل والمكاشط والمحكات •

وهذا التنوع فى الصناعة الحجرية يبين بوضوح اتساع دائرة تفكير الانسان فى تلك المرحلة وتعدد احتياجاته التى تستوجب صنع تلك الادوات الجديدة • كل ذلك ادى الى انتقال الانسان الى المرحلة الجديدة وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى •

ب) مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى :ــ

تعتبر تلك المرحلة نهاية العصر الحجرى القديم وتتمثل فيها التجارب الاولية

التى تعرف عليها الانسان فى تلك المرحلة ، وتتميز بصناعة حجرية جديدة هى صناعة الاسلحة النصلية ، وهى عبارة عن ادوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الانسان من صنعها بصورة تنم عن مجهوداته السابقة وتعرف باسم الاسلحة الميكروليثية او الحجرية الدقيقة ، ولا شك ان الانسان قد سهل عليه حمل هذه الاسلحة والانتقال بها الى اماكن جديدة بيسر بسبب صغر حجمها وفاعليتها كأداة قاطعة وكان لذلك اثره فى زيادة اتصالاته بالمناطق الجديدة التى يفد اليها . ولقد كان المناخ فى تلك الفترة فى مناطق الشرق الادنى وشمال افريقية يميل اينما الى الى الدفء ولكن يلاحظ ان بداية الرطانة قد ظهرت معالمها بعد انسحاب الهجمات الممطرة والباردة نحو الشمال وانحسار المياه المتجمعة فى البحيرات والمستنقعات والواحات والابار .

ويمكن الاستدلال على هذه الظواهر المناخية من البقايا العظمية الحيوانية حيث يلاحظ انتماء هذه العظام الى حيوانات تتفق مع المناخ الجاف كالنعام والغزلان وغيرها . وتتمثل تلك المرحلة الحضارية فى مصر فى الحضارة السبيلية نسبة الى بلدة السبيل بجوار نوم امبو ، كما تتمثل فى المغرب فى الحضارة القفصية والحضارة الوهرانية

وكذلك حضارات الحضارات المماثلة لها فى فلسطين وشمال العراق القديم .
ولم تقتصر هذه المرحلة على قدرتها المادية بل لقد نجح الانسان فى دفع حياته نحو الامام ومحاولة التعبير بالرسم والحفر على جدران الكهوف والمغارات

من الذات وظلها اخرى • كما انه من ناحية اخرى بدأ يعتقد بصورة اولية فـــى وجود قوى كامنة فى بعض الاوان والابهمية تستوجب الاحترام والتقدير الخـاص وذلك على اثر تجارب معينة واجهها الانسان فى تلك المناطق • ويستدل علـى ذلك بوجود بعض اكوام حجرية تنتمى الى هذه المرحلة تتوسط المواقع الاثرية وقد عثر على الاثار الحجرية بجوارها •

وتعتبر هذه الظاهرة بمثابة مرحلة مبكرة من مراحل الايمان بوجود قـــوى مقدسة تتحكم فى حياة الكائن البشرى ومصيره وتستوجب محاولة الانسان ارضـــاء تلك القوى لدى مئنان على كيانه ومستقبله •

كل ذلك قد دفع الانسان الى نقلة خطيرة فى حياته الانسانية اعتبرها بعض العلماء بمثابة ثورة اقتصادية وحضارية غيرت كيانه ووظيفته ومستقبله تغييرا كليـــا هذه المرحلة الجديدة هى مرحلة انتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث •

الفصل الثالث

عملية انتاج الطعام في جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا

١ ـ كيفيه واسباب قيام عملية انتاج الطعام :

يحاول العلماء البحث عن كيفية حدوث هذه النقلة الخطيرة في حياة الانسان من مرحلة الجمع والالتقاط والصيد وعدم الاستقرار الى مرحلة الزراعة وانشاء القرى وبداية التنظيمات المستقرة • وتحقيقا لذلك قام العلماء بالبحث عن المواقع الاثرية التى تبين خط سير التطور الطبيعي من مرحلة جمع الطعام الى مرحلة انتاجه • وتبين هذه الدراسة وجود فجوات كثيرة لا تزال تستوجب مداومة البحث والتنقيب عن مواقع يمكن تتبع خط التطور فيها كاملا • وعلى ذلك فحتى الوقت الحاضر يمكن القول بأن عملية النقله ذاتها وكيفية حدوثها لا تزال في حاجة الى تدعيم واضح بالمادة الاثرية • ولكن هناك عدة نظريات ومحاولات تعمل لحل هذا المشكل وتحاول التوصل الى حل له • اول تلك النظريات تتجه الى الاعتقاد بأن العامل البيئي كان بمثابة العامل الاول الذى دفع الانسان الى احداث تلك النقلة •

فكما سبقت الاشارة اضطر الانسان الى ترك المناطق الجافة على اثر تراجع العصر

المطير واتجه الى مناطق الاودية والابار والعيون والواحات حيث يستطيع الاستقرار بصورة مؤقتة ولكنه لا شك قد لمس في هذه البيئة الجديدة بعض الظواهر التي استلفتت انتباهه وخاصة بعد حالته نسبيا الاستقرار المؤقت فيها بعد تجواله الطويل في المناطق الجافة ، وتنحصر تلك الظواهر في ازدياد منسوب المياه في بعض الاوقات وتهديدها للانسان القاطن بجوارها ثم انحسار تلك المناسيب مرة اخرى وتكرار هذه الظاهرة عاما بعد عام ، وقد عبر ارنولد توينبى عن هذا المظهر بالقول انه كان يعتبر تحديا للكيان الانسانى مما اضطر الانسان الى مجابهة هذا التحدى وتفهم تلك البيئة والتوصل الى محاولة التحكم فيها والنجاح في هذا الاتجاه ، وتعرف نظرية توينبى بنظريه التحدى والاستجابة وعلى ذلك فقد حاول الانسان ان يواجه هذا التحدى البيئى بمحاولة التحكم في مياه الانهار بمختلف الوسائل مثل انشاء السدود والجسور والقنوات والحواجز وغيرها ، التى تعمل على محاولة تحقيق هذا التحكم وانقاذ الانسان من تهديد المياه لحياته ، وقد لمس الانسان في اثناء عمليات هذا التحكم بوادر انتاج الطعام في بزوغ الحياة الزراعية البرية على الشواطئ المطلة على هذه الاودية والعيون والواحات حيث تنتشر الحياة الزراعية البريه كنتيجة طبيعية للثروة العشبية والمائية بصورة تلقائية شبه منتظمة ومتصلة بظاهرة مجيء هذه القنوى المائية وانحسارها بعد ذلك في اوقات معينة من السنة مما كان له اثره فى خلق الوعى التجريبى الكافى لمحاولة تقليد الطبيعة وصنع الزراعة ونقل حياته من الجمع

الى الانتاج .

وقد لحقت بذلك عدة تجارب ومحاولات مستمرة ساعدته على تأكيد هذه الظواهر السالفة الذكر والاستقرار لاول مرة في حياته بجوار هذه الانهار والواحات والعيون والابار والمنخفضات المائية . ومثل هذا التفسير في حاجة الى تدعيم بالادلة الاثرية رغم منطقية امكانية حدوثه . وتتفاوت تلك الادلة من منطقة الى اخرى . ونبعد الاسترسال في تتبعها يتحتم على الباحث الى اشارة بعض النقاط التي تستوجب الدراسة في هذا المجال . يتساءل الدارس فى الاسباب التي ادت الى امكانية حدوث هذه النقلة في منطقة وادي النيل الادنى بالذات ولماذا لم تحدث في وادي النيل الاعلى في السودان او اثيوبيا مثلا . وكذلك بالنسبة الى النقاط المائية الاخرى في مختلف جهات العالم .

ولا شك ان هذه النقلة قد حدثت في بعض تلك الاماكن ولكنها لم تحدث في تلك الفترة الزمنية المبكرة التي حدثت في مصر . ويمكن الرد على هذا التساؤل بالقول بأن البيئة المصرية في وادي النيل الادنى فريدة في بيئتها حيث ان الهضاب المطلة على وادي النيل في تلك المنطقة تسمح للقاطنين عليها بتتبع هذا المجرى المائي الهائل الاتي من الجنوب والحامل للقوى التكوينية التي تؤدي فاعليتها في خلق ارض جديدة تسمح بحياة نباتية برية تنبثق منها . هذه الملاحظة واضحة ومتكاملة بدرجة فريدة في وادي النيل الادنى يلمسها

الانسان عاما بعد عام بينما في المناطق الاخرى وبما نال لتعدد النوى المائية ومواجهتها الصعوبات الصحراوية في الهضاب والشلالات وتعدد البيئات المطلة عليها • كان لكل ذلك اثره في عدم تركيز ذهن الانسان الى تتبع ومداومة ملاحظة ابيعة هذا النهر على مدار الايام •

وهناك نظريات اخرى تحاول تفسير حدوث تلك النقلة منها نظرية التفوق البشرى على اساس ان العنصر البشرى صاحب تلك النقلة كان يفوق العناصـــر الاخرى قدرة وذكاء مما ادى الى صنعه هذه الحياة الجديدة قبل غيره •

ولكن ثبت من الدراسات الانثروبولوجية الحديثة عدم صحة نظرية التفـــوق الجنسى بل والوصول الى حقيقة مجردة هى عدم وجود اى ارتباط بين الجنـــس او العنصر البشرى وبين التفوق فى عملية بناء حضارة او مدنية • ويمكن القول بأن توصل الشرق الادنى القديم الى مرحلة انتاج الطعام هذه قد جاء نتيجــــة تطور طبيعى فى الصناعات المختلفة التى تمكن انسان هذه المناطق من انتاجهـا فى مرحلة انتاج الطعام •

ولكن لا شك ان عامل انتظام البيئة بالنسبة لمصر كان مساعدا فى التوصـــل الى الزراعة والاستقرار • فالنيل كما سبقت الاشارة يفيض فى وقت معين وبصـــورة منتظمة كل عام • وقد لاحظ الانسان ذلك عندما قطن بجوار هذا النهـــره كما لاحظ أيضا شروق الشمس وغروبها اى ولادتها وموتها بصورة واضحة فى البيئة المصريـــة •

وكذلك لاحظ ظهور واختفاء بعض الجزر الصغيرة الموجودة في مجرى نهر النيل وذلك اثناء ارتفاع مياه الفيضان وانحسارها بعد انتهائه • وكذلك مايترتب على مجيء الفيضان من القذف بكميات من الغرين مما يساعد في ظهور بعض النباتات • اي ان الكثير من الحياة الزراعية التي لاشك انها استرعت انتباهه مما ادى الى تعرفه على عدد من التجارب المختلفة المرتبطة بهذه البيئة ذات النشاط المنتظم • ولا شك ان ذلك قد مهد الى توصله التدريجي الى مرحلة انتاج الطعام • وقد حدث مايشبه ذلك مع اختلاف في الاوضاع البيئية في منطقة بلاد الرافدين •

وتجدر الاشارة هنا الى ان ثورة انتاج الطعام قد استغرقت حوالي الالف عام حتى تمكن الانسان من الانتقال الفعلي الى مرحلة الزراعة والاستقرار • وقد امضى الانسان تلك الفترة في التعرف على عدد من التجارب المختلفة التي ساعدته في الانتقال بحياته الى المرحلة الجديدة • وبوصوله الى مرحلة الزراعة هذه بدأ في انشاء القرى وبناء المساكن والمخازن والمقابر والمعابد والاسواق والطرقات ومايلزم للحياة المستقرة في مجتمعه الجديد •

وفيما يتصل بموضوع الادلة الاثرية التي تثبت حدوث تلك النقلة من الجمع الى الانتاج تنبغي الاشارة الى ان الادلة القائمة حاليا تشير الى مرحلة انتاج الطعام أي العصر الحجري الحديث المتمثل في القرى السالفة الذكر • ولكن الادلة الاثرية التي تبين تتابع خط سير التطور يمكن ملاحظتها في بعض المواقع

الاثرية التى تنتمى حضارتها الى الفترة الواقعة بين العصر الحجرى القديـــم الاعلى والعصر الحجرى الحديث وعلى الرغم من قلة هذه المواقع الا انه لايـــزال البحث جاريا عن مواقع جديدة تنتمى الى تلك المرحلة • ومن اهم المواقع المعبرة عنها مواقع الحضارة النطوفية فى فلسطين •

ب) الحضارة النطوفية :ــ

تحمل تلك المرحلة الحضارية اسمها نسبة الى وادى النطوف شمال غربـــى القدس فى فلسطين • وقد عثر فى طبقات هذا الموقع على آثار فى غاية الاهميـــة تمثل تلك النقلة فهى تشمل مرحلة جمع الطعام من ناحية • اى آثار الصيـــــد وآثار بداية الانتقال نحو الاستقرار من ناحية اخرى • فهناك الادوات الحجريـــة ورؤوس السهام وغيرها من آثار العصر الحجرى القديم الاعلى بالاضافة الـــــى المناجل والجران التى تمثل عنصرا حضاريا جديدا يقترب بالانسان الى انتـــاج الطعام والاستقرار اكثر من انتمائه الى مرحلة الجمع والالتقاط • فالمنجـــــل وظيفته قطع النباتات البرية او المزروعة ومن الممكن استخدامه فى احدى الوظيفتين ومن ناحية اخرى يلاحظ ان بعض عظام الحيوانات المتخلفة عن تلك الحضارة قد دلت عمليات فحصها على اتفاقها مع الحياة المستأنسة اكثر من الحياة البريـــــة مما يدعم الاتجاه نحو الانتقال الى بداية الاستقرار • مع استمرار بعض افـــــراد مجتمع تلك المرحلة فى حياة الجمع والصيد بما يتضمنه من صيد الاسماك والحيوانات

والطيور • ولكن هناك اتجاه آخر يميل الى الاعتقاد بعدم توصل الحضارة النطوفية الى استئناس الحيوان • وهناك اختلاف في الرأي بالنسبة الى الكلب النطوفي حيث يتجه البعض الى اعتباره ذئبا • وعندما تستكمل دراسة المادة الاثرية في المواقع المكتشفة اخيرا يزداد اتضاح وحسم هذا الموضوع •

وقد تعددت الحضارة النطوفية في مواقعها الاثرية بين الكهوف والساحات الممتدة امامها وبصفة خاصة في نواحي جبل الكرمل • وبين مواقع القرى في وادي نهر الاردن حيث يتضح اتضاح التطور الحضاري •

وقد تضمنت الحضارة النطوفية ثلاثة مراحل حضارية مبكرة ومتوسطة ومتأخرة • • وقد اختلف العلماء في تاريخها واعتمادا على طريقة الكربون المشع تؤرخ بحوالي ١٠٫٠٠٠ سنة ق•م• في بدايتها ولكن هذا التقدير الزمني ليس نهائيا حيث يتجه البعض الى تأخير هذا التاريخ •

ومن الناحية البشرية ينتمي اصحاب تلك الحضارة الى عنصر البحر الابيض المتوسط المختلط بنسبة زنجية محدودة • ولا تقتصر آثار تلك الحضارة على الادوات الحجرية الميكروليثية بل لقد تميزت بصناعتها العظمية خاصة ايادي المناجل • وكذلك السنانير والابر والدبابيس •

ومن اهم مواقعها الاثرية في منطقة وادي نهر الاردن موقع عين ملاحة شمال غرب بحيرة الحولة • حيث عثر على عدد من القرى التي تتميز بمنازلها الدائرية

والمبنية من الحجر ولكن يحدها ان ارضياتها دون مستوى سطح الارض . وقد ترك انسان تلك الحضارة في تلك المنازل مختلف آثاره الحجرية والعظمية . هذا بالاضافة الى بعض الاثار المعبرة عن قدراته الفنية كالتماثيل الصغيرة التي يمكن اعتبارها من اقدم امثلة النحت في الشرق الادنى القديم ، وكذلك الاثار المصنوعة من الخرز والاصداف وفي مجال الاعتقاد في العالم الاخر عثر على عدد من المقابر الفردية والجماعية التي تؤكد اعتقاده في الحياة الاخرى فقد لوحظ تغطية الهيكل العظمي للمتوفى بالكتل الحجرية ، وهذه الظاهرة تمثل مرحلة مبكرة للغاية من مراحل المحافظة على المتوفى وتطورت فيما بعد الى تخصيص بناء علوي للمقبرة

ومن الاهمية الاشارة الى تواجد ظاهرة ذر التراب الاحمر في المقابر تلك الظاهرة التي يلمسها المؤرخ في بعض الحضارات الاخرى وخاصة في الهضبة الايرانية ربما لارتباط ذلك التراب الاحمر بموضوع الخلود واستمرار الحياة في العالم الاخر .

وقد ترك انسان تلك الحضارة النطوفية بعض ادوات الزينة مع المتوفى كالعقود وغيرها ، كما زينت جمجمته احيانا بالاصداف .

كل ذلك يبين اهمية تلك الحضارة في مرحلة الانتقال نحو الاستقرار فهي تمثل خطوات رئيسية في هذا الصدد .

جـ) الانتقال الى مرحلة انتاج الطعام ونشأة المجتمعات المستقرة :

يداوم العلماء البحث عن محطات حضارية اخرى تستكمل معرفة الباحث عن هذه المرحلة الحاسمة فى خط سير تطوره الحضارى . ولا شك ان الانسان قد مر بمرحلة انتقال مهدت الى احداث هذه الثورة الاقتصادية الهامة فى حياته والتى ادت الى نقلته نحو انشاء القرى الاولى والاستقرار فيها ومواصلة تقدمه الجديد فى كافة المجالات المادية والفكرية . . وبادئا بذلك المرحلة الحاسمة وهى مرحلة العصر الحجرى الحديث .

ولا شك ان الحضارة النطوفية تعتبر من اهم مراحل الانتقال نحو انتاج الطعام والاستقرار ، وقد عثر اخيرا فى جريكو على آثار الحضارة النطوفية ولكن بصورة متصلة حضاريا تؤكد صفة الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وانتاج الطعام . ويمكن استخدام اصطلاح ماقبيل النيوليتيه بالنسبة لتلك المرحلة السابقة مباشرة للعصر الحجرى الحديث . وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية المنتمية لتلك المرحلة مثل مواقع شانيدار وخاصة فى الطبقة ب ١ فى اقصى شمال شرقى العراق وتبة ازياب فى سهل كرمنشاه غرب ايران وغيرها . ولكن موقع جريكو يمثل فى الواقع حلقة الاتصال الحضارى نحو المراحل الحضارية التالية .

ومن اهم آثار تلك الطبقة المبكرة فى جريكو مبنى محاط بحيطان

حجرية اختلف العلماء في تفسيره ولكن يغلب انه كان بمثابة معبد ويقع بجوار نبع جريكو . . وتحاول الاستاذة كنيون الربط بين هذا المعبد الذى وغيـــــرى وبين موضوع تقديس الماء ، وكذلك تماثله بعض المجتمعات الاوربية النيزوليتيـة ونظرا لوجود آثار حريق في ذلك المعبد فقد استخدمت بعض الاثار المتفحمة المتخلفة عن الحريق في التاريخ بواسطة الكربون المشع ونتج عنها التقويـــــم الزمنى ٢١٠ = ٧٨٠٠ ق٠م٠ ولكن ينبغى التريث نسبيا في الاعتماد بصـــورة حاسمة في هذا التقويم الزمنى .

وقد مر المجتمع الانسانى بمراحل عديدة من التطور الاقتصادى والاجتماعى والدينى والسياسى .

ويمكن تتبع هذا التطور في مختلف مجتمعات ماقبل التاريخ في العصـــــر الحجرى الحديث وفي عصور ماقبل وقبيل الاسرات ، ولكن كما سبق ان اشـرت ان التطور الكبير في المجتمع الانسانى حدث في العصر الحجرى الحديث في منطقة الشرق الادنى القديم وخاصة في كل من مصر والعراق القديم وفلسطين حيث حدث الانتقال الى مرحلة انتاج الطعام . وفى ذلك العصر بدأ الانسان في تكوين تقاليد صناعية جديدة بعد تعرفه على الثورة الصناعية الاولى وحاجته الى مختلف الادوات الصناعية الخاصة بنشأة الزراعة .

كما ان تعرفه على الحياة الزراعية قد اضطره الى الاستقرار والى ظهـــور المجتمع القروى مما ادى الى نشأة نوع جديد من تفكير الانسان وسلوكه فـــى

مختلف مظاهر حياته . وذلك على اساس الحيازة والاستقرار التى يقوم عليهما المجتمع الجديد . فمجتمع العصر الحجرى الحديث يقوم على اساس الاستقرار الزراعى وليس على اساس الانتقال من مكان الى آخر .

وقد خلق هذا الوضع الجديد سلوكا انسانيا عاما . فالفلاح مضطر الى ملازمة زراعته وممتلكاته الى الدفاع عن حقله ويدفعه ذلك الى ضرورة التعاون مع جيرانه الى حد كبير . وقد تطور هذا النوع من التفكير الى وجود شعور بالارتباط بأرضه المزروعة مما ادى الى الشعور بالوطنية المحلية .

وهكذا نشأت اقدم القرى الموجودة فى منطقة جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا وهى قرى عصر حضارة الفيوم او مرمدة بنى سلامة وحلوان العمرى وديرتاسا فى مصر وقرى حلف وجرمو وتل حسونة فى شمال شرق العراق . وقرية سيالك فى شمال ايران وقرى منطقة العمق او رأس شمرا فى شمال سوريا وجريكو .. (أريحا) فى فلسطين وبيبلوس فى لبنان وجاكيلار وتشاتال فى الاناضول وفى شمال افريقيا هناك كهوف دار السلطان وحضارة العليا وواد بهت ووهران ومواقع الحضارة القفصية فى شمال افريقيا .

ويبدأ الدارس بتتبع حضارة العصر الحجرى الحديث فى مصر .

* * *

اولا : العصر الحجرى الحديث فى مصر :

يمكن تتبع آثار الانسان فى العصر الحجرى الحديث (النيوليتى) فى عدد من المواقع الاثرية فى كل من مصر السفلى والعليا . مثل مواقع كوم ك وكوم و شمال شرق بحيرة قارون وكذلك مواقع مرمدة بنى سلامة وحلوان العمرى ودير تاسا . وتمثل هذه المواقع القرى الاولى التى قامت فيها حضارة العصر الحجرى الحديث فى مصر . ويمكن اعتبار آثار هذه القرى بمثابة الاثار الممثلة للتطورات المختلفة التى مرت بحياة الانسان فى تلك الفترة فى مصر .

ويلاحظ المؤرخ اختلاف هذه الاثار من قرية الى اخرى من ناحية التطور والنوع والكمية وكذلك التقاليد الصناعية . . ويمكن تعليل ذلك بأن الانسان فى هذا العصر قد مر بطبيعة الحال بعدد من التطورات حسب ظروف حياته وحسب البيئة التى نشأ فيها ذلك التطور . ويميل العلماء الى تقسيم هذا العصر الى عدد من الحضارات التى تمثل كل منها فترة زمنية ساد فيها اسلوب حضارى معين ذو تقاليد صناعية وحضارية مميزة للبيئة والمجتمع الذى نشأت فيه تلك الحضارة .

وقد اظهرت دراسة الادلة الاثرية التى تركها عصر حضارة الفيوم ان هذا المجتمع يمثل بداية نشأة القرى اى ابتداء استقرار الانسان بصورة نهائية فى مصر .

وقد اتجه الانسان في مرحلة استقراره في تلك المناطق الى شواطئ بحيرة قارون وكانت مياه تلك البحيرة في طريقها الى الانحسار تاركة الاراضي الخصبة الصالحة للزراعة . وقد استغل الانسان هذه الظروف البيئية المناسبة التي ربما لا مثيل لها بعد انتهاء العصر المطير وبداية مرحلة الجفاف ، عند مواجهته لنهر النيل وكذلك في مناطق الواحات في الصحارى . واتجه الانسان الى استغلال تلك الاراضي وتعرف - كما سبقت الاشارة - الى الزراعة وبدأ في بناء القرى في تلك المناطق . وقد تمكنت كاتون من عمل حفائر في بعض الاكوام شمال شرق بحيرة قارون وخاصة كوم ع وكوم ك .

وقد كشفت في هذين التلين عن قريتين وجدت فيهما مجموعات هامة من الادلة الاثرية التي تؤكد توصل مجتمع حضارة الفيوم الى مرحلة الزراعة بصورة جيدة ، وكذلك توصله الى صناعة الادوات الحجرية المختلفة اللازمة لحياته الزراعية الجديدة مثل الاسبتة والمناجل والاجران . والفئوس وكذلك صناعة السهام والرماح ، هذا بجانب صناعته للاواني الفخارية باليد وذلك لعدم توصله في ذلك الوقت الى استخدام عجلة الفخار .

وقد تمكن انسان تلك الحضارة من الوصول الى المستوى العالي في الانتاج الزراعي والصناعي في بيئة الفيوم ال محليا ز وربما حمل معه اثناء انتقاله الى هذه المنطقة بعض التقاليد الصناعية التي تمكن من معرفتها قبل استقراره

فى منطقة الفيوم ، ولكن التطورات الحضارية فى مجتمعه الجديد نشأت بعد استغلاله للبيئة الزراعية الجديدة وبعد شعوره بحاجته الى صناعات تكمل حياته الزراعيــة .

وكوم (و) الذى يقع فى شمال شرقى بحيرة قارون بيضاوى الشكل ويمتــــد حوالى ٦٠٠ قدم من الشرق الى الغرب و ٥٠٠ قدم من الشمال الى الجنوب . وقد قسم الاثريون هذا الكوم الى عدة اقسام واظهرت نتائج الحفائر وجود حفر يبلغ عددها ٢٤٨ حفرة كانت تستخدم كمكان لحرق الاخشاب للحصول علــى النار التى تستعمل فى طهى الطعام .

ويلاحظ الاثريون ان المادة التى استخدمت فى الحرق فى عصر حضـــارى البدارى كانت من روث البهائم بينما يغلب انه قد استخدمت هنا سيقان النباتات البرية او المزروعة كوقود لتلك النار . ولم يستخدم انسان تلك الحضارة اى نوع من الاحجار او كتل الطين لاحاطة هذه الحفرة كنوع من المحافظة على النار . وعثر قرب كوم (ك) على ١٧ حفرة منها ٥٦ كانت تستخدم كمخازن لخـــزن المحصول الزراعى . ويلاحظ انه وجد ٤٢ من هذه المخازن مبطنا بالقش ويبلغ قطر المخزن من ٥ قدم و ٢ بوصة الى ١ قدم ٢,٥ بوصة والعمق من ٣ قدم الى اقل من قدم واحد . وفى بعض الاحيان كسى المخزن بواسطة حصير مصنـــوع من قش الذرة . وقد وجد فى هذه المخازن القمح والشعير وقشر القمح وبـــذور

نبات عصا الراعى كما وجد بعض القمح فى حالة تكوين .

ومما يلفت النظر العثور على منجل فى احد المخازن مما يؤكد الصفة الزراعية وفى بعض المخازن عثر على بقايا قماش وكذلك بعض الجلود . ولم تكشف الحفائر حتى الان عن وجود مقابر وربما توجد فى مكان آخر قريب لا يزال فى حاجة الى عمل حفائر فيه . ومن اهم ما وصل اليه مجتمع حضارة الفيوم او بعض مظاهر التفكير الجماعى فى المجتمع ، وذلك بناء على وجود المخازن الجماعية بجانب المخازن الخاصة .

كما ان العثور على عدد كبير من ادوات الصيد المختلفة ربما يكون دليلا على جمع انسان تلك الحضارة بين الزراعة والصيد .

ولكن مما لا شك فيه ان جميع آثار حضارة الفيوم أ تبين انتقال الانسان من مرحلة الصيد وجمع الطعام الى مرحلة الاستقرار ونشأة القرى .

اما قرية مرمدة بنى سلامة فتقع على الضفة الغربية لفرع رشيد بغرب الدلتا حيث تمكن الانسان من بناء قرية كبيرة الحجم اذا قورنت بقرى مجتمع دير تاسا وغيره من مجتمعات مصر العليا . كان العلماء يتجهون الى القول بأن هذا الموقع مكون من طبقة واحدة ولكن ثبت من دراسة نتائج الحفائر انه مكون من ثلاث طبقات . ولم تترك الطبقة السفلى اية بقايا منازل ولكنها تركت بعض المواقد والمقابر وبعض شقف من الفخار . وقد عثر فى الطبقة الوسطى على عدد من الثقوب او الحفر المنتظمة فى شكل بيضاوى يتوسطها احدها ووظيفتها

مرتبطة باحتمال استخدامها كمكان توضع فيه الاعمدة الخشبية مما يحتمل ان يبين ان منازل اصحاب تلك الطبقة الحضارية كانت مصنوعة من الخشب . اما منازل الطبقة العليا فكانت مصنوعة من كتل الطين وعلى شكل بيضاوى وبطريقة منتظمة تدل على تفوق التنظيم الاجتماعى فى مجتمع ذلك العصر .

وتدل دراسة آثار جميع الطبقات على تخزين سكانها للحبوب . ولم يعثر على المخازن التى تحتوى على الاسبتة الخاصة بهذه الحبوب الا فى الطبقة العليا فقط . وقد عثر على بقايا هذه المخازن بجانب كل مسكن . اما البقايا العظمية فتدل على استخدام ذلك المجتمع للماشية . اما عن انتاج اصحاب حضارة مرمدة بنى سلامة فيمكن متابعته فى الصناعات الحجرية وخاصة صناعة المناجل والسكاكين والسهام وكذلك فى الصناعات الفخارية ، ويتميز الفخار بأنه مصنوع باليد ايضا ولكن به بعض جوانب التنوع فى الانتاج وكذا ظواهر التخصص فى العمل الفنى .

ومن ناحية اخرى آمن انسان ذلك المجتمع بالحياة الاخرى ودفن السكان موتاهم بجوار منازلهم وذلك يشبه الى حد ما مجتمع حضارة حلوان العمرى ، فى وجود بعض المدافن داخل القرية . ومن ذلك يتبين ان ذلك المجتمع لم يصل فى تطور تفكيره الدينى الى مرحلة تخصيص مكان معين لغرض بناء منازل خاصة بالاموات خارج القرية ، بل كان دفنهم داخل نطاق قرية الاحياء .

ومن حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر عصر حضارة حلوان العمرى وتقع هذه القرية عند قاعدة بروز صخرى فى حافة الهضبة يسمى رأس الحسوف على بعد ثلاثة كيلومترات شمال ضاحية حلوان، وعند نهاية سكة حديد المعاجر ويتكون الموقع الاثارى من جبانتين وقرية . وقد دل البحث فى هذا الموقع على اتصال ذلك المجتمع بمجتمع مرمدة بنى سلامة وكذلك بمجتمع الفيادن ، وهذا يدل على اتصاله بمصر السفلى اكثر من الصعيد . ويلاحظ الدارس لبقايا مساكن القرية إنها ذات نوعين ، النوع الاول منازل تعتمد على اعمدة خشبية فى شكل بيضاوى ومبنية على سطح الارض . والنوع الثانى له اساس محفور فى الارض ، وابنية لها شكل دائرى .

ولم يتبق من النوع الاول غير آثار قليلة من الاعمدة الخشبية تدل على وجوده اما النوع الثانى فقد تبقت آثار البناء المحفور فى الارض . هذا وتختلف اعماق ذلك البناء السفلى . كذلك عثر العماء ايضاً على عدد كبير من المخازن المحفورة فى الارض . إما عن عادات الدفن فى ذلك المجتمع فقد دفن السكان موتاهم نفسها وبجوارها وايضا بعيدا عنها .

ويخالف التقليد الخاص بالدفن فى القرية نفسها ما اعتاد عليه مجتمع ديرتاسا ولكنه يشبه ما اعتاد عليه مجتمع مرمدة بنى سلامة ووجدت الجثث فى وضع على الجانب الايسر كما يتجه الوجه نحو الغرب والرأس نحو الجنوب . وقد غطى الجسم بواسطة حصير واحيانا بالجلد او القماش .

ويلاحظ الدارس أن بعض المقابر قد وزعت فى صفوف منتظمة وكذلك غطيت بعضها بواسطة كوم من الحجر • ويلاحظ ايضا ان بعض الاثار التى عثر عليها فى موقع حلوان العمرى تلقى بعض الضوء على المجال السياسى فى ذلك العصر المبكر • ويصعب على الباحث البت بصورة نهائية فيما يتعلق بنوع التنظيم السياسى فى المجتمعات المصرية المعاصرة فى ذلك الوقت ولكن العثور على جثة متوفى وبجوار يده صولجان يرمز للرئاسة ليعبر بوضوح عن حقيقة وجود رئيس وبالتالى مرؤوسين او حاكم ومحكومين • هذا بالاضافة الى ملاحظة كبر حجم بعض المقابر بالمقارنة بالمقابر الاخرى مما يدعم الاشتباه السالف الذكر • ولكن لايزال هذا الموضوع فى حاجة الى ادلة اثرية اخرى لتدعيمه بصورة اكثر وضوحا •

ومن ناحية اخرى لم يستقر الرأى بصورة نهائية حتى الان على انتماء الجبانتين الى نفس القرية • ومن اهم آثار مجتمع حلوان العمرى والتى لم يعثر على مثيل لها حتى الان فى مجتمعات ماقبل التاريخ فى مصر بقايا آثار ازهار وجدت بجانب الجزء العلوى من جسم المتوفى • وكذلك عثر ايضا ضمن آثار تلك الحضارة على نواة تمرة • كما انتج مجتمع حلوان العمرى نوعا جيدا من الفخار الذى كان يصنع باليد • هذا بجانب صناعة الادوات الحجرية والعظمية والخشبية والصدفيــة بالاضافة الى صناعة النسيج والاسبتة والمصنوعات الجلديــة • ويمكن

القول بوجه عام انه على الرغم من تشابه ذلك المجتمع بمجتمع مرمدة بني سلامة لحد ما فان آثار حلوان العمرى تبين تطورا ملحوظا على ذات اوسع نسبيا •

اما المجتمع المميز لعصر البداري وينتمي الى العصر الحجري الحديث فهو مجتمع دير تاسا على الضفة الشرقية جنوب شرق اسيوط • وتنتشر قرى وجبانات ذلك المجتمع في المناطق الصحراوية الواقعة بين الهضاب الشرقية من ناحية وبين الارض المزروعة من ناحية اخرى • وقد وجدت مقابر التاسيين مختلطة بمقابر البداريين ولذلك اتجه بعض المؤرخين الى اعتبارهم اقرباء للبداريين •

كما انتج ذلك المجتمع نوعا من الفخار المميز له وهو الاقداح التي على شكل الناقوس • وربما كان السبب في اتخاذه ذلك الشكل هو تقليده للوعاء الجلدي الذي كان يستخدم في بداية الامر • وقد زينت تلك الاقداح التاسية بخطوط حفرت في الانية وملئت بطلاء ابيض • وقد انتشرت تلك الحضارة ايضا امثلة عديدة من اللوحات وادوات الزينة • ويمكن القول ان مجتمع دير تاسا قد انتقل في مراحل التطور الى مرحلة تفوق مجتمع الفيوم أ لحد ما •

اما فيما يتصل بالمقابر التاسية فكانت مستطيلة الشكل وكان الميت يوضع داخل سلة مصنوعة من الاغصان • وكانت تغطى بالحصير • وكان الجسم يلف بواسطة الجلود • وقد عثر على بقايا لقمشة يحتمل استخدامها ايضا في اللف • وكانت توضع تحت الرأس وسادة من القش او النخالة او الجلد • ولم يعثر على مايدل على طريقة تسقيف المقبرة •• وفي المقبرة رقم ٢٨٤٢ عثر على فجوة في

الجزء الغربي منها ، وتلك الفجوة (١) تسع آنية فخارية . ويمكن القول ان تلك الفجوة ربما تعتبر تمهيدا معماريا لما ظهر في صميم العصر التاريخي فـي مصـر الفرعونية من وجود مخازن بجوة الدفن لخزن مايحتاج اليه المتوفـى في العالم الاخر . وقد عثر على بقايا شعر المتوفى في ثلاث مقابر . وممـا يذكر ان الشعر كان مموجا مما يدل على عدم انتماء اصحابه الى العناصر الزنجية في في ذلك العصر الحضاري . ولم يعثر على اي دليل توصل اصحاب ذلك المجتمع الى استخدام التوابيت الخشبية . ويلاحظ ايضا ان بيانات مجتمع دير تاسـا كانت مستقلة عن مساكن الاحياء . وهذا يبرر تفوق ذلك المجتمع على مجتمـع مرمدة بني سلامة في هذا الموضوع . اما من ناحية الحياة الزراعية فقد عثر علـى الا . ران وعلى مخزنين للقمح مما يبين بصورة واضحة معرفة ذلك المجتمع للزراعة بجانب ممارسة اهله للصيد في البر والنهر .

ومن ذلك كله يتبين ان هناك اربعة مجتمعات في مصر تنتمي الى العصـر الحجري الحديث وهي الفيوم أ ومرمدة بني سلامة وحلوان العمري ودير تاسـا تمكنت جميعها من التوصل الى مرحلة انتاج الطعام (الزراعة) وبناء القـرى ومختلف لوازم الحياة المستقرة . وقد تمكن انسان ذلك العصر في مصر من صناعة الاواني الفخارية والحجرية المتصلة بالحياة الزراعية ، كما انتج المنسـوجات بجانب بنائه للمنازل والمنابر . وقد استمرت تلك المجتمعات فترة حوالـى الـعام الى ان تمكن المجتمع في مصر من الانتقال الى عصر جديد هو عصـر

استخدام النحاس والحجر • ويلاحظ الدارس في تطور مجتمعات العصر الحجري الحديث في مصر انها بدأت باستغلال حاجات الانسان الاقتصادية اولا ثم النواحي الكمالية بعد ذلك • ومن ناحية اخرى يمكن الاستدلال من وجود المخازن الجماعية في مجتمع الفيوم أ على التفكير الجماعي في ذلك المجتمع بجانب وجود بعض المخازن الخاصة • ولا شك ان ذلك التفكير الجماعي يمكن ملاحظته في مرحلة الثورة الصناعية الاولى عندما اضطر الانسان ان يواجه تحدي النهر واضطر للتعاون للتحكم فيه • وليس معنى توصل مجتمع العصر الحجري الحديث الى الزراعة انه اهمل كلية التفكير في الصيد • فقد عثر على الاثار على العديد من ادوات الصيد بجانب ادوات الزراعة مما يبين جمع الانسان بين مهنة الزراعة وبين مايلزمه من صيد الحيوانات والطيور والاسماك • وقد رتب بعض العلماء اخيرا تلك الحضارات الاربعة السالفة الذكر على اساس ان اقدمها هي حضارة الفيوم أ واحدثها حضارة دير تاسا وذلك على اساس الدراسة المقارنة للادلة الاثرية • ولكن تختلف الاراء في هذا الشأن وربما يعدل هذا الترتيب على اساس نتائج الحفائر الجديدة •

ثانيا : العصر الحجري الحديث في العراق :

يتمثل العصر الحجري الحديث في بلاد الرافدين في مرحلتين حضاريتين ر..
رئيسيتين هما عصر حضارة جرمو وعصر حضارة حسونة • ولكن قد سبقت هاتين

المرحلتين بعصر الفترات الحضارية التي تشير الى حد صميم مرحلة الانتقال من جمع الطعام الى انتاجه • فبينما موقع زريم شانيدر شرقي كركوك وهو موقع يؤرخ بالفترة بين ٧٠٠٠ ، ٦٠٠٠ ق٠م٠ ، يمثل بداية الانتقال الى انتاج الطعام لما لوحظ في آثاره من وجود بعض المناجل والاجران والفئوس وكذلك بقايا العظام الحيوانية المستأنسة وايضا المواقد والمخازن • فانه على الرغم من ذلك لايعتبر من صميم مرحلة العصر الحجري الحديث وذلك لعدم العثور على الحبوب المزروعة التي تؤكد صفة الاستقرار •

ومن الامثلة الهامة السابقة لحضارة جرمو ايضا ما كشف عنه اخيرا بريد وود في موقع ملفعات وتؤرخ حضارتها بنهاية الالف السادس ق٠م٠ • وتقع بين الموصل واربيل في شمال شرق العراق ويعتبرها بريد وود انها اقدم قرية حتى الان في العراق القديم • وقد توصل الانسان في حضارتها الى صنع التماثيل الطينية الحيوانية والانسانية •

اما المرحلة الاولى المميزة للعصر الحجري الحديث فهي حضارة جرمو نسبة الى قلعة جرمو شرقي كركوك و تؤرخ حضارتها باكثر من ٦٠٠٠ ق٠م٠ ولكنها لاتتعدى ٧٠٠٠ ق٠م٠ وكان الاتجاه قبل ذلك يعتبر حضارة جرمو انها تمثل مرحلة انتقال من الجمع الى الانتاج ولكن ثبت الان انها مركزا رئيسيا في حضارة العصر الحجري الحديث •

ويتكون موقع جرمو من عدد من الطبقات تمثل مراحل تطور تلك الحضارة ٠ واهم تلك المراحل هى الطبقات الاولى التى تعرف بالمرحلة السابقة للصناعة الفخارية والتى توصل فيها الانسان الى كافة العناصر الحضارية الاخرى المتصلة بحياة الزراعة والاستقرار ٠ ففى مجال الادلة الاثرية الدالة على ذلك عثر على حبوب القمح المتكربنة ٠ واحيانا انطباعات تلك الحبوب فى الارضية الطينية لافران وكذلك عثر فى تلك المرحلة على الاجران والافران الطينية والاحواض والاوانى الحجرية المصنوعة بجودة من الحجر الجيرى ٠

وتتصل البقايا العظمية الحيوانية بالحياة المستقرة حيث يلاحظ العثور على الحيوانات المستأنسة كالماعز والاغنام والخنازير ٠ اما فيما يتصل بالاثار المعمارية فقد ترك انسان جرمو منازل مستطيلة مبنية من الطين المكبوس ٠ واحيانا يلاحظ ان حوائطها لها اساس من الحجر ٠ وربما كان عدم توصل انسان تلك المرحلة المبكرة الى الصناعة الفخارية يرجع الى استيفائه حاجياته بصناعة الاوانى الحجرية الجيدة ٠ ولكنه فى اواخر تلك الحضارة بدأ يستخدم الفخار ٠٠ ومن اهم الاثار المنتمية الى تلك الحضارة المعبرة عن الفكر الدينى فى تلك المرحلة تشكيل الانسان لتماثيل صغيرة طينية تمثل آلهة الامومة المعبرة عن ظاهرة الانتاج والخصوبة فى ذلك المجتمع الزراعى المبكر ٠ ويلاحظ ايضا ان انسان جرمو قد بدأ يخرج عن صورته المحدودة واتصل بالمجتمع الخارجى فقد عثر على حجر الاوسيديان ضمن آثاره مما يزكى امكانية اتصاله بمنطقة

الاناتولى • مما ادى الى العثور على بعض الاساور والخرزيبين اتجاهه ايضا الى بعض النواحى الشمالية فى حياته • وهناك موقع آخر يعد تاليا لجرمو وموقع جوى على آغا شمالى اربيل و يرتبط بصورة واضحة بعصر حضارة حسونة مما يوكد الحاجة الماسة الى العثور على بعض المواقع التى تعطى صورة متكاملة عن ذلك العصر الحضارى •

اما المرحلة الثانية المميزة للعصر الحجرى الحديث فى العراق فتتمثل فى حضارة تل حسونة •

ويمكن للدارس تتبع آثار ذلك العصر الحضارى فى بعض المواقع التالية : تل حسونة فى الطبقات من ١ ــ ٥ ويمكن اعتبار الطبقة السادسة بداية عصر حضارة حلف • وسامرا • وبها مجموعة من المقابر • ونينوى فى الطبقات ١ • ٢ أ و ب • ويمثل عصر حضارة حسونة حضارة قرية مستقرة فى العصر الحجرى الحديث • ولم يعثر الاثريون على اى معدن فى تل حسونة مما يفيد ان اصحاب ذلك العصر الحضارى لم يصلوا الى عصر استخدام النحاس والحجر بل يمثلون صميم العصر الحجرى الحديث • فقد تمكنوا من التوصل الى الزراعة وخاصة القمح كما استأنسوا بعض الحيوانات كالاغنام والماعز والخنزير وبنوا منازلهم وافرانهم من كتل الطين ويتكون المنزل من عدد من الحجرات تحيط بساحة فى الوسط •

وقد عثر الاثريون على ادلة اثرية عديدة تبين تقدم اصحاب تلك الحضارة في الصناعة الفخارية • فهناك امثلة من الفخار المصقول وفخار سامرا الملون الذي اتجه بعض العلماء الى اعتباره ممثلا لعصر حضارى مستقل • ولكنه يعتبر الان ضمن عصر حضارة حسونة المتقدمة على دون الضفتين غربا بين نهر دجلة والبحر الابيض المتوسط • والدليل على ذلك العثور على فخار حسونة في اقليم الحمن وكذلك في مرسين •

ويمكن القول أيضا بوجود صلة حضارية بين تل حسونة والهضبة الايرانية • ولكن لا توجد امثلة اثرية جنوب سامرا تمثل ذلك العصر الحضاري وربما كان السبب في ذلك ان جنوب ميزوبوتاميا لم يكن معتبرا مناسبا للسكنى في ذلك الوقت وذلك لرطوبته • هذا وبالاضافة الى الفخار صنع انسان حسونة الاجران والفئوس والمناجل •

ومن ناحية فكرة الايمان بالحياة في العالم الاخر • تومن انسان حضارة حسونة اليها • وقد عثر على بقايا جثث لاطفال دفنوا في بعض الاواني الفخارية وكان اتجاه رأس المتوفى نحو الشمال • ويمكن تفسير بقايا الهياكل العظمية للاطفال بأن ذلك يتصل بفكرة التضحية البشرية لاسترضاء القوى الالهية • وعلى رأسها الهة الامومة التى عبر عنها في شكل تماثيل صغيرة • ومن الناحية البشرية لم يصل الانثروبولوجيون بصورة قاطعة الى التعرف على جنس اصحاب تلك الحضارة •

والواقع ان المؤرخ يجد صعوبة في الوصول الى رأى نهائي ازاء موضوع اولوية التوصل الى مرحلة الاستقرار الكامل بين كل من مصر والعراق القديم او بالاحرى بين حضارة الفيوم أ ومرمدة بني سلامة من ناحية وعصر حضارة جرمو وعصر حضارة تل حسونة من ناحية اخرى • ولو ان الشواهد حتى الآن تبين اقدمية الفيوم أ ومرمدة بني سلامة في بعض النواحي وكذلك اقدمية جرمو في بعض النواحي الاخرى • ونظرا لضرورة استكمال الحفر في مواقع الفيوم أ فالموضوع لايزال مجال البحث • ولاربما تكشف نتائج الحفائر رأيا نهائيا في هذا الموضوع الهام • وتبين مقارنة نتائج الحفائر في كل من الفيوم أو جرمو توصل كل منهما الى مرحلة الزراعة المستقرة ونشأة القرى • فتنتهما انتج المنازل الحجرية وتوصل الى الصناعات العظمية وصناعة الاجران والاسبتة في الفيوم أ والحصير في جرمو • ويأخذ المؤرخ في الاعتبار في هذه الدراسة المقارنة مختلف نواحي الانتاج المادي والمعنوي كما يتبين من مختلف الادلة الاثرية • اما عن بقية مواقع العصر الحجري الحديث في منطقة الشرق الادنى القديم وشمال افريقيا ومستوى الانتاج الحضاري فيها • فيتفاوت ذلك من مكان الى آخـــــر •

هـ ــ دراسة مقارنة لنتاج حضارات العصر الحجري الحديث في جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا :

تحددت آثار تلك المرحلة الهامة في مناطق جنوب غربي آسيا وشمال افريقيا ولكن يمكن دراسة مادتها الاثرية ومنوعاتها الحضارية بطريقة مقارنة نحاولـــة للوصول الى حقائقها • وذلك لان الدراسة المقارنة تساعد على تقييم المـــادة الاثرية من نواحي الاصالة والمستوى الحضاري اكثر من الاعتماد على التحليـــل المحلي الصرف ولتحقيق هذا الغرض يمكن تقسيم الانتاج الحضاري بوجه عـــام الى قسمين رئيسيين :ــ

أ ــ الانتاج المعنوى : ويتضمن التقاليد والنظم والمبادئ والقيم في المجالات الاقتصادية والدينيه والاجتماعيه والسياسية •

ب ــ الانتاج المادى : ويتضمن كافة النواحي الصناعية والعلمية والفنية •

ولا يمكن فصل كل الجانبين المعنوى والمادى عن بعضهما وذلك لان الانتاج المادى ما هو الا تعبير عملي للنواحي المعنوية • وعلى اساس هذه المقاييـــس المحددة • والشاملة لكافة مظاهر الانتاج الحضاري يمكن محاولة عمل التحليـــل الموضوعي المقارن لاثار وحضارة هذه المناطق •

ففيما يتصل بالجانب الاقتصادي يلاحظ الدارس ان كافة مجتمعات العصـــر الحجري الحديث في الشرق الادنى القديم وشمال افريقيا قد توصلت الى الاستقرار

وانتاج الـ ... ام وبناء الثرى ولكن بشكل يتفاوت من موقع الى آخر من حيث التكامل الحضاري في المجال الاقتصادي • فاذا كان هذا التكامل الاقتصادي المستقر يعتمد في مقوماته على المحصول الزراعي وآلاته ومخازنه المختلفة بالاضافة الى مساكن الانسان بجوار اراضيه الزراعية فان كلا من موقع الفيوم أ ومرمدة بني سلامة ليحقق هذا الجانب الاقتصادي بصورة واضحة • فقد عثر فيهما على كافة الادلة الاثرية المثبتة لذلك • وتقترب المواقع المراقية القديمة مثل جرمو وتل حسونة من هذا التكامل لحد معين وذلك لان مجتمع جرمو لم يصل الى الصناعة الفخارية بنفس درجة التفوق • وكذلك فان المحصول الزراعي وآثاره لا تقارن بالكميات الوفيرة التي عثر عليها في مصر •

وهناك اتجاه الى الاعتقاد بأن عامل الجفاف قد ساعد على المحافظة على الآثار المصرية أكثر من الاماكن الاخرى • ولكن ذلك لا يمنع من وفرة المخازن ذاتها في مصر وتكاملها الحضاري مع الآثار الاخرى في نفس الموقع الاثري في ذلك الوقت • هذا بالاضافة الى حقيقة وجود التعاون بين افراد مجتمع مرمدة بني سلامة وكذلك مجتمع الفيوم أ بدليل وجود المخازن الجماعية والفردية وكذلك تخصيص الترعة بطريقة تؤكد تعاون افرادها على تحقيق ذلك •

اما عن جهود انسان جريكو والسمرأ وسيالك ١ والمغرب فهي جديرة بالاهتمام ولكن في هذا المجال الاقتصادي البحت تميل الدراسة المقارنة حتى الآن الى اولوية انسان الفيوم أ ومرمدة لحد كبير •

وفي المجال الديني بذل انسان تلك المرحلة مجهودا كبيرا من حيث توصله الى بداية الاستقرار الديني والاعتقاد في بعض القوى الالهية ومحاولة تجسيم تلك القوى في شكل تماثيل تحمل صورا انسانية او حيوانية او نباتية مستوحاة من البيئة المحلية مما يساعد على تقمص الصورة لها ، وكذلك تخصيص منازل لاقامة الالهة أي معابد . هذا بالاضافة الى الاعتقاد في حياة اخرى ابدية بعد الموت الدنيوي وتخصيص منازل اي مقابر لسكنى المتوفى وتوفير ما يلزمه من احتياجات في العالم الاخر . وقد اختلف جهد الانسان في هذا المجال من مكان الى آخر وذلك حسب المقومات المحلية الدافعة لتلك المعتقدات . وتنبغي الاشارة في هذا الصدد الى ان تلك المقومات الاساسية في مرحلة العصر الحجري الحديث هي الاساس الرئيسي لمعتقداته في عصور ماقبل الاسرات والعصر التاريخي . فقد تكونت هذه المعتقدات في العصر الحجري الحديث وسرعان مانمت وتطورت واكتملت مظاهرها في العصر التاريخي ولكن بدايتها المستقرة ترجع الى مرحلة العصر الحجري الحديث ، ولذلك ينبغي الاهتمام بمجهودات الانسان في تلك المرحلة الهامة . وفيما يتعلق بموضوع التقديس والعبادة في حضارة الداربزان جهود الانسان في جرمو وتل حسونة قد فاقت المراكز الحضارية الاخرى ، فقد شكل الانسان فترة الانتاج والخصوبة في شكل تمثال السيدة الامومة وكذلك بني المعابد تأكيدا لاقامة تلك القوى الالهية وتأليهها في ذلك الوقت .

ولاشك ان تجسيم فترة الانتاج في شكل تمثال الهة الامومة لم يسر

بالاستخدام والمرحلة نوبودي من التراب والتشابه بين الاتحاد النباتي والحيواني والانساني في محيط مجتمعه ، وقد اختار الام كرمز حيوي لتلك القوة الالهية المحققة للانتاج • ولقد شارك انسان جريكو وانسان الدمشق زميلهما انسان العراق القديم وانسان الاناضول في هذا الصدد • وكذلك تمكن انسان جريكو من الانفراد بمظهر خاص وهو تشكيل الهي ثلاثي — رجل وامرأة وطفل — أي تشكيل عائلي يصعب تفسيره بدقة ولكن من المحتمل ان يكون ذلك تجسيما لفكرة الانتاج في شكلها الكامل اي زوج وزوجة و طفل ••

ويلاحظ انه اريد لهذا النوع من التفكير في العصر التاريخي فيلمس ثالوث الازدواج في اساطير ومذاهب الخلق الاول والتي ترجع اصولها الاولى ايضا الى هذه المرحلة ، وكذلك خصص انسان جريكو معابد مخصصة لاغراضه الدينية ••

اما بالنسبة لجهود الانسان في مصر في هذا الموضوع بالذات فمحدودة للغاية ولكن امكانية العثور مستقبلا على ادلة اثرية في هذا الشأن قوية • وفيما يتعلق بجانب الاعتقاد في العالم الاخر فقد خلد الانسان في مصر اعتقاده في هذا الصدد تخليدا فائقا اكثر من اية منطقة اخرى في العالم حيث ترك مخازن خاصة بالمتوفي أي مقابر • اما تحت ارضية منازل الاحياء او في اماكن مستقلة عن القرية • وتطورت عمارة المقابر من مجرد حفرة بيضاوية الى حجرة سفلية مستطيلة الشكل في المراحل التالية •

وقد دفن انسان جريكو وكذلك سيالك ١ موتاه تحت ارضية المنازل ايضا

مثل انسان مرمدة بنى سلامة ولكن تطور عقيدة الخلود في مصر يوحي بمسن الظواهر الطبيعية والدينية المنتشرة بمصر تلك العقيدة ذات اهمية خاصة في البيئة المصرية اكثر من المناطق الاخرى • فقد كان الخلود من حق الالهة والبشر في المجتمع المصرى القديم ابتداء من مرحلة العصر الحجرى الحديث ، بينما الخلود كان للالهة فقط في المجتمعات الاخرى ، ولكن لايمنع ذلك من عناية الانسان بالمتوفى وتهيئة مكانا خاصا له تمثل رمزا من امر حفظ جثة المتوفى من ناحية والايمان الى حد ما بالحياة في العالم الاخر من ناحية اخرى • ويلاحظ ان انسان سيالك ١ وكذلك انسان الناطوف قد تميز ايضا بذر الرماد الاحمر الذى يرمز الى استعادة الحياة مرة اخرى بعد الموت • فاللون الاحمر هو لون الدم الذى يدل جريانه على استمرار الحياة ، ولكن الجهود الدينية الخاصة باستمرار الحياة بعد الموت لم تتطور تطورا ملموسا في المراحل الحضارية التالية باستثناء مصر مما يضفى عليها طابعا خاصا في هذا المجال •

اما في المجالين السياسى والاجتماعى فقد تركت انسان مرمدة بنى سلامة وحلوان العمرى في مصر آثارا ذات اهمية بالغة في هذين المجالين ، فقد سبقت الاشارة الى تخطيط قرية مرمدة بنى سلامة بطريقة تنم عن تعاون افراد المجتمع ، كما ان وجود مقبرة اولى للرئاسة في مجتمع حلوان العمرى جدير بالملاحظة ومن ناحية اخرى يلاحظ ايضا ان مجتمع ريفو قد ترك آثار تحصين القرية بالحيطان القوية مما يؤكد بطريقة غير مباشرة وجود تنظيم سياسى قوى

عثر على نهاية مجتمع تلك القرية من التسلسل السلمى الآتى من البادية ..

وهناك شبيه بذلك من التاريخ الزمنى فى عمارة نهاية عصور ماقبل الأسرات ـ

والعصر الثينى فى مصر حيث يلاحظ فى نخب (النتاب) شمال ادفــــو

وكذلك فى شونة الزبيب بأبيدوس (الصوامة المدفونة) الحيطان والاســوار

الضخمة المبنية من اللبن ، وايضا الحواجز الحجرية فى البداري . كمــــا

ان قرية وادي بهت بالمغرب الاقصى تتميز بظاهرة التحصين ، كما تستمـــر

هذه الظاهرة ايضا فى المجتمعات القبلية البربرية فى المراحل التاليـــة

كنوع من الحماية من مختلف المخاطر سواء كانت بشرية او حيوانية ، ولا شك ان

مجتمع جريكو يحس اولوية فى هذا الجانب الدفاعي . وقد انفرد مجتمع الاناضول

فى منازله بطريقة دخولها عن طريق السقف بدلا من الابواب ويغلب ان ذلــك

كان لغاية دفاعية ايضا .

*

اما فيما يتصل بالانتاج المادي ، فقد توصل الانسان فى كافة حضارات

هذه المرحلة الى صناعة الآلات الزراعية كالمناجل والاجران وصناعة الاواني .

الحجرية والاواني الفخارية الخشنة والمصقولة والمزينة ، باستثناء حضارة جرمـو

وجريكـو فى بدايتهما . ولقد تفوق انسان حضارة حسونة بصفة خاصة فـــى

زخرفة الاواني الفخارية بالرسوم الهندسية ، وكذلك تميزت حضارة جريكــــو

بالعمارة الحجرية بالاضافة الى استخدام اللبن الدائري ، ومن ناحية اخـــرى

تمثلت حضارة الفيوم أ فى صناعة الانسجة الكتانية والاسبتة .

من ذلك كله يتبين ان كل حضارة من حضارات العصر الحجري الحديث قد تميزت بطابع معين يفوق احيانا ماينا ظره في المجتمعات الاخرى • ولا شك ان النتائج الحالية قابلة للتعديل مستقبلا بعد اعادة الحفر في نفس المواقع السالفة الذكر او استعمال الحفر فيها • ولكن الدراسة المقارنة للمادة الاثرية يمكن التعرف عليها من جوانب مختلفة وعلى ذلك يتفاوت الحكم عليها • ولكن الدارس يعتقد ان الجانب الاقتصادي يحتل الاولوية بين هذه الجوانب المختلفة وذلك لان العنصر الاول في العصر الحجري الحديث هو الاستقرار الناجم عن التوصل الى الزراعة • وقد تطلب هذا المجتمع الزراعي المستقر كافة وسائل الامان والطمأنينة لتدعيم عملياته الاقتصادية • فكانت العقيدة وما اتصل بها من ضرورات دينية • لذلك يمكن القول ان الدراسة المقارنة للجانب الاقتصادي تعطي مجتمع الفيوم أ ومرمدة بني سلامة في مصر حتى الوقت الحاضر مكانا خاصا بين مجتمعات هذه المرحلة •

هذا ولقد تطورت الحياة الانسانية في مجتمعات العصر الحجري الحديث وبدأت تتطلع الى توسيع دائرة امكانياتها ومجالاتها فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الانسانية هي مرحلة عصر الحجر والنحاس •

* * *

الفصل الرابع

التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي السابق للعصر التاريخي في المنطقة

تعتبر هذه المرحلة من اهم مراحل تاريخ الانسانية لانها مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي • فقد اتجه الانسان بعد نجاحه في الاستقرار وانشاء القرى في العصر الحجري الحديث الى تطوير حياته وتنميتها في كافة المجالات متأثرا بمقومات البيئة الاقليمية • وكذلك ببعض العناصر الخارجية التي اتصلت به • ويمكن تتبع خطوات هذا التكوين والتشكيل في المجالات المادية والفكرية عندما بدأ فعلا يخرج بوعي وارادة عن نطاق قريته ويكتسب التجارب الجديدة في حياته •

وتتضمن تلك المرحلة الهامة عصور الحجر والنحاس وماتبعها وتبيين الاسرات والملك الى بداية العصر التاريخي • ويبدأ الدارس بعصر استخدام الحجر والنحاس •

أ ـ مرحلة عصر الحجر والنحاس :

اتجه العلماء الى اعتبار هذا العصر بمثابة مرحلة جديدة من مراحل التطور

التاريخي لان الانسان قد بدأ تقريبا خطوة الى الامام وذلك عندما خرج عن نطاق قريته وبحث عن امكانيات مادية جديدة في البيئات المحيطة به حيث عثر لاول مرة في تاريخ الانسانية على معدن النحاس . وذلك حوالي منتصف الالف الخامس ق.م . ولقد اختلف العلماء في كيفية توصل الانسان الى هذا المعدن ، وربما كان ذلك بمحض المصادفة اثناء عملية حرق الفخار ، حيث انه من الجائز تواجد بعض ذرات نحاسية مختلطة بالطين تظهر اثناء الحرق ، أم أن ذلك قد تم بعد البحث والتنقيب والتوصل الى اكتشاف هذا المعدن . وهناك مشكلة اخرى وهي ان كمية الاثار النحاسية قليلة في مواقع تلك المرحلة مما ادى الى احتمالية الاعتقاد بأنها مستوردة وغير مصنوعة محليا ، ويتبين ذلك على كثير من نتائج البداري وحلف . ولكن تلك الاثار النحاسية لاينبغي اعتبارها عاملا رئيسيا في تفسير عدم توصل الانسان الى اكتشافها محليا — وتصنيعها في هاتين المنطقتين ، فربما نجد ان هذه المادة كانت جديدة في استخدامها وعلى ذلك كانت آثارها محدودة نسبيا ، هذا بالاضافة الى الجهود المضنية في عملية تصنيعها وتشكيلها . ويرى الدارسون ان مجتمع سيالك ١ في الهضبة الايرانية قد توصل الى استخدام النحاس لاول مرة في العالم القديم ولكن ذلك يرجع الى طبيعة البيئة الايرانية الجبلية وتوفر هذه المادة في محيط انسان هذا الاقليم بنسبة كبيرة عن المناطق الاخرى .

ويتميز عصر الحجر والنحاس في مصر في عصر حضارة البداري وعصر حضارة

النيوم بصيغة لم يتغير الانسان خلال استخدام هذا الحجر يبين ابداء السير
التقدم في الصناعات الفخارية والحجرية والمعدنية والنسيجية • وقد تميز
فخار حضارة البداري بقمته السوداء ويعتبر ذلك عنصرا لحضارة دير تاسا
ولكن يصعب وجود بعض العناصر المميزة للأواني الفخارية مما يؤدي بعد اهمية
تفسير انتقال هذه الصور لنظم الملكية الشخصية • وكذلك تطور الجانب المعنوي
في حضارة ذلك العصر فازداد ايمان انسان البداري بفكرة الخلود واستمرار
الحياة في العالم الآخر • كما تطورت عمارة المقابر بالمقارنة بالعهود السابقة
في ذلك المجال • فقد تميزت بعض المقابر البدارية بحدوث زوايا عمودية بل
منحدرة قليلا في بنائها السفلي مما يجعل زاوية المقبرة اكبر مما هي من
فوهتها • وكذلك عثر على بقايا الحصير على جوانب المقبرة لوقاية المتوفى من
سقوط التراب عليه • كما عثر على ثقب في احد جوانب احدى المقابر ووجد فيه
بقايا خشب ربما ترتبط وظيفته بمسألة تسقيف المقبرة او لغرض ديني آخر يتمثل
يتخزين مايحتاج اليه المتوفى • كما عثر على بعض لفائف من الجلد او النسيج
حول جسم المتوفى وهذا مظهر آخر من مظاهر التطور في تأييد الاعتقاد
في ابدية الحياة في العالم الآخر • ومن ناحية اخرى كان لدفن البداريين
لبعض الحيوانات اهمية خاصة في تطور الفكر الديني المصري انذاك وهنا يبرز
تقدير الانسان بالبيئة الحيوانية والنباتية والكونية واعتقاده بأن ارواحها المختلفة
تمر بنفس المراحل التي يمر بها الانسان • مثل دورة الحياة والموت والخلود •

ومن أهم آثار حضارة البداري توصل انسان تلك المرحلة الى تحسين افكاره في [illegible] انها ترتبط بحضارة [illegible] . [illegible] يختص بها العصر [illegible] اصحاب تلك الحضارة البدائية . [illegible] ودراسة [illegible] او هندية اوروبية . . والواضح [illegible] العصر [illegible] وادي النهر [illegible] في تلك الوقت [illegible] الحضارة [illegible] تحدثت [illegible] ودراسة [illegible] ابتداء من بداية العصر الحجري القديم [illegible] سواء كانت [illegible] او هندية اوروبية او غيرها من الشعوب والسلالات . [illegible] العصور المختلفة [illegible] ابتداء [illegible] بداية العصر الثاني [illegible] .

ومن [illegible] البشرية [illegible] في بقايا الهياكل [illegible] والهياكل التي عثر عليها [illegible] ودراستها هذه القرون البشرية في تلك الوقت .

اما العصر [illegible] لعصور حضارة [illegible] في العراق القديم فهو عصر حضارة حلف . ويختلف المؤرخون في اصل تلك الحضارة . ومن المعتقد [illegible] الى المنطقة الممتدة من الموصل [illegible]

الى منطقة الخابور في [illegible] سوريا • و[illegible] آشور و اربا [illegible]

الى الحوض ارميني •

وا[illegible] التسليح [illegible] واعتبارها أخذ [illegible] فاتها

وذلك على الاطوار [illegible] العبيد [illegible] الحضارة قد بدأ الشور [illegible] •

هذا ولم تقتصر حضارة [illegible] ايران وذلك لوجود [illegible]

وخاصة جبال زاجروس التي [illegible] حضارة [illegible] ايران • وبذلك

لم تمتد تلك الحضارة في جنوب [illegible] التقديم وذلك لسبب [illegible] الجنوب [illegible]

ذلك الوقت • ولذا امتدت تلك الحضارة [illegible] الموصل وذلك في منطقة

[illegible] عبر نهر الخابور [illegible] سوريا [illegible]

[illegible] الحلفية [illegible] • ويتمثل [illegible]

[illegible] اربا [illegible]

[illegible] بازار [illegible] ويتميز [illegible] بازانيها [illegible] الملونة

التي تمثل [illegible] هذا [illegible] •

وقد دلت الادلة [illegible] الثانية [illegible]

[illegible] على [illegible] الاواني [illegible]

[illegible] الملونة والمزخرفة • [illegible] بين [illegible] ذات

[illegible] والبحوث [illegible] •

كما الرسوم [illegible] التي [illegible] بين الرسوم [illegible]

[illegible] الشكل والمربع [illegible] الدائرية والمستقيمة .. ومن
[illegible] آلة [illegible] توحي باحتمالية
استعمال [illegible] الوقت . [illegible]
[illegible] الرسوم [illegible]
[illegible] واستخدام الالوان كان
[illegible] حضارة سامرا . وتلك
[illegible] الاواني [illegible] الحيوانية
[illegible] الحيوية
[illegible] منقوشة [illegible] وتستخدم
[illegible] تاريخ [illegible] الرافدين
[illegible] اختراع الكتابة [illegible]
[illegible] .

[illegible] تأييدا لذلك
[illegible] .

ومن [illegible] آثار [illegible]
[illegible]
[illegible]

ويتصل بتلك الحجرة ممر مستطيل . وهناك اختلاف في الرأي حول وظيفة تلك المباني ولا يعرف بصورة قاطعة الغرض منها ولكن يغلب ان تكون لهـا وظيفة دينية تتصل بعبادة الهة الامومة .

ومما يؤيد ذلك كثرة التماثيل النسائية الصغيرة التي تعتبر معبرة عن فكرة الامومة والخصوبة في تلك الحضارة . ويلاحظ ان بعض تلك التماثيل تبين ان صاحباتها حوامل . ومما يساعد الى حد ما على تزكية الاتجاه القائل بالصفة الدينية الخاصة بتلك العمارة العثور على مقابر تحت اسس بعضها وايضـا قريبة منها . ولكن تتواجد تلك الظاهرة ايضا في العمائر الاخرى ذات الصفة الدنيوية . وقد عثر ايضا على بقايا معمارية اخرى غير تلك السالفة الذكر وذلك مثل المنزل المحروق المنتمي الى صانع الاواني الفخارية وقد عثر فيه على فـرن خاص لذلك الغرض وكذلك على مجموعة من الحجرات المبنية من اللبن . وايضـا على مقابر تحت ارضيات المساكن .

وقد وضع مع المتوفى احتياجاته الاساسية من الاواني الفخارية والادوات اللازمة . هذا بجانب المقابر الاخرى المستقلة والموجهة من الشرق الى الغرب كما استخدم ايضا احد الابار في ثية كورا كمكان للدفن الجماعي .

ويختلف العلماء في تفسير ذلك من حيث احتمالية كونه ذات صلة بالتضحية البشرية او لاى سبب آخر محلي حربي او صحي .

ولم يقتصر انسان حضارة حلف على تشكيل تماثيله فى شكل الهة الامومة بـل لقد عثر على تماثيل انسانية اخرى يحمل بعضها زخارف معينة ربما تعبر عن وشم خاص او عن زينات فى الملابس ، وكذلك عثر على تماثيل حيوانية • ومن اهم التماثيل الحجرية التى عثر عليها تمثال رجل فى تل ارباشية اعتقد بعض المؤرخين انـه سومرى ولكن يصعب تأييد هذا الرأى بصورة نهائية • ومن الاهمية الاشارة الـى استخدام انسان تلك الحضارة المواد الطينية والحجرية والاصداف وغيرها والـتى تؤكد خروجه عن الاطار المحلى واستكشافه الاقاليم القريبة والنائيه مما وسـع ادراكه وتجاربه المادية والفكرية وساعده على الانتقال الى المراحل الحضاريـة التاليـة •

وقد اتسعت دائرة نشاط عصر حضارة حلف لحد كبير فى شمال سوريـا وبصفة خاصة فى منطقة البحر جوبه • وايضا فى مواقع منطقة قيليقية ، وكذلك فى الساحل السورى بصفه خاصة فى الطبقة الرابعة من موقع رأس شمرا • ولا يعـنى ذلك انعدام الصفة المحلية بل قد تدخلت جوانب الانتاج المحلى مع التأثيرات الحضارية الخارجية الخارجية ويتضح ذلك بصفة خاصة فى الصناعة الفخارية حيث تظهر تأثيرات حضارة حلف وبوضوح الدارس كذلك فى مجال العمارة ظاهرة الامتزاج الحضارى ففى قوتميترعثر على منازل دائرية مبنية من الكتل الطينية فوق اسس حجرية ويتضمن ذلك المسكن حجرة داخلية مستطيلة • هذا بالاضافة الى العثور علـى مظاهر الحضارة المستقرة المتطورة عن العصر الحجرى الحديث كمخازن القمح والمواقد

ب) عصور ماقبل الاسرات الاولى :

تعتبر تلك المرحلة من اهم مراحل تاريخ الانسان لانها خلاصة تجاربه الطويلة فى عصور ماقبل التاريخ ، وهى المرحلة التى حدثت قرب نهايتها الدفعة الانتقالية الهامة نحو بداية العصر التاريخى . هذا بالاضافة الى انه اثناء تلك الفترة تكونت المبادئ والتقاليد السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت بمثابة الاسس الرئيسية لتاريخ وحضارة الشرق الادنى القديم اثناء العصر التاريخى .

وقد دامت تلك المرحلة حوالى الف سنة من حوالى ٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م ولكن يختلف المستوى الحضارى المادى والفكرى اثناء تلك المرحلة لازدياد - واختلاف جوانب التطور على نطاق كبير مما يدفع الدارس الى ضرورة تقسيم تلك المرحلة الحضارية الهامة تقسيما زمنيا واقليميا ، هذا وقد اختلف العلماء فى تفسير اصول حضارات تلك المرحلة وايضا علاقاتها الحضارية والسياسية ، ولا تزال هذه المشاكل محل دراسة العلماء فى ضوء الادلة الاثرية الحديثة الاكتشاف .

وقد تفاوت الانتاج الحضارى من منطقة الى اخرى ولكن كان للانسان فى كل من مصر والعراق دور رئيسى فى تلك المرحلة .

ويبدأ الدارس بالتعرض الى هذا العصر فى مصر .

عصر ما قبل الاسرات الاولى فى مصر :

تنقسم تلك المرحلة الحضارية الهامة فى مصر تقسيما اقليميا الى منطقتين هما مصر السفلى ومصر العليا ، واساس هذا التقسيم يتصل بالمقومات الحضارية المختلفة التى تعرضت لها كل من الاقليمين بحكم الموقع الجغرافى فبينما يلاحظ الدارس ان مصر العليا كانت محصورة لحد ما بوادى النيل الذى تحده الصحارى الشرقية والغربية والجنوبية مما ادى الى تطور حضارة مصر العليا تطورا محليا مع وجود بعض المؤثرات الاجنبية المحدودة ، يلمس الباحث ان منطقة مصر السفلى قد تأثرت بصورة واضحة بالمؤثرات الليبية فى الغرب وكذلك فلسطين وجزر شرقى البحر الابيض المتوسط . وقد وصلت اهمية العناصر الحضارية الاجنبية بالنسبة الى مصر السفلى فى عصور ما قبل الاسرات الى الاعتقاد بأن اصل حضارة مصر السفلى يرجع الى تلك المؤثرات الاجنبية وهناك اراء اخرى تعارض ذلك وتعتقد ان اصل حضارة نقادة يرجع الى الدلتا . ويصعب الوصل الى رأى نهائى فى هذه المشكلة لان الدلتا وترتبها الطينية تغطى آثار تلك المرحلة الاولى . ولذلك يتجه الدارس الى المناطق الجنوبية من مصر السفلى مثل جرزه وابو صير الملق .

وقد عرفت المراحل الاولى فى ذلك العصر فى الشمال باسم عصر حضارة جرزة الاولـــى .

وبالاضافة الى هذا التقسيم الاقليمى هناك التقسيم الزمنى المبنى علـــى الاساس الحضارى المميز لكل قسم :

اولا : عصر ماقبل الاسرات الاول ويمتد من حوالى ٤٠٠٠ ق.م. الى ٣٦٠٠ ق.م. ويتمثل فى ثلاث حضارات عامة هى عصر حضارة جرزة الاولى فى مصـــر السفلى وعصر حضارة العمره وعصر حضارة نقادة الاولى فى مصر العليا .

ثانيا : عصر ماقبل الاسرات الاخير ويمتد من حوالى ٣٦٠٠ ق.م. الـــى حوالى ٣٤٠٠ ق.م. ويتمثل فى تلك الحضارات السالفة الذكر ، بالاضافـة الى عصر حضارة المعادى فى مصر السفلى .

ثالثا : عصر ماقبل الاسرات الاخير ويمتد من حوالى ٣٤٠٠ ق.م. الى حوالى ٣٠٠٠ ق.م. وهو مرحلة التداخل السياسى والحضارى بين مصر السفلـــى ومصر العليا ومحاولة الوحدة السياسية والوصول الى الدولة المصرية المتحـدة لاول مرة فى التاريخ .

اما بالنسبة الى عصر ماقبل الاسرات الاول فى مصر السفلى فيتميز ببعـض المميزات الخاصة ، ففى المجال المادى يلاحظ تواجد الفخار الرمادى او البرتقالى

المصفر وقد غطته الزينات الملونة باللون الاحمر . . هذا بالاضافة الى الفخار ذى الايدى المموجة وهذا النوع من الفخار يرجع الى اصل فلسطينى وخاصة فى الطابقة الثامنة عشرة فى بيت شان ، وعلى ذلك فهو دليل مادى قاطع على وجود صلات حضارية بين كل من مصر السفلى وفلسطين .

كما تتميز حضارة الشمال بالرأس الكمثرى الشكل للصولجان والتى تعتبر من صناعة منطقة شرق البحر الابيض المتوسط . هذا بالاضافة الى الاثار المتصلة بالجوانب الكمالية من حياة انسان تلك المرحلة مثل ادوات الزينة كاللوحات الاردوازية والاساور النحاسية والعاجية . وفى المجال المعنوى يلاحظ الدارس ان انسان حضارة جرزة الاولى قد بنى مقابره البيضاوية الشكل او المستطيلة الشكل . مما يؤكد اعتقاده فى استمرار الحياة فى العالم الاخر. وقد دفن انسان جرزه موتاه مع حمل وجوهها تجاه الشمس المشرقة . . ويمكن الاستدلال من ذلك على امكانية وجود عقيدة شمسية فى ذلك الوقت فى الشمال ، كما يرتبط ذلك بالدور الحضارى والسياسى الهام الذى قادته اون (هليوبوليس) فى محاولة توحيد الوجهين القبلى والبحرى .

وكانت السيادة الحضارية والسياسية فى تلك الوحدة الاولى للشمال . ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان البقايا العظامية تنتمى الى عنصر البحر الابيض المتوسط مما يؤكد مرة اخرى تواجد عنصر الصلات الاجنبية البشرية الحضارية

بين مصر السفلى والعالم الخارجى

اما فى مصر العليا فيتمثل ذلك العصر فى حضارة نقادة الاولى وحضارة العمرة ولكن كانت السيادة الحضارية لحضارة نقادة الاولى التى تميزت بانتشار طابعها الحضارى فى عدد من المواقع الاثرية فى الصعيد مثل نقادة ودير البلاص والدير وهو العمرة والمحاسنة .

وقد وصلت حدود مجالها الحضارى فى الشمال حتى شطب وفى الجنوب حتى الكوم الاحمر واجزاء من النوبة .

وفى مجال الصناعات الفخارية تمكن انسان نقادة الاولى من صنع عدد من الصناعات الفخارية والحجرية المتعددة الاشكال والزينات . ومن اهم تلك الصناعات الفخار الاحمر المصقول والاحمر ذو القمة السوداء والاسود ذو الخطوط البيضاء ، وقد تضمنت اشكال الاوانى الفخارية اشكال الزبادى والاباريق وغيرها من الاشكال اللازمة لاحتياجات ذلك المجتمع النامى فى ذلك العصر وقد جمعت زينات تلك الاوانى بين الاشكال الهندسية والنباتية والحيوانية هذا وقد اختلفت الاراء بالنسبة الى اصول تلك الزينات وهل هى محلية ، ام مستوردة من الحضارات الاخرى . واتجهت باوم جارتل الى اعتبار حضارة

سوسة الميلامية ذات تأثير خاص فى الزخارف الهندسية النقادية ، ولكن هذا الرأى ينبغى التردد فى تقبله بصورة نهائية ، ولكن لا يمنع ذلك من ازدياد نشاط الانسان فى المجال الاستكشافى للبيئات المجاورة له فى ذلك الوقت .. وان تعدد انواع الاحجار التى صنع منها الاوانى الحجرية لتشهد بخروجه الى النطاق الخارجى واستغلاله امكانيات البيئة المحيطة ، فقد استخدم احجار الظران والبازلت والجرانيت والاردواز وكذلك الاحجار الجيرية فى صنع الاوانى الحجرية واللوحات ذات الاشكال المتعددة والمقامع القرصية الشكل والمثاقب وغيرها .

ولم يقتصر انسان نقادة الاولى على تلك الصناعات ، بل لقد استخدم العاج والعظم والنحاس والذهب والفضة والرصاص فى الكثير من صناعاته الضرورية والكمالية . هذا بالاضافة الى صناعات الاقمشة الكتانية والحبال وكذلك الصناعات الجلدية .

وفى المجال المعنوى توصل انسان تلك الحضارة الى الاعتقاد فى عدد من القوى الالهية مثل حتحور ونخبت وحورس وست ومين ولكن يلاحظ ان الهة الامومة التى عبر عنها فى عدد من التماثيل النسائية قد احتلت مكانة خاصة . وكذلك آمن انسان تلك الحضارة بعقيدة الخلود وترك الادلة المادية المثبتة لذلك كالمقابر الدائرية والبيضاوية والمستطيلة ، بجانب الدفن احيانا فى

بارضيات المنازل .

ولكن انفردت حضارة نقادة الاولى بظاهرة خاصة اختلف العلماء في تفسيرها ، تلك هي ظاهرة عدم تواجد الهياكل العظمية للمتوفين كاملة بل مجزأة وقد عثر على جماجمها في بعض الاحيان . وكان التفسير العام لتلك الظاهرة هو اكل انسان تلك الحضارة للحوم موتاهم اكتسابا لخصالهم مما أدى الى انفصال اجزاء الاجساد في المقابر ، وهذا التفسير قابل للصحة لحد ما ويمكن ارجاعه الى اصول مجتمعية افريقية تهدف الى توارث صفات المتوفى بتلك الطريقة .

ومن اهم الظواهر الفكرية في حضارة نقادة الاولى التوصل الى التعبير بالرموز النباتية والحيوانية على الاواني الفخارية . وتعتبر تلك العلامات الدالة على الملكية الشخصية والتعبيرية الدينية خطوة هامة في مجال التعبير بالرموز الذى يمهد في المراحل التالية الى الكتابة الصورية . وفي مجال الكماليات صنع انسان تلك الحضارة الامشاط والدبابيس والابر ولعب الاطفال . ذلك بالاضافة الى صناعة التماثيل الملونة ببعض الالوان التي تمثل الملابس .

هذا ، وقد اختلف العلماء في مصدر تلك الحضارة واصولها التاريخية

فبينما يتجه مسولارد الى اعتبارها محلية الاصل قد تطورت عن حضـــارة البدارى ، يتجه عدد غير قليل من الدارسين الى اعتبارها من اصل اجنبى ويتفاوت الرأى فى مدى قرب او بعد ذلك المصدر الاجنبى فبينما يرى شارف ان ذلك المصدر يرجع الى اصول حامية آتية من شبه الجزيرة العربية والنوبة وشرقى افريقيا ، فيلاحظ من ناحية اخرى ان ارتباط حضارة نقاده الاولى بالعناصر الحامية فى الصحراء الغربية يبدو اكثر منه بالصحراء الشرقية ، ، كما يتضح ذلك من الدراسات المقارنة لتلك الرسوم المنقوشة على صخـــور وادى الحمامات وصخور الصحراء الغربية . كما يلاحظ ايضا ان آثـــار القرية القريبة من واحة لقيطة فى الطريق بين قفط والقصير ليغلب اعتبارها معاصرة لحضارة نقادة الاولى . والواقع ان الجذور الحضارية المصريـــة الاولى لترجع الى الاصول الحامية الافريقية الغربية والجنوبية .

وعلى الرغم من انتشار حضارة نقادة الاولى فقد كانت تعاصرها حضارة العمرة التى تشتهر بفخارها المزين بالرسوم البيضاء والزخارف الهندسية ويمكن القول بعدم وجود وحدة حضارية كاملة فى مصر العليا فى ذلك الوقت لان مصر فى عصر ماقبل الاسرات الاولى كانت لا تزال تمر بمرحلة التطـــور الحضارى الاقليمى ، ولا تزال حضارتها تسير فى مجال الاتصال الحضارى والبشرى ولم تصل بعد الى مرحلة الاندماج القومى الواحد الذى يتجسم

اثناء العصر التاريخى بصورته الكاملة ابتداء من عصر الاسرة الرابعة المصرية .

اما بالنسبة لعصر حضارة جرزة الاولى وهى الحضارة الممثلة لمصر الشمالية فمن المعتقد تواجده على اساس اعتباره بمثابة مرحلة حضارية سابقة لمرحلة جرزة الاخيرة الممثلة لعصر ماقبل الاسرات الاخير وهى مرحلة مؤكد معاصرتها لعصر حضارة نقادة الثانية .

ويلاحظ ايضا ان التوقيت المتتابع لحضارة جرزة الاولى هو ٤٠ - ٥٠ مما يؤكد تأخرها الزمنى نسبيا عن مرحلة ماقبل الاسرات الاولى وتبين الدراسة المقارنة لكل من نقاده الاولى والعمرة وجرزه الاولى سيادة الحضارة النقادية فى تلك المرحلة الاولى من عصور ماقبل الاسرات فى مصر.

اما فى العراق القديم فتنقسم عصور ماقبل الاسرات الى ثلاث مراحل حضارية عامة هى عصر حضارة العبيد وعضر حضارة الوركاء وعصر ماقبيل الكتابة الذى يطلق عليه ايضا عصر حضارة جمدة نصر . وتقابل تلك المراحل الحضارية عصور ماقبل الاسرات الاول والاوسط والاخير فى مصر.

اما بالنسبة لعصرحضارة العبيد فتتميز تلك المرحلة بانها تظهر فى شمال وجنوب العراق ، وتلك ظاهرة حضارية عامة لانها تمثل اول حضارة

فى العراق القديم تنتشر فى الشمال والجنوب رغم كونها جنوبية الاصل ، فقد عثر على آثارها فى الشمال فى شبة كورا ونوزى وتل خسونة ونينوى وحلف وغيرها .

وفيما يتعلق بالجانب المادى لحضارة العبيد الشمالية فقد صنع انسان تلك الحضارة الاوانى الفخارية الملونة والمزينة وكذلك الاوانى الحجرية والادوات العظمية والنحاسية والطينية مثل المناجل والاجران ، ولقد كانت تلك الادوات الطينية تستخدم عمليا ولا تعتبر مجرد نماذج . كما قد تفوق ايضا فى المجال المعنوى حيث عثر على بقايا آثار المعابد المبنية من اللبن ، والمقابر والمنازل . ويلاحظ ان العمارة تحمل ظاهرة الفجوات المنتظمة وهى تلك الظاهرة المعمارية الهامة التى تميزت بها المجتمعات السومرية ابتداء من عصر حضارة العبيد والتى وصل تأثيرها حتى مصر فى عصر ماقبل الاسرات الاخيرة .

وقد طليت بعض حجرات المعابد باللون الابيض ويلاحظ ايضا تواجد بعض آثار عظام اسماك فى معبد اريدو المنتمى لتلك المرحلة مما يؤكد ارتباط ذلك التقليد المبكر بالعقيدة الدينية التالية والمتصلة بعبادة اله الماء فى ذلك الموقع .

اما المقابر فقد بطنت بالحصير فى بعض الاحيان ، كما يلاحظ الدارس بعض الظواهر الفريدة فيما يتعلق بدفن الجثث ، فهناك مقابر خاصة

بأجزاء من جسم المتوفى ، واحيانا تحرق الجثث ويوضع الرماد في اوان ، ومن ناحية اخرى تلاحظ كثرة مدافن الاطفال في المعابد التي يغلب تقديمها كتضحية بشرية تقربا للالهة .

اما حضارة العبيد الجنوبية فهي تمثل اقدم حضارة في جنوب العراق حيث تستقر على الارض البكر مباشرة واهم مواقعها الاثرية تل ابو شهرين (اريدو) وتل العبيد واور والحاج محمد والوركاء . وقد توصلت تلك الحضارة ايضا الى صناعة الفخار فاتح اللون الذي هو اقرب الى اللون الاحمر او البرتقالي او الاخضر والذي يحمل الاشكال الهندسية الزخرفية ، وكذلك صنع انسان تلك الحضارة الادوات والاواني الحجرية . وفي المجال التعبيري جسم تفكيره عن الانتاج والخصوبة في تشكيل تماثيل طينية لالهة الامومة . وهي تماثيل لاناث بعضهن يحملن اطفالا ، كما شكل ايضا تماثيل حيوانية وسفن طينية . ويلاحظ كذلك ان بعض التماثيل تتميز برؤسها غير العادية والتي تحمل طابع السخرية الذي ينم عن اعتقاد في القوى الشريرة ومحاولة اخافتها والتغلب عليها وابعادها .

وفي مجال العمارة بنى انسان تلك الحضارة العمارة الدينية وبصفة خاصة المعابد ذات الفجوات المنتظمة . ويلاحظ ان تلك المعابد موجهة للجهات الاربع الاصلية ومبنية من اللبن .

وهناك اتجاه الى الاعتقاد بأن بعض تلك المعابد كانت لعبادة الاله آنو اله السماء وهو الاله الاول فى التفكير الدينى العراقى القديم ولذلك فان معبد الاله آنو فى الوركاء يمكن ارجاعه الى عصر حضارة العبيد . وقد تعرضت بعض القرى فى تلك المرحلة لهجمات الطوفان او الفيضان الكبير الذى يمكن الاستدلال عليه اثريا من طبقات الغرين المترسبة فى نفس طبقات المواقع الاثرية . كما يلاحظ ايضا ان الاثار التى عثر عليها اسفل طبقة الطوفان هذه تنتمى الى نفس الحضارة المستقرة فوق تلك الطبقة . اى ان حادثة الطوفان قد اتخذت طريقها اثناء ذلك العصر . ولكن من الأهمية بمكان الاشارة الى ان العراق القديم قد تعرض الى عدد كبير من الطوفانات او الفيضانات الكبيرة فى عصور ماقبل الاسرات ويصعب البت النهائى فى اى تلك الفيضانات هو الذى يعتبر مرادفا مع الفارق . لطوفان سيدنا نوح عليه السلام ، ولكن من الجائز انه ذلك الذى خلدته قائمة الملوك السومرية فى بداية العصر التاريخى .

والدراسة المقارنة لحضارات العبيد الشمالية والجنوبية تؤدى الى وجود تشابه واختلاف بين انتاج هاتين الحضارتين ولكنهما ينتميان الى حضارة واحدة سرعان ما تأثرت بالبيئة المحيطة بها فأعطتها شكلها المعين .

اما عن اصل حضارة العبيد واصحابها فيغلب ان ذلك يرجع الـــى الشرق وبصفة خاصة ايران . ولكن يصعب على العلماء القيام بتحديـــد دقيق لاقدم مراحل الاستقرار فى جنوب ايران .

فبينما هناك اتجاه الى اعتبار حضارة اريدو الاولى وهى الطبقة التاسعة عشرة اقدم مراحل الاستقرار فى الجنوب ، هناك اتجاه آخر يميل الـــى اعتبار حضارة موقع حاج محمد بجوار الوركاء بمثابة مرحلة حضارية جنوبية اولية قبل حضارة العبيد . ولقد كانت حضارة العبيد الجنوبية هى اساس التطور الحضارى الهام فى جنوب العراق فى المراحل التالية ، وهنـاك ايضا اتجاه الى الاعتقاد بأن العنصر السومرى هو صاحب تلك الحضـــارة وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد الى انه فى تلك المرحلة الحضارية دخلت الهجرات السامية والسومرية الى جنوب العراق . اما الهجرات السامية فقد اتت من شبه الجزيرة العربية من نجد اوعمان او اليمن ولكن الهجرات السومرية فقد اتت الى العراق القديم من الشرق وبصفة خاصة من شمـــال الهند عن طريق ايران وايضا من الطريق البحرى . وقد ثبت بالدراسة المقارنة وجود اتصال حضارى بين مواقع حضارات وادى السند مثل هارابا وموهنجدار والحضارة السومرية فى جنوب العراق القديم ابتداء من عصـــر حضارة العبيد الجنوبية .

جـ- عصــــور ماقبيل الاسرات :

اختلفت المدارس فيما يتعلق باصطلاحاتها الخاصة بنهاية عصور ماقبل — التاريخ فى منطقة الشرق الادنى القديم ، فبينما هناك المدرسة القائلة بعصـــر حضارة نقادة الثانية او عصر حضارة جرزة الاخيرة بالنسبة الى مصر ، هناك مدرسة اخرى تستخدم تعبير ما قبيل الكتابة بالنسبة لبلاد الرافدين ويقصد به مرحلــة عصر حضارة الوركاء وعصر حضارة جمدة نصر ، ولكن هناك اتجاه الى استخــدام تعبير ما قبل الاسرات ويتضمن مراحل ماقبل الاسرات الاوسط والاخير وبدايــة العصر التاريخــى ، وذلك لان تلك المرحلة يصعب تحديدها تحديدا حرفيـــا لتداخل احداثها وترابطها مما يجعلها تمثل فى جملتها مرحلة نقلة فكريــة مــن عصور ماقبل التاريخ الى بداية مرحلة العصر التاريخى بمدنه ومدنياته ونظمـــه السياسية والاقتصادية والدينية المتطورة ، ويبدأ الدارس بعصر ماقبـــــل الاسرات الاوسط فى مصر .

وتتميز تلك المرحلة فى مصر بانتقال السيادة الحضارية بصفة خاصة مــن الجنوب الى الشمال فبينما تركز النشاط الحضارى فى عصر ماقبل الاسرات الاول فى اقليم نقاده الذى خطى فى هذا الصدد خطوات متفوقة فى المجالــين ، المادى والفكرى كما سبقت الاشارة ، فقد كان الشمال يؤدى دوره الحضــارى فى مواقع جرزه والمعادى وابو صير الملق وطرخان .

ولكن وصل الشمال الى دور السيادة الحضارية فى ذلك الوقت على الجنوب • وليس معنى ذلك ان الشمال لم يكن له دوره الحضارى فى عصر ما قبل الاسرات الاول بل كان ذلك الدور جاريا ولكن كان لحقيقة الصعوبات البيئية فى الدلتا اثرها فى عدم توصل الباحثين الى المادة الموضحة لحضارة تلك المرحلة الاولى •

ومن ناحية اخرى فان تفوق آثار الشمال فى عصر ماقبل الاسرات الاوسط وازدياد الصلات الخارجية فى تلك المرحلة كما هو مدعم بالادلة الاثرية • ليؤكد ان المرحلة السابقة لها كانت كائنة ومعاصرة لمصر نقادة الاول ولكن بدرجة غير متضحة المعالم بالقدر المتفوق فى حضارة الصعيد • ومن اهم الظواهر الحضارية التى ميزت حضارة الشمال فى عصر ماقبل الاسرات الاوسط ازدياد الصلات الخارجية • فقد عثر على عدد من الاثار مثل المقامع الكمثرية والاوانى الفخارية ذات الايدى المموجة والتى ثبت استيرادها من المواقع الفلسطينية وبصفة خاصة بيت شان • • ومن الامثلة على ذلك تلك الاوانى الاجنبية الطابع التى عثر عليها فى موقع المعادى الذى يعتبر ماقبل الاسرات فى مصر •

ومن اهم آثار حضارة المعادى المعثور على المنازل التى بنيت من اغصان الاشجار والتى كسيت بالطين • ومن الاهمية بمكان ملاحظة ان ابواب تلك المنازل كانت متجهة نحو الجنوب لتنبه سكانها الى ضرورة حماية انفسهم

من الرياح الشمالية ٠

وقد اتخذت تلك المساكن الاشكال البيضاوية او المستطيلة كما عثر داخلها على الاواني الفخارية والحجرية والنحاسية والعظامية والصدفية والخشبية ٠ وقد جمعت الاواني الفخارية بين الفخار الاسود المصقول والاحمر ذى القاعدة الكأسية ٠ كذلك عثر على عدد من الاواني الحجرية الجيرية والبازلتية ومما يسترعي الانتباه ايضا ملاحظة وجود كهفين استخدما كمساكن في ذلك العصر وقد هيأهما انسان المعادى لغرض السكن بأن شكل لهما الدرجات اللازمة للتوجه نحوهما ٠ وهذه الظاهرة من الاهمية بمكان لانها تشبه الى حد كبير مرحلة العصر الحجرى الحديث فى المغرب حيث ... الانسان فى تلك المرحلة مع ا فارن ٠ قد اتخذ الكهوف للسكن ايضا وترك فى ارضياتها الكثير من الادوات الحجرية والفخارية وغيرها من آثار مرحلة العصر الحجرى الحديث ٠ ولكن يلاحظ ان عصر حضارة المعادى قد تفوق كثيرا على مرحلة العصر الحجرى الحديث فى المغرب وجمع بين المساكن المبنية والكهوف المنحوتة لغرض السكن ٠ولا شك ان الشمال الافريقى مترابط لحد كبير فى ظواهر حضارية مشتركة فى المجالات المادية والفكرية ٠ ويلاحظ ايضا ان انسان المعادى قد استخدم الاصداف والقواقع وقشور بيض النعام المثقوبة ٠ ويلمس الدارس هذه الاثار بصورة واضحة فى المواقع المغربية القديمة مما يدعم ظاهرة الاشتراك فى انتاج حضارى معين ٠ ولايعنى ذلك ان التطور الحضارى ناجم كلية عن المؤثرات الحضارية الخارجية

حيث يصعب تحديد مجال ذلك التطور من حيث كونه محليا أم خارجيا • على الرغم من ان ظاهرة الاتصال الخارجي في حضارة الدلتا في عصر ماقبل الاسرات الاوسط والاخير قوية للغاية • وكانت الحضارة المصرية القديمة لاتزال في مرحلة التكوين التي تتجمع فيها العناصر الحضارية المحلية والخارجية • وتتأقلم بالطابع البيئي الخاص والمقومات الحضرية المحلية • ويتجسم كل ذلك بصورة حاسمة في نهاية تلك المرحلة ابتداء من الاسرة الرابعة المصرية • ولايضير ذلك بأية حال من الاحوال الحضارة المصرية في اصولها الحضارية بل ان كل حضارة تمر بمراحل تكوينها وتعتمد على المؤثرات المحلية والخارجية الى ان تتشكل بصورة نهائية قرب نهاية مرحلة التكوين • بعد ان تكون قد هضمت واقلمت كافة تلك المؤثرات واعطتها الشكل النهائي الخاص بها •

وفيما يتعلق بالجانب الفكرى الخاص بتلك المرحلة قد توصل انسان جرزة — وانسان المعادى الى الاعتقاد في الخلود واستمرار الحياة في العالم الاخر • وقد عثر على المقابر وهى مثل انسان مرمدة بنى سلامة بين المساكن واحيانا في ارضياتها • كما عثر على بعض القدور الكبيرة • وقد عثر ايضا على جانب وادى دجلة المجاورة للمعادى وقد زودت مقابرها بمستلزمات المتوفى واحتياجاته في العالم الاخر وبصفة خاصة الاوانى الفخارية والادوات الحجرية •

وفيما يتعلق بالمجال السياسى تطور التنظيم السياسى في ذلك العصر

ووصل الى تواجد المقاطعات المستقلة بحدودها وعواصمها وحكامها وآلهتها ورموزها الخاصة بها • وان حقيقة اشارة الجزء العلوى لحجر بالرمو الذى يعتبر سجلا هاما فى التاريخ المصرى القديم ومنتميا للاسرة الخامسة المصرية • الى اسماء تسعة من ملوك مصر السفلى ليؤكد مدى القدرة السياسية فى تلك الفترة بالنسبة للشمال • ولايعنى ذلك عدم توصل الجنوب الى مملكة متحدة خاصة به بل يغلب ان ذلك كان كائنا رغم عدم تواجده فى النصوص ولكن كانت السيادة ؛ ر الحضارية فى ذلك العصر للشمال • ومما يؤكد ذلك تواجد الاثار الشمالية الطابع وعلى رأسها الاوانى ذات الايدى المموجة والمقابض الكمثرية الشكل فى الجنوب • وقد استند العلماء على بعض الحقائق الدينية الخاصة بتلك المرحلة مثل تواجد الاله حور البحدتى فى نخن • (وهو الموقع المعروف باسم الكوم الاحمر والذى يوجد حاليا فى قرية البصيلية شمال ادفو) وكذلك فى ادفو كدليل على سيادة الشمال على الاقل فى المجال الدينى • وذلك على اساس ان الاله حور قد تتبع الاله ست الذى يعتبر رمزا للصعيد وبصفة خاصة فى منطقة نوبت فى نفاده • ويستطرد العلماء فى هذا الصدد متخذين تلك الحقيقة دليلا على محاولة تحقيق الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب والتى اعتبر ان الشمال فى عصر ماقبل الاسرات الاوسط قد بادر اليها • وهناك اعتقاد ايضا بأن تلك الوحدة الدينية والسياسية الاولى كانت تحت سيادة مدينة اون وهى هليوبوليس

مدينـــة الالـــه رع والتى اعتبرت عاصمة لتلك الدولة الاولى •
ولكن هذه التفسيرات رغم استنادها الى بعض الاحداث ، لاتعتبر نهائيـــــة ولاتزال تحتاج الى تدعيم اقوى بالادلة الاثرية ولكنها جائزة الحدوث فـــــى ذلك العصر •

اما عن عصر ماقبل الاسرات الاخير وهى المرحلة التى امتدت من حوالـــى ٢٤٠٠ ق٠م٠ ـ ٣٢٠٠ ق٠م٠ فهى تمثل خاتمة المطاف فى سجل حيـــاة انسان ماقبل التاريخ فى المنطقة وتتبوأ المكاسب السياسية والدينية والحضريـة المكانة الاولى فى تلك الفترة الهامة من تاريخ الانسانية • ففى عصر ماقبـــل الاسرات الاخير فى مصر بدأت بوادر الوحدة السياسية تأخذ طريقها نحـــو التحقيق فى تلك الفتره • وقد انتقلت فيه السيادة الحضارية والسياسيـــــة مرة اخرى الى الجنوب الذى اتجه نحو مد نفوذه الحضارى مرة اخرى نحو الشمال وقد تركز نشاط تلك المرحلة فى عدد من المدن الهامة ، فى مصر العليا مدينتى نخب (الكاب) مقر عبادة الالهة نخبت (انثى النسر) ونخن ونقاده وثنيس فى ابيدوس بينما فى مصر السفلى بوتو (تل الفراعين) مركز دسوق وهى مركـــز عبادة الالهة واجت التى يرمز اليها بالصل ، وب ، وجرزة واون • ويلمــــس الدارس ان تلك المدن تحمل صفتين احداهما صفة سياسية والاخرى دينيـــة وكان لمدينة ثنيس الصفة الدينية فى الجنوب كما كانت لمدينة اون فى الشـــمال

الصفة ذاتها .

وقد حملت المدن الاخرى الصفات الدينية ايضا ولكن غلبت عليها الصفة السياسية وقد تميزت فى ذلك العصر مدن الشمال بعض رموزها الخاصة مثل النحلة والتاج الاحمر المصنوع من الاغصان المجدولة والخاعر اصلا بالالهة نيت ، الهة الدلتا ذات الطابع الحربى ، بينما تميزت مصر العليا بنبات السوسن او الخلفاء والتاج الابيض الطويل المصنوع من الجلد ، وعلى الرغم من وجود تلك العناصر المميزة لكل من المملكتين بالاضافة الى عواصمها الخاصة وحدودها السياسية الخاصة بهما ، فقد بدأت عناصر الوحدة الفكرية بين المملكتين فى اعتبار الاله حورس الها رئيسيا لكل منهما ، واعترفت هاتان المملكتان بعبادته . ويستدل على ذلك من تواجد الاسم الحورى بالاضافة الى الاسم الشخصى لملوك تلك الفترة .

وفى المجال السياسى لم تتحقق الوحدة بسهوله بل لقد تطلبت حروبا طويلة بين المملكتين الشمالية والجنوبية ، كما يستدل من النقوش المسجلة على مقابض السكاكين والامشاط العاجية واللوحات الاردوازية التذكارية . وتبين تلك العمليات الحربية ونتائجها ويظهر فيها انتصار الجنوب على الشمال واعتراف الشماليين بذلك بدليل حملهم رموز الشمال وبصفة خاصة عصا الراعى التى

تمثير رمزا لدلة عنجتى فى شرق الدلتا • وهم امام ملك الجنوب •• كمـــا يلاحظ تواجد اسرى الحرب فى تلك النتوش •

وبالاضافة الى تلك اللوحات الهامة المتصلة باحداث الحرب الاهليـة بين الشمال والجنوب فى ذلك العصر هناك بعض الاثار السياسية المباشرة الـتى تعبر عن بعض العمليات الحربية الخاصة (١ • ومن اهم تلك الاثار مقمعة الملـك الذى اطلق عليه اسم عقرب وهى التى عثر عليها فى نخن • والتى بالاضافـة الى كون الملك يقوم فيها ببعض الواجبات الزراعية فانه قد نقشت عليها بعـض اعلام المقاطعات الخاصه بالصعيد • وقد علقت فيها الطيور الميتة و الاقـواس الرامزة الى الشماليين المنهزمين • ولكن عمليات الملك عقرب الحربية لم تصل ابعد من طوه شمالا بدليل انه لم يعثر على آثار له شمال ذلك • مما يغلب ان الدلتا كانت لا تزال تحت سيادة المملكة الشمالية • ولكن تحققت الخطوة السياسيـة الحاسمة على يد الملك نعرمر الذى قاد تلك العملية الحربية والسياسيـة الهامة فى التاريخ المصرى القديم فى لوحته التى عثر عليها فى نخن والموجـودة حاليا بالمتحف المصرى بالقاهرة • والتى يظهر فيها نعرمر وهو يحتفل بانتصاره على الدلتا ويلبس تاج الوجه البحرى • ويتجه التقليد ان نعرمر قد بدأ عملياته من ثنيس • ولكن هذا التقليد ينبغى اعادة النظر فى حقيقته لان الزعامـة السياسية والدينية فى مصر العليا لم تقتصر على ثنيس فى تلك المرحلة • بـل امتدت الى نخن ونقادة بدليل ان آثار نخن جمعت الكثير من عصر نعرمر وعقرب

بالاضافة الى كونها مركزا سياسيا ودينيا رئيسيا فى الجنوب . كما ان الاله حور قد اتخذها مركزا له بالاضافة الى ادفو بعد ذلك . ومن ناحية اخرى كان لمدينة نقادة دورها الحاسم فى عصر ماقبل الاسرات الاخير على الرغم من حفائر بترى فى المئات من مقابر هذا الموقع فانه لاتزال هناك حاجة ماسة الى استكمال الحفر وتفسير تواجد مقبرة نيت حوتب زوجة نعرمر وام حور عحا اول ملوك الاسرة الاولى فى هذا الموقع بالذات . هذا مع العلم بأن موقع بيدوس كانت له اهمية خاصة فى تلك الفترة ولكن تغلب عليه الصفة الدينية . ولذلك يجد الدارس امكانية كون السيادة السياسية الجنوبية فى كل من نخن ونقادة بالاضافة الى ثنيس . ولن يحل هذا المشكل بصورة حاسمة الا بعد اعادة الحفر المقارن فى هذه المواقع الثلاث الجنوبية نظرا لتكاملها فى هذه المرحلة الهامة من التاريخ المصرى القديم .

ومن اهم مظاهر هذا العصر فى مصر اتساع نطاق الصلات الخارجية التجارية والحضارية مع فلسطين والعراق بصفة خاصة . ويتضح ذلك فى تواجد عدد من الاثار التى تظهر فيها بوضوح تلك المؤثرات السومرية والفلسطينية . ذات الاهمية الخاصة . ومن امثلة تلك المؤثرات الاجنبية الفخار ذو الايدى المموجة الذى عثر عليه فى المعادى وجرزة ونقادة وغيرها والذى يرجع فى اصوله الى فلسطين حيث عثر عليه فى الطبقة الثامنة فى جريكو والطبقة الثامنة عشرة فى بيت شان .

وفى مجال الصناعة الفخارية تأثر عصر ماقبل الاسرات الاخير فى مصر ايضـــا بالفخار العراقى القديم • حيث عثر على مجموعة من الاوانى الفخارية ذات الصنابير المائلة • وكذلك على بعض الاوانى ذات الاذان المثلثة فى مستجدة والبدارى • وتنتمى تلك الاوانى فى العراق القديم الى عصر حضارة جمدة نصر • هـــذا بالاضافة الى العثور على اربعة من الاختام الاسطوانية المنتمية الى عصر حضارة الوركاء وعصر جمدة نصر فى كل من جرزة ونجع الدير •

وفيما يتعلق بمجال التعبير الفنى فقد اتضح تواجد عدد من المؤثرات الفنية السومرية الطابع على الاثار المصرية مثل رسم الثعابين المتشابكة وبطل بــين اسدين • والسفن العراقية القديمة المتميزة بمقدمتها ومؤخرتها القائمة • وقد وجدت هذه الاثار فى مصر على مقابض عدد من ايادى السكاكين وبصفة خاصة مقبض سكين جبل العرقى • وايضا على حيطان المقبرة الملونة والمنتمية الى عصر ماقبل الاسرات الاخيرة فى نخن • وقد وصلت تلك التأثيرات السومرية الى قمتها فى مصر فى العمارة المتميزة بظاهرة الفجوات المنتظمة فى نهاية عصور ماقبـــل الاسرات والتى تتضح بصفة خاصة فى مقبرة الملكة نيت حتب فى نقادة • والــتى ترجع اصولها الى عصر حضارة العبيد فى العراق القديم •

وهناك اشكال حول كيفية وصول تلك المؤثرات الاجنبية الى مصر • وهـــل يصل مداها الى درجة الغزو الحربى ام تقتصر على الهجرات التجارية الحاملـــة

لبعض الانماط الحضارية الخاصة • ويغلب ان الصفة الاخيرة هى الـــتى سادت تلك الفترة • لان العناصر السومرية بطبيعتها البحرية قد انتشرت فى جنوب العراق واستخدمت سفنها الخاصة فى الاتصال بالمراكز الحضارية فـى وادى السند فى هارابا وموهنجدارو • كما اتصلت ايضا بمصر عن طريق وادى الحمامات الموصل بين قفط والقصير او عن طريق وادى الطميلات الموصل بـين جنوب شرقى الدلتا والبحر الاحمر • هذا بالاضافة الى ان المؤثرات الفلسطينية قد دخلت عن طريق شرقى الدلتا •

ومن الممكن العثور على المحطات الحضارية التى استخدمتها تلــــك الاتصالات بين مصر وفلسطين على طوال الطريق التقليدى بين شرقى الدلتا ــ وجنوب فلسطين •• ويتصل موضوع تلك الصلات الحضارية بالرأى المتجـــه الى اعتبار ان تلك الصلات قد جاءت بعنصر بشرى جديد الى وادى النيـــل الادنى مما ادى الى ظهور المدنية الفرعونية بعد ذلك • ولكن هذا الرأى استند على ماحققه درى فى دراسته للبقايا العظمية المنتمية الى نهايـــة عصور ماقبل الاسرات والتى ثبت ان اصحابها يختلفون فى اجسامهم عـــن العناصر المحلية • مما يزكى تواجد تلك العناصر الجديدة •

ولكن لاتنبغى المبالغة فى الاستناد على هذا الرأى لانه يصعـــب ايجاد رابطة مؤكدة بين اصحاب تلك الجماجم وبين العناصر الوافدة مـــن

العراق او فلسطين • هذا بالاضافة الى ان مصر فى تلك المرحلة وهى مرحلة التكوين الحضارى والبشرى والسياسى والاجتماعى • كانت تقوم بعملية هضم لتلك العناصر المختلفة الحاميه والسامية وغيرها • وليس من المستبعد تواجد بعض الخصائص البشرية غير المتجانسة من العناصر الاخرى الى ان اكتمل ذلك الهضم وتشكل فى صورته النهائية مكونا العنصر المصرى القديم فى بداية العصر التاريخى • ولا تعنى تلك المؤثرات الاجنبية فقدان الطابع المحلى بأية حال من الاحوال • فسرعان ما انصهرت تلك المؤثرات داخل البوتقة المصرية وبرز الطابع المصرى القديم •

وبالاضافة الى هذه الظواهر • تفوق انسان عصر ماقبل الاسرات الاخير فى مصر فى كل من المواقع الشمالية والجنوبية فى كافة الصناعات الفخارية الحجرية والعظمية والخشبية والعاجية والنحاسية وتطورت حياته تطورا ملموسا فى الجوانب الضرورية والكمالية مما دفعه الى بداية العصر التاريخى •

اما فى المجتمع المصرى القديم فقد كانت تلك النقلة تتميز بعملية سياسية بحتة هى التوصل الى الوحدة السياسية بين الصعيد والدلتا • وقبل الاحاطة بمعالم عملية الوحدة السياسية المصرية القديمة يلزم التعرف على المقومات الرئيسية التى ادت الى اختلاف عملية النقلة الى بداية العصر التاريخى فى كل من مصر وبلاد الرافدين • ويدور اساس تلك المقومات حول نقطة نفسية حاسمة فى مشاعر المجتمعات الانسانية القديمة • تلك النقطة هى البحث عن الاطمئنان على كفايته ومصيره بعد الموت الدنيوى • وقد توصل انسان الشرق الادنى القديم فى هذا الصدد الى التعرف بصورة مستقرة على بعض القوى الالهية التى تضمن له ذلك الاطمئنان والاستقرار الذهنى والمادى •

وقد تحقق له بصورة مثالية هذا النوع من الاستقرار فى مصر القديمة ولذلك كان المجتمع متجانسا مع بيئته بكافة مقوماتها المائية والارضية والجوية مما حقق لك تكاملا فريدا فى نوعه عمل على تنفيذه فى المجالات المادية الفكرية • لقد اعتقد الانسان المصرى القديم فى حقيقة ذلك التكامل الدورى المنتظم الذى يلمسه فى دوره الحياة والموت المنتظمة فى الحياة النباتية والحيوانية والهيئية الشمسية والنهرية فآمن بكونه سائرا متمشيا مع تلك الظاهرة الابدية فى مصر القديمة ولذلك تحقق لديه ذلك الاطمئنان المتجسم فى حقيقة الخلود واستمرار الحياة فى العالم الاخر • وتقبل الملكية الالهية بل وعمل على ربطها بالقوى

الالهية حتى تكفل له ضمان ذلك الاطمئنان فى مجامعها المقدسة • ولذلك شعر بضرورة تكامل ذلك التجانس فى حياته السياسية ايضا • فعمل على تحقيق دولة متحدة تزيد نهاية عصور ماقبل الاسرات ونجح فى ذلك السبيل بصورة حاسمة بادئا العصر التاريخى بالاسرة المصرية الاولى • اما فى المجتمع العراقى القديم • فقد كان الانسان يلمس بصورة مباشرة حقيقة عدم الاستقرار البيئى • كما يتضح ذلك فى اختلاف مواعيد الفيضانات فى دجلة والفرات • وتمدد العناصر البشرية وعدم الاستقرار البيئى فى الجنوب • والصراع الدائم بين المياه العذبة والمالحة • مما ادى الى صعوبة الطمئنانه وتجسيمه بعض القوى المتحكمة فى الزوابع والعواصف فى باكورة القوى الالهية • مثال ذلك الاله السومرى انليل • وكذلك كانت تلك الصعوبات البيئية عاملا موثرا فى حياته الى درجة اتخاذه ظاهرة الطوفان • وهى ظاهرة بيئية محلية كمقدمة تميز بداية العصر التاريخى • ومن ناحية اخرى لم يتوصل الانسان العراقى القديم الى الايمان بعقيدة الخلود بصورة مماثلة للانسان المصرى القديم • بل قصرها على الالهه • كل ذلك يوضح مدى فاعلية المؤثرات البيئية فى تشكيل العمليات التاريخية السياسية والفكرية والفنية والدينية فى حياة انسان تلك المنطقة •

اما عن حادث التوحيد السياسى بين مملكتى الشمال والجنوب فى مصر نهاية عصور ماقبل الاسرات وبداية العصر التاريخى • فقد اختلف العلماء فى

تفاصيل احداثها ولكن الدراسة المقارنة لاثار الملوك نعرمر وحور عحا ومينـا وعقرب تدل على ان التحقيق الكامل للتوحيد قد تم فعلا فى عهد الملك حور عحا الذى يمكن اعتباره على هذا الاساس اول ملوك الاسرة المصرية الاولى ٠٠ وهناك عدد من الادلة الاثرية التى تستند هذا الرأى من اهمها حقيقـة تواجد مقبرة حور عحا الشمالية فى سقارة وهى جبانة منف العاصمة الاولى للدولة المصرية المتحدة ، مع عدم تواجد اية آثار حتى الان للملك نعرمر فى سقارة ولكن لايعنى ذلك ان كل الجهود المبذولة فى سبيل تحقيق التوحيد السياسى بين الشمال والجنوب قد تمت فى عهد حور عحا ، بل لقد سبقت ذلك جهود طويلة حربية فى عهود نعرمر وعقرب ٠ وان آثار نعرمر ، وعلى رأسها لوحتـه الشهيرة المصنوعة من حجر الشست الاخضر ، ومقمعة نعرمر وكذلك مقمعة الملك عقرب لتثبت بعض العمليات التى حدثت فى سبيل التوحيد السياسى ، كمـا ان زواجـه من الاميرة الشمالية الاصل نيت حوتب ليدل ايضا على محاولتـه تدعيم الوحدة السياسية بالزواج السياسى ٠

ومن الآثار الهامة فى هذا الصدد ايضا الرقعة العاجية التى سجـل عليها الاسم الحورى للملك حور عحا ، والتى عثر عليها فى مقبرة نيت حتب فى نقادة ٠ وتمثل تلك اللوحة الاحتفال الخاص بالتوحيد السياسى فى عهـد الملك حور عحـا ٠ وان حقيقة عدم العثور على اية آثار للملك نعرمر شمـال

طرخا ن ليدفع الى الاعتقاد انه حاول تحقيق تلك الوحدة السياسية ، كما حاولها ايضا الملك عقرب لحد معين ، ولكن لم تكتمل تلك الجهود كلية الا فى عهد الملك حور عحا الذى بنى العاصمة المصرية الاولى منف ، وكذلك شيد مقبرته الشمالية فى سقارة ، بالاضافة الى مقبرته الجنوبية فى ابيدوس • امـا عن موقف الملك التقليدى مينا فقد اشارت اليه النصوص الكلاسيكية والاثار المصرية المتأخرة زمنيا • ويغلب انه هو حور عحا ، ولكن الحل النهائى لهذا الاشكال لن يأتى قبل استكمال الحفائر فى مواقع تلك المرحلة الهامة من التاريخ المصرى القديم •

وقبل الانتقال الى دراسة صميم العصر الفرعونى تنبغى الدراسات المقارنــة مع الشمال الافريقــى •

تجمع البيئة المغربية بين مختلف التضاريس فهناك مجموعة جبال الاطلس والهضاب المحيطة بها والسهول الساحلية والداخلية والمنخفضات والواحات والاوديــــة والغابات والصحراء الكبرى الممتدة من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسى • ويتصل تاريخ هذه البيئة فى عصور ماقبل التاريخ اتصالا وثيقا بالتطورات الجغرافيـــــة الجوية والارضية والمائية التى حدثت فى الزمن الجيولوجى الرابع اى عصــــــــــــر البليستوسين • ولكنها تميزت بوراثها الخاصة • فبينما سادت هذا العصــــــر الهجمات الجليدية فى اوربا وفترات تراجعها كانت هناك الهجمات المطيرة وفترات الجفاف فى المغرب القديم فى ذلك الوقت •

وقد قام العلماء بالبحث عن الادلة المختلفة التى تثبت حدوث هذه المراحــل المطيرة فى تلك المنطقة وايضا نوع الحياة الحيوانية والنباتية والانسانية اثناءهـــــا واشترك فى هذا الصدد علماء الجيولوجيا والجغرافيا والجو القديم والنبات القديم والحيوان القديم والانثربولوجيا والاثار الذين قاموا بالدراسات المختلفة كل فــى ميدانه الخاص متوخين الوصول الى حقائق هذه المرحلة من محاولة التعرف علـــــــى صلات هذه الادلة ببعضها • ويبدأ الجيولوجيون بقياس الارتفاع فى البحار نتيجـة ذوبان الجليد وتأثيرها على الشواطىء البحرية وذلك بدراسة الرسوبات المختلفــة

التي تجمعت على هذه الشواطئ والتي تظهر طبقاتها في بعض المحاجر والهضاب المتاخمة لهذه السواحل • ومن الامثلة الجيدة لهذه المحاجر محجر سيدى عبد الرحمن ومحجر مارتن في نواحي الدار البيضاء بالمغرب •

ويلاحظ ان هذه الطبقات تدل على مراحل الازدياد والتراجع وتقابل بدورها مراحل الهجمات الجليدية وتراجعها • ولكن على اساس ان التراجع في هذه الناحية البحرية يوازى مراحل الهجوم الجليدى • وان الازدياد فيها معناه تراجع الجليد • وذلك على اساس ان عملية ذوبان الجليد في فترات التراجع الجليدى تؤدى الى ازدياد نسبة المياه مما ينتج عنه ارتفاع مستوى البحار وتكوين الرسوبات التي تظهر في طبقات هذه الشواطئ والمحاجر الساحلية • والعكس صحيح •• وعلى ذلك دراسة هذه الطبقات تعطى الباحث صورة عن الاحوال الجوية في هذه العصور بجانب ماتكتنفه هذه الطبقات من آثار عظمية حيوانية وانسانية وصناعات حجرية هامة من مخلفات انتاجه في ذلك الوقت •

وبالاضافة الى دراسات الجيولوجيون يقوم الجغرافيون وعلماء الجو القديم بالبحث عن ادلة تثبت حدوث الهجمات المطيرة في تلك العصور • فاتجهت ابحاثهم الى دراسة الصحراء الكبرى التي تحدثت المصادر الكلاسيكية عن خصوبتها • فقد عثر على عدد كبير من الاودية والبحيرات التي تجمعت فيها الرسوبات الناجمة

عن العصر المطير ومن اهم هذه الاودية وادى اراغار الذى يبدأ من جبال الهجار ويتجه شمالا حتى منخفض توغورت ويصل حتى شط ملغير فى شرقى الجزائر . وكذلك عثر على رسوبات فى هضاب تاسيلى شمال جبال الهجار السالفة الذكر وايضا فى وادى مردوم شرقى طرابلس .

ومما يسترعى الانتباه العثور فى منطقة نهر النيجر الاعلى على بقايا بعض عظام متحجرة لاسماك وافراس نهر وزراف وفيلة وغيرها من الحيوانات . ويقوم علماء الحيوان القديم بدراسة هذه البقايا العظامية للتعرف على نوع الحياة الحيوانية السائدة فى تلك العصور والتى تتفق مع الظروف المناخية والبيئية الملائمة لها .

وقد تخللت فترات العصر المطير مراحل جفاف بعد تراجع الموجات الباردة نحو الشمال . ويمكن تتبع هذه الفترات من دراسة الطبقات الرسوبية المحتوية على بقايا عظام حيوانات تلائمها تلك الظروف الجوية .

وقد حاول العلماء ربط مراحل العصر المطير بمراحل الهجمات الجليدية فى اوربا وتمكنوا بعد دراسات جيولوجية وجغرافية طويلة من التعرف على المراحل التالية بالنسبة الى منطقة المغرب الاقصى والموازية لمراحل الهجمات الجليدية :

المراحل الجليدية الاوربية	المراحل المطيرة فى المغرب الاقصى

المراحل الجليدية الاوربية		المراحل المطيرة فى المغرب الاقصى
فرم الجديدية	توازى	الغربية
فرم	توازى	السلطانية
رس	توازى	التنسيفتية
مندل	توازى	العامرية
جنز	توازى	السلاوية
ماقبل جنز	توازى	الملوية

وكما اجتذبت هذه البيئة المغربية الحيوان رغم الصعوبات المناخية فقد اتجه الانسان ايضا الى الحياة فى تلك المناطق محاولا اثبات كيانه • وقام العلماء بالبحث عن اقدم انسان وصل الى تلك المنطقة وصناعته وحضارته الاولى • وايضا التعرف على علاقة هذا الانسان بزميله فى القارتين الاوربية والاسيوية •

وقد عثر على عظام هذا الانسان الاول فى عدد من المراكز الاثرية المغربية المنتمية الى العصر الحجرى القديم الاسفل والاوسط والاعلى وايضا العصر الحجرى الحديث •

وقبل التعرف على نوع هذا الانسان ومكانه فى سلم التطور تدعى الاشارة الى مراحل التطور الرئيسية للانسان بوجه عام والتى على اساسها يمكن وضع

الانسان المغربى القديم فى مكانه بين السلالات البشرية •

وتنقسم هذه المراحل الى مايلى :

(١) مرحلة ماقبل الانسان فى عصرى الميوسين والبليوسين منذ حوالى ١٥ مليون سنة •

)ب) مرحلة الانسان الاول وذلك فى عصر البليوستوسين وتشمل ما يلى :ـ

١ ـ مرحلة انسان جاوة وانسان بكين وبداية صناعة الادوات الحجرية منذ حوالى نصف مليون سنة ، وانسان بلتدون فى انجلترا •

٢ـ مرحلة انسان نياندرتال فى المانيا وانسان هيدلبرج فى المانيا وانسان روديسيا فى افريقيا وانسان جاوة •

٣ ـ مرحلة الانسان الحديث الاول ويشمل انسان انجلترا وانسان سوانسكوب فى انجلترا وايضا انسان ستاينهيم فى المانيا ، وينتمى الى هذه المجموعة ايضا انسان جبل الكرمل بفلسطين •

(جـ) مرحلة الانسان الحديث او الانسان العاقل وقد ظهر منذ حوالى ٧٥٫٠٠٠ سنة ومابعدها • وفى اوربا ظهر هذا الانسان منذ حوالى ٥٠٫٠٠٠ سنة وينتمى الى هذه المرحلة مجموعة انسان كرومانيون بفرنسا • ومجموعة كومبى ـ كابل ـ برن وانسان جريما لدى ذو الصفات الزنجية بايطاليا •

وهناك امثلة اخرى تمثل السلالات البشرية المختلفة البيضاء والسوداء والصفراء اي العناصر القوقازية والزنجية والمغولية •

اما في المغرب فقد عثر على عدد كبير من البقايا العظامية الانسانيـــة وبصفة خاصة عظام الفك السفلي والعلوي والجمجمة • لان هذه العظام تعتبر من اقوى الاجزاء العظمية في الهيكل الانساني وتتحمل لحد ما فاعلية الزمـــن • واقدم هذه الاثار العظامية الانسانية في المغرب ماعثر عليه في موقع باليكاو بالجزائر وتنتمي الي مرحلة العصر الحجري القديم الاسفل • وهي عبارة عن ثلاث عظـــام فكية وسفلية وتتميز بكبرها وثقلها وايضا عظامة جدار ايمن الجمجمـــة •

ويرجح العثور عليها مع مجموعة من الفئوس اليدوية مما يغلب انتمائها الـــى مرحلة حضارية واحدة • وقد قام العلماء بالدراسات المقارنة لمعرفة مكان هـــذا الانسان في التطور البشري فثبت انه ينتمي الي مجموعة اتلانثروبس موريتانيكـــوس وترتبط هذه المجموعة الاخيرة مع مجموعة الشرق الاقصى اي انسان جاوة وانسان بكين •

ويدعم هذا الارتباط وجود وجه شبه في الاسنان • وقد عثر ايضا علـــــى مجموعة اخرى في غاية الاهمية تنتمي الي مرحلة العصر الحجري القديم الاسفـــل في محجر سيدي عبد الرحمن وهو احد المحاجر الكثيرة المنتشرة في نواحي الدار البيضـــاء نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملي والجير طوال العصـــور

الجيولوجية .

وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقرية كفرس النهر ووحيد القرن وحيوانات لافقرية بالاضافة الى البقايا الاثرية التي خلفها الانسان في هذه المرحلة . وتنحدر هضبة هذا الموقع من ارتفاع يزيد على مائة متر الى مسافة خمسة كيلومترات تجاه الشاطئ الاطلسي وتمتد نحو الجنوب الغربي حيث عثر على كهفين هما كهف الدببة وكهف ليتورين . وفي هذا الاخير اكتشف فك سفلي سنة ١٩٥٥ من قطعتين وفي حالة جيدة وهو ينتمي الى نفس مجموعة انسان باليكاو اي مجموعة اتلانثروبوس ، ولو ان حجم الاسنان يقل عما يناظره في باليكاو حيث عثر على ثلاثة عظام فك سفلي وعظمة جدار ايمن للجمجمة ويلاحظ العثور معها على فئوس يدوية .

وترتبط مجموعة باليكاو وهي من مجموعة اتلانثروبوس موريتانيكوس بمجموعة سينانثروبوس بيثكانثروبوس في الشرق الاقصى .

وكذلك عثر في نواحي الرباط على بقايا انسان يعرف باسم انسان الرباط وذلك في شهر فبراير ١٩٣٣ حيث وجد الفك الاسفل لهذا الانسان ضمن الحصى والحجر الخاص برصف الطريق في ذلك الوقت . وتوجه العلماء الى المحجر الذي قطع منه هذا الحجر وقاموا بدراسة بقاياته وآثاره . وبلغ مجموع القطع العظمية المنتمية لهذا الانسان ٢٣ قطعة ولكنها مفككة ويصعب ترميمها وهي تنتمي لجمجمة هذا الانسان .

واهمها الفك الاسفل وجزء من سقف الحلق خاصة بالجانب الايسر ٠
ويمتد الفك الاسفل من مستوى الضرس الاول الايسر حتى الوجه الخلفي للضرس الثالث الايمن ويتضمن قواطع ونابين واربعة اسنان واقعة بين الناب والضرس الاول الايسر والضرس الثالث الايمن ، وكذلك جذور الضرسين الاول والثاني الايمنـــين ٠

وقد قام العلماء بدراسة بقايا الفكين والاسنان دراسة مقارنة ٠ وقد لوحظ وجود نتوء تحت القاطع الجانبي والناب والسنتين الواقعتين بين الناب والضرس الاولين السفليين والعلويين ، وهذه الظاهرة لوحظ وجودها في انسان بكين واترنتروبوس ٠ ويغلب ان انسان الرباط ينتمي الى مجموعة اترنتروبوس اي نفس المجموعة المنتمية اليها انسان باليكاو وسيدي عبد الرحمن ٠

ومن الاهمية بمكان الاشارة الى ارجحية التشابه في التكوين البيولوجـــي بين طبقات محجر سيدي عبد الرحمن والرباط ، مما يؤكد لحد كبير تشابـــه البيئة المحيطة بحياة هذا الانسان الاول في كل الموضعين ٠

وفيما يتصل بانسان العصر الحجري القديم الاوسط في المغرب فقد عثـــر على فك انساني ينتمي الى هذه المرحلة في كهف غرب درنة ٠ وقد استخدم الكربون المشع ١٤ في اختيار عمر الفحم الخشبي الذي وجد في مواقع هـــذا

الموقى والمنتمية لهذه المرحلة وقد اعطى سنة ٤٢٠٠٠ ق.م • كتاريخ لــــه •

وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الانسان مع انسان نياندرتال في فلسطين • كما ان هذا التشابه ايضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجريـــة المنتمية لهذه المرحلة مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشريـــة بين جنوب غربي آسيا وشمال شرقي ليبيا •

وهناك اتجاه الى اعتبار هذا الانسان قد دخل هذه المنطقة من الجنـوب اثر هجرة جنوبية ــ شمالية ظهرت ايضا آثارها في وادى النيل ثم تطور بعــد استقراره في هذه المنطقة •

وكذلك عثر على عدد من البقايا الادمية الانسانية في الكهوف والمغارات الساحلية المواجهة للمحيط الاطلسي •

هذا ويلاحظ ان دائرة الكهوف تمتد على طول الساحل المغربى الاطلسي مثل كهوف مغارة العالية واشقر بجوار طنجة • ودار السلطان جنوب الربـــاط والخنزيرة جنوب الجديدة • وغيرها بسبب عوامل النحات والتعرية الناجمــة عن مياه المحيط مع الصخور المتاخمة للساحل •

وقد اتخذ الانسان القديم هذه الكهوف والمغارات كمناطق يأوى اليها خلال عصور ماقبل التاريخ •

وقد عثر في ارضياتها على عدد من الطبقات الاثرية الدالة على مراحل سكناه فيها •

ومن الكهوف المنتمية الى مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط مغـــارة العالية حيث عثر فيها على بقايا فك انساني علوي غير كامل النمو وناب مكتمـــل النمو • ويغلب ان هذه البقايا تنتمي الى مجموعة انثروبوس مما يبعد هـــذا لحد ما عن انسان برقة النيندرتالي وكذلك فلسطين حيث كانت الحضـــارة اللفلوازية ــ الموستيرية • وعلى ذلك يمكن اعتبار انسان مغارة العالية انه انسان قديم له تطوره المحلي البحت •

اما انسان كهف دار السلطان الذي يقع جنوب الرباط فقد اعتبر العلمـــاء ان بقاياه العظمية تنتمي الى الانسان الحديث اي العاقل وانه يرتبط بمجموعة انسان مشطة العربي في الجزائر •

هذا وقد اختلف العلماء في محاولة ايجاد صلة بين هذا الانسان • والتطورات البشرية الاخرى ولكن ثبت انه لا يتصل بانسان نيندرتال بل يرتبط مع انسان الحضارة الوهرانية •

ومن آخر الاكتشافات في المجال البشري في هذه المرحلة العثور على انسان جبل ارحود الذي عثر عليه اخيرا جنوب شرقي مدينة اسفي بالمغرب الاقصى • ويغلب انتماؤه الى انسان نيندرتال •

اما فيما يتصل بالبقايا العظمية الانسانية المنتمية الى مرحلة العصر الحجري

القديم الاعلى فقد عثر عليها في عدة مواقع اثرية مثل عين في تونس وفي مشطة العربي وافلوبو وكهف علي باشا بالجزائر وبرها • فقد عثر في موقع افلوبو على مالا يقل عن اربعين جمجمة بشرية جيدة الحفظ تنتمي الى مجموعة الانسان العاقل •

هذا بالاضافة الى اجزاء اخرى من الهياكل العظمية الانسانية في طبقات اثرية جيدة •

ويتميز العصر الحجرى القديم الاعلى بظهور حضارتين رئيسيتين هما الحضارة الوهرانية او الايبروموريه والحضارة القفصية • ويتجه العلماء الى اعتبار انسان مشطة العربي الذى يمثل الحضارة الوهرانية من اصل غربي بينما انسان الحضارة القفصية الذى عثر على بقاياه العظمية فى كثير من مواقع هذه الحضارة من اصل يرجع الى منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط • ومما يسترعي انتباه الباحث ليس فقط وجود شبه بين انسان مشطة العربي وانسان كروانيون بل ايضا بينه وبين انسان جزر كناريا التى كانت بمثابة ملجأ بشرى تصل اليه العناصر البشرية من المغرب •

وقد كان لهذه الحقائق المتصلة بالكيان البشرى اثرها الكبير في التطور الحضارى فى المنطقة ومدى وجود صلات حضارية بين اجزائها •

اما فى مرحلة العصر الحجرى الحديث عصر الاستقرار والرعي والزراعة فقد سكنت

المغرب القبائل البربرية •

هذا • وقد اختلف العلماء اختلافا كبيرا فيما يتعلق بأصل البربر والى أيـــة عائلة بشرية تنتمى هذه العناصر وكتب فى هذا الصدد الكثير من المؤرخــين وبصفة خاصة ابن خلدون •

وقد اطلق البربر على انفسهم اسم الامازيغ اى الاحرار • ويغلب انهـــم ينتمون الى مجموعة الشعوب الحامية التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سينـــاء او عن طريق القرن الافريقى من موطنها الاصلى الذى يعتقد انه كان اليمـــن او عمان • اما كلمة بربر ذاتها فهناك اختلاف ايضا بين العلماء فى التعـــرف على اصلها ولكن يغلب انها مشتقة من اللاتينية • وهو التعبير الذى استخدمه الرومان بالنسبة لمن يقل عنهم حضارة •

وهم ينتمون الى عنصر البحر الابيض المتوسط بوجه عام ولكـــن تتفاوت مدى دقة صفات هذا العنصــر فيهم حسب اماكن استقرار قبائلهم •
فقد استقرت بعض هذه القبائل فى الشمال والاخرى فى الجنوب مما جعلها تتأثر بالموجـــات البشرية القادمة عن طريق البحر الابيض المتوســـط او عـــــن طريق الصحـــراء •

وقد تمكن الانسان المغربى القديم منذ العصر الحجرى القديم الاسفل من صنع حضارة ترك آثارها فى المواقع الاثرية المختلفة • •

ويمكن تتبع المقومات الرئيسية لتلك الحضارة فى الفصل التالى •

الفصـــل الثانـــى

" مرحلـــــة العصر الحجـــرى القديم الاسـفل "

مرحلة العصر الحجرى القديم الأسفل

تعتبر هذه المرحلة من أول وأهم مراحل تاريخ الانسان فهى المرحلة الاولى التى بدأت بحمله صفاته الانسانية وانشاء باكورة اعماله الانتاجية •
ولم تكن مهمته فى تلك الفترة الزمنية الطويلة بالمهمة السهلة بل لقد قاسى فيها الكثير من المصاعب الدوبية والارضية والحيوية • ولكنه رغم ذلك قد تمكن من الصمود والنجاح واثبات كيانه وتفوقه العقلى على المخلوقات الاخرى فى هذا الكون •

ولا تختلف وضعية الانسان المغربى القديم فى هذا المجال عن زملائه الاخرين فى كافة انحاء الكرة الارضيه فى ذلك الوقت المبكر • فقد كان العالم يمر بمرحلة التقلبات الجوية اثناء عصر البليوستوسين بمراحله الجليدية والمطيرة ولازال معرفة الباحثين بتاريخ الانسان فى هذه المرحلة محدودة ومليئة بالفجوات التى يحاول العلماء تفهمها بمداومة الكشف والتنقيب والبحث عن معالم حياة هذا الانسان الاول •

ولذلك يلاحظ اختلاف آراء العلماء من حيث مستوى هذا الانتاج الحضارى فى بقاع العالم المختلفة اعتمادا على الاثار التى سمحت الظروف باكتشافها فى

بعض هذه البقاع ويغلب اختفاؤها في بقاع اخرى •

فالصورة الحقيقيـــة لحياة الانسان في هذه المرحلة الاولى لم تكتمل بعـــد •

وقد اتخذ العلماء الاصطلاحات الاوربية في هذا الصدد مقياسا تقاس على اساسه

حضارات المناطق الاخرى • وذلك بسبب اسبقية العلماء الاوربيين الى البحـــث

في هذا الموضوع • ولكن احتمالات وامكانيات البحث في المناطق الاخرى فـــى

المستقبل قد تغير الكثير من الاراء • وقد بذل الانسان المغربى القديم جهـــدا

في هذا المجال اثبتته الادلة الاثرية في المواقع المختلفة ويمكن ارجاع ذلـــك

الى اقدم مراحل الحضارة الانسانية وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل •

وقد سبقت الاشارة الى البيئة المغربية المتميزة بهضابها وجبالها وغاباتها وسهولها وصحرائها مما ادى الى التجاء الانسان الى الاودية والسهول والعيون والواحات والبرك والبحيرات والكهوف والمغارات اى المناطق التي يستطيـــع العيش فيها والالتجاء اليها •

وقد اختلفت مراحل سكنى الانسان باختلاف الظروف الجوية المحيطـــة • فبينما كانت تسود مراحل العصر المطير كان الانسان يلتجيء الى الكهـــوف والمغارات لحماية نفسه من الظروف الجوية القاسية ثم بانتهاء هذه المراحـــل يتجه الى الاستقرار في المناطق السهلية حيث تتبعه الحياة النباتية والحيوانية التي يستطيع الاعتماد عليها في غذائه وحياته •

ويقوم اقتصاد الانسان في هذه المرحلة على الجمع والالتقاط فليست لدى الانسان

مهنة محددة يتوفر على ادائها بل هو يحمص ماتتطلبه الظروف المختلفة في حياته ويركز جهده الاول في البحث عن طعامه المعتمد على صيد الحيوانات والطيور والاسماك وايضا الاعتماد على المحاصيل البرية الموجودة في محيط مكانه •

وقد تطلبت هذه الحياة صنع ادوات حجرية وخشبية او عظمية او عاجيـــة تعاونه على تنفيذ رغباته وتحقيق اغراضه السلمية والدفاعية • وعلى ذلك بدأ فـي صناعة اقدم آلات حجرية لتحقيق هذه الاغراض السالفة الذكر •
ويمكن القول ان الحضارة الانسانية تبدأ بتلك المرحلة التي فكر فيها الانســان وحقق هذا التفكير بصنع وتشكيل الاته الحجرية الاولى • ولم يكن هذا التفكـــير الاول مجرد تفكير عابر بل ان ذلك كان نتيجة عدة تجارب وجهته نحو تركـــيز انتباهه واحساسه ونظره وبالتالي البحث عن وسيلة في دائرة امكانياته المحيطـــة تحقق له الغاية المطلوبة •

وعلى ذلك بدأ باستخدام الحجر الذي يعتبر اقدم مادة استخدمها الانسان وصنع منها ادواته الاولى • وقد نمى هذا الجهد الانساني الاول وتنوع نتيجـــة مطالباته المختلفة وتبع ذلك ظهور قواعد وتقاليد وقدرات فنية صناعية معينـــة • مما ادى الى تطور وتعدد حضارات هذا الانسان الاول • ولم يقتصر مجهـــود هذا الانسان على الجانب المادي البحت • بل لقد فكر في نطاق تجاربـــــه محاولا استكمال حياته المادية بجانب معنوي •

وقد عثر فصر على عدد من الاثار المادية التي تثبت اتجاه الانسان الى الايمان ببعض المقومات المعنوية التي في حياته الاولى ٠

وقد تمت هذه الافكار الاعتقادية جنبا الى جنب مع نتاجه المادى مكونة بذلك التكامل الحضارى الذى يعتبر من اهم خصائص الكائن الانسانى ٠ وقد قام العلماء بالبحث عن اقدم مراحل حضارة الانسان فى المغرب القديم ٠ وقد عثر فصر فى هذا الصدد على عدد من المواقع الاثرية التى تمثل هذه المرحلة الحضارية الاولى ٠

ويصعب ايجاد رابطة مستمرة بين حضارات الانسان فى هذه المواقع المنتمية الى هذه المرحلة الاولى وحتى العصر الحجرى القديم الاسفل وحتى المرحلة المعروفة بالفرنسية تحت اسم وبالانجليزية

ولكن ذلك لايعنى عدم وجود اية رابطة حضارية بين آثار هذه المواقع فهناك امكانية استنتاج وجود خطوط حضارى يفتقد بعض مراحل التكامل اى تتخلله فجوات قد تملأها نتائج الحفائر المستقبلة فى المواقع الاثرية ٠

هذا بالاضافة الى تمييز بعض هذه المواقع بحضارة انتشرت اساليبها فى بعض المراكز المحيطة ٠

ورغم هذه الصعاب التى يتلمسها الباحث فى حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل فى المغرب يمكن حصر حضارة هذا الانسان فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت

فى مرحلتين اساسيتين :

اولا : المرحلة الاولى : وتتميز ببداية الصناعة الحجرية فيلاحظ جهد الانسان لاول مرة فى عملية تشذيب الحجر فى اتجاه واحد او عدة اتجاهات وقد اطلق العلماء الفرنسيون فى اصطلاحهم الاخير اسم حضارة حصى المشذب القديمة والمتطورة على تلك المرحلة •

ثانيا : المرحلة الاشولية باقسامها القديمة والوسطى والمتطورة • وهى المرحلة التى سادت فيها حضارة النواة المشذبة من وجهيها وهى المرحلة المعروفة ايضا باسم الكدكتو – ايفيليه •

وقد تضمنت هذه المرحلة الاشولية ثمانية طبقات من الاولى حتى الثامنة • وقد عثر العلماء على اثار هذه الحضارات فى عدد من المواقع الاثرية الداخلية والساحلية والصحراوية •

ويمكن تصنيف هذه المواقع الى اربعة اقسام رئيسية :–

(أ) مواقع ترتبط بتطورات الزمن الجيولوجى الرابع من الناحية البحرية مثل بعض المحاجر الساحلية كمحجر سيدى عبد الرحمن ومحجر مارتن ومحجر دبريه وجميعها فى نواحى مدينة الدار البيضاء •

جـــدول رقم (١)

جدول تقويمى لحضارات العصر الحجرى القديم الاسفل فى المغرب

العصور الجليدية فى اوربا	العصور المطيرة فى المغرب	الحضـــارة
دنـــاو	الملـــوى	حضارة الحصـــى المشـــذب
جـــنز	السلاوى	
منـــدل	العـــامرى	حضارة النواة ذات الوجهـــين
رس	التنسيفتى	
فـــــرم	ماقبل السلطانى	

المراحل الحضارية	المواقع الاثرية
المرحلة القديمة	رباوة ـ دوار الدوم محجر دبريه بالدار البيضاء عين حنش ـ منصورة
المرحلة المتطورة	محجر شنيدر بالدار البيضاء سوق الاربعاء ـ سيدي عبد الرحمن ـ شالة
الاشولية القديمة	سيدي عبد الرحمن ـ قمة عين حنش سيدي عبد الرحمن محجر بالدار البيضاء ـ وادي مرزج
الاشولية الوسطى	سيدي عبد الرحمن كهف الدببة بسيدي عبد الرحمن كهف بسيدي عبد الرحمن ـ محجر مارتن
الاشولية المتطورة	سيدي عبد الرحمن ـ وادي الخميس رأس شاتليه ـ عين حلوف ـ سيدي الزين

(ب) مواقع سهلية لجأ اليها الانسان بحثا عن الطعام والشراب مثـــل اوزيدان ويقع على بعد بضعة كيلو مترات شمال شرقي تلمسان على الضفة اليمـــنى لوادى صفصاف ، وسورة ادى عند رأس كهوف الريح القريبة من عين الحوت وعـين انكرمان جنوب غربي مدينة الاصنام في غربي الجزائر ، وتقع في شرقي الجزائر علـى الضفة اليمنى لوادى ملاق وفي الطريق بين سوق اهراس وتبسه وموقع الماء الابيـــض حوالى ٤٥ كم جنوب تبسه ، شرقي المدينة جنوب الجزائر العاصمة وموقع تمـــدا في نواحي اعالي وادى سبا وجنوب دلس وموقعى ققصة وسيدى الزين .

(جـ) مواقع العيون والابار ، التي تجمع عندها الانسان وترك اثاره فـــي طبقات الارض المطلة على تلك العيون والابار مثل موقع عين حنش على بعـــد ٦ ك م . شمال غرب سانت ارنود (العلمة) شرقي سطيف .

وموقع تبت مليل وعين فريطسة وموقع على بعد ... كم .

شرقي بسكرة وموقع شرقي وهران ، وبحيرة كارار بجوار

تلمسان ، وترنيفين بجوار باليكاو في غرب الجزائر .

(د) مواقع صحراوية مثل تيهودين في قلب الصحراء في منطقة جبـــال الهجار ، ويبين هذا الموقع حقيقة رسوبات طينية قديمة نتيجة نزول كميات كبـــيرة من الامطار في قلب الصحراء في مرحلة العصر الحجرى القديم الاسفل .

وقد عثر خلالها على ادوات حجرية وخاصة فتورية يدوية بالاضافة الى بقايا عظام حيوانية •

وقد كان اعتقاد عدد من الباحثين فى حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل ان آثار موقع عين حنش تمثل اقدم جهد انسانى فى صناعة الادوات الحجرية فى شمال افريقيا وذلك على اثر العثور على قطع حجرية من الحجر الجيرى يقترب من شكلها من الشكل الكروى وتتميز بكثرة اضلاعها وزواياها •

وقد تردد العلماء فى بداية الامر فى شأن حقيقة هذه القطع الحجرية من حيث كونها من صناعة الانسان ام من مخلفات الطبيعة نتيجة عوامل التحات والتعرية المختلفة ولكن العثور على فؤوس يدوية منتمية الى نفس الحضارة رغم عدم وجودها فى ذات المكان يساعد على الاعتقاد بأنها من صنع الانسان •

ويغلب ان هذه " الكرات " الحجرية كانت اصلا اكبر حجما ثم قطعت منها شظايا وتبقت هذه القطع الحجرية فى صورتها الحالية •

وقد اعتقد العلماء فى قدم هذه " الكرات " الحجرية لانها تمثل تقليدا حضاريا معينا بل هى نوع من الجهد الصناعى الانسانى الاول • ولكن العثور على ادلة اثرية جديدة وخاصة فى منطقة المغرب الاقصى قد ادى الى تعديل الرأى الناشئ بأولوية آثار عين حنش السالفة الذكر من حيث القدم •

ويتجه الرأى الجديد بناء على الدراسات المقارنة الى اعتبار آثار مواقع

عرباوة ودوار الدوم و ومحجر دبريه اقدم من آثار عين حنش • فهي تمثل جهدا صناعيا اكثر اولوية اقدم في القدم من الكرات الحجرية المنتمية الى عين حنش وعلى هذا الاتجاه الجديد في التفسير ان آثار هذه المواقع الاثرية الاخيرة تمثل اقدم آثار صنعها الانسان في المغرب الكبير في اقدم عصوره ••

ويقع موقع عرباوة في شمال سهول المغرب • اما موقع دوار الدوم ففي نواحي مدينة الرباط • وموقع ترديجة الرحمن في نواحي غابة المعمورة وجميعها غربي المغرب الاقصى وقريبة نسبيا من المحيط الاطلسي • وتنتمي حضارات هذه المواقع الى المرحلة القديمة الاولى والثانية المنتمية لحضارة الحصى المشذب •

وقد تمكن الانسان من الانتقال بحياته من مستوى حضارة الحصى المشذب في المرحلة القديمة السالفة الذكر الى مرحلة جديدة هي المرحلة المتطورة •••

ويمكن تتبع هذا التطور من الدراسات المقارنة للآلات الحجرية التي خلفتها مواقع آثار هذه الحضارة حيث يرى الجهد انسانيا اكثر وضوحا في المرحلة المتطورة •

ولقد كانت النقلة من حضارة الحصى المشذب الى حضارة النواة ذات الوجهين بطيئة ولكن يمكن تلمس صناعة هذه الحضارة الجديدة من آثار المواقع الاثرية الكثيرة التي تنتمي الى هذه المرحلة التي تعرف ايضا باسم مرحلة الحضارات الاشولية القديمة والوسطى والمتطورة •

وتتميز بصفة خاصة بكثرة الفئوس اليدويه التي كانت تستخدم في عـــدة وظائف تتصل بقطع مايحتاج اليه الانسان •

هذا بالاضافة الى المحاكات والمكاشط الجانبية التي بدأ الانسان يشكلها لتغطية بعض جوانب ضرورياته •

ومن الاهمية بمكان الاشارة الى العثور على بقايا عظمية حيوانية وانســانيـة مع الادوات الحجرية في بعض المواقع •• مما يؤكد تجمع بقايا مخلفات المجتمـع بكافة اركانه في مكان واحد •

ولم يقتصر الانسان على الادوات الحجرية بل استخدم ايضا الخشب والعظم فـــي بعض صناعاته •

ويمكن القول كما سبقت الاشارة الى وجود نمط حضاري معين سائد فـــي كافة هذه المواقع المنتشرة في انحاء المغرب رغم تنقل الانسان من مكان الى آخـر فان حضارته الحضارية لاتزال في طورها الاول •

ولكن يمكن النظر بعين الاعتبار لموقع معين بالذات قرب ساحل المحيـــط الاطلسي وهو محجر سيدي عبد الرحمن لانه يحمل اهمية خاصة من النواحـــي الجيولوجية والاثرية والبقايا العظمية الانسانية والحيوانية •

ونظرا لاهمية النتائج الاثرية لهذا الموقع فقد اعتبره بعض العلماء مثلا لحضارة

اطلق عليها اسم الحضارة الرومانية •

ولكن يتجه بعض العلماء الاخرين الى تسمية هذه المرحلة الحضارية باسم الحضارة الكلاكتوابفيليه • وطبيعة الارض في هذا الموقع عن هضبة تنحدر نحو ساحل المحيط الاطلسي من ارتفاع حوالي ١٠٠ متر مسافة حوالي ٥ كم • وقد استخدمت هذه الهضبة كمحاجر بصفة خاصة بالنسبة للحجر الرملي مما ادى الى كشف الاثار التي خلفها انسان هذه المرحلة في تلك المنطقة •

وقد امتدت حفائر محجر سيدى عبد الرحمن مسافة اكثر من ١ كم • حيث عثر في ابحاثه على عدد من الفئوس اليدوية والشظايا والبقايا العظمية الحيوانية كعظام فرس النهر ووحيد القرن •

ومما يستحق الذكر وجود بعض الكهوف في نفس الطبقة الحضارية في شمال محجر سيدى عبد الرحمن حيث لوحظ وجود عدد من طبقات المخلفات الاثرية في ارضيات بعضها مثل كهف الدببة وكهف ليتوريين • وخاصة بالنسبة لهذا الاخير فقد عثر فيه على بقايا انسان سيدى عبد الرحمن •

ولقد كان قوام حياة الانسان الاقتصادية في هذه المرحلة الجمع والالتقاط ولذلك فاستقراره في هذه الكهوف وحول العيون والانهار والاودية كان استقرارا موقتا • فسرعان ما ينتقل الى مكان آخر يبحث فيه عن طعام جديد • ولقد نجح

هذا الانسان الاول في بداية تطوير حياته في صنع الالات الحجرية الاولى بالفئوس اليدوية •

ومن الاهمية بمكان مقارنة مستوى هذه الصناعة الحجرية بما يناظرها في شرق ووسط افريقيا وكذا في اوربا وغربي آسيا • مما يساعد على تفسير هذه الحضارات من حيث اصولها وتطوراتها وصدرتها الحضارية ومستواها الفني • ولكن يصعب التثبت في هذه المرحلة من الجهد الانساني الاول من الصلات الحضارية الا على سبيل الافتراض النظري الذي يحتمي تدعيمه مستقبلا بالادلة الاثرية • ولكن مما لا شك فيه ان انسان العصر الحجري القديم الاسفل قد تمكن خلال هذه المرحلة الزمنية الطويلة من اكتساب عدد من التجارب الحيوية في حياته مما ساعد على دفعه نحو الانتقال الى المرحلة الحضارية التالية وهي مرحلة العصر الحجري القديم الاوسط •

" مرحلـــــة المصـر الحجـرى القديم الاوسط "

مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط

يمكن للباحث تتبع الانتقال الى هذه المرحلة الحضارية الجديدة وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط عندما يتلمس بوضوح معالم قدرة صناعية فنية جديدة تظهر خاصة فى صناعة الادوات الحجرية •

وقد تجلت هذه المقدرة الفنية الجديدة فى صناعة الشظايا ويمكن ملاحظة ذلك فى عدد من المواقع الاثرية التى تجمع فى آثارها بين حضارة العصر الحجرى القديم الاسفل والعصر الحجرى القديم الاوسط مما يؤكد بداية مرحلة الانتقال الحضاري بين العصرين •

ومن البديهى ان هذه الصناعة الجديدة تحل محل الصناعة الاقدم منها بصورة تدريجية مما يتفق مع سنة التطور • ويصعب على الباحث التعرف على الاسباب المباشرة التى دفعت الانسان لهذه النقلة •

ولكن يغلب ان تجاربه الطويلة اثناء العصر الحجرى القديم الاسفل مع البيئة الطبيعية والحيوانية والنباتية ومن سلاحه الاول وهو الفأس اليدوى قد وجهته الى ضرورة تطوير هذه الادوات الحجرية التى يستخدمها فى تحقيق اغراضه المختلفة •

اما عن الزمن الذى توصل فيه الانسان الى هذه المرحلة الجديدة فتختلف من مكان الى آخر تبعا لمدى تأثره المباشر او غير المباشر بهذه التجارب الطويلة فى حياته ، وكذلك تبعا لطبيعة المنطقة التى يقطن فيها .

ويتجه الاستاذ ماك برنى الى الاعتقاد بأنه يمكن التعرف على التقاليد الحضارية الاقليمية فى هذه المرحلة بدرجة محدودة . فقد اتجه انسان هذه المرحلة الى تركيز جهوده الحضارية المادية والفكرية فى بعض اماكن معينة اتخذت كمراكز انتشرت منها التقاليد الحضارية فى الاماكن المجاورة والبعيدة .

وعلى سبيل المثال موقع بئر العاتر فى تونس والذى تنسب اليه الحضارة العتيرية . وهناك اتجاه الى مواقع اخرى مثل برج فى نواحى جبل درميره وموقع وادى جبانة فى منطقة عمشة جنوب شرق قسطينة .

والصناعة المميزة لحضارة العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب هى صناعة الشظايا . ويغلب ان هذه الصناعة قد نتجت اثناء عمليات تشذيب الحجر والتخلص من بعض الشظايا مما كان له فاعليته فى تنبيه الصانع الى امكانية صناعة شظايا دقيقة تكون اكثر صلاحية فى تحقيق احتياجاته المختلفة . ولكن هذا التفسير غير نهائى .

ولا شك ان صناعة الشظايا قد تطلبت تدريبا تجريبيا طويلا يظهر في عمليات ضرب الحجر في زوايا معينة مما ينتج عنه هذه الشظايا المتميزة بحدتها والمميزة لهذه المرحلة الحضارية وقد عثر على عدد من المواقع الاثرية تتضمن آثار هذه المرحلة • وذلك من ليبيا حتى المحيط الاطلسي •

وبالنسبة للمواقع الليبية هناك موقع وادي درنة • وقد عثر في هذا الموقع على بقايا عظام حيوانية كثيرة وبصفة خاصة الاغنام • بالاضافة الى الادوات الحجرية الصوانية والتي تتميز بصناعة الشظايا •

ويلاحظ تشابه هذه الصناعة مع صناعة الحضارة اللفلوازية ـ الموستيرية الفلسطينية •

ولا يقتصر وجه الشبه على الانتاج الصناعي بل ايضا انتماء كلتا الحضارتين لفترة زمنية واحدة • وقد طبقت طريقة الكربون المشع على بعض البقايا المتفحمة التي عثر عليها في المواقد في ابتات كهف هوا فتيح • في محيط منطقة وادي درنة وادى هذا التطبيق الى تقدير عمر هذه البقايا بحوالي ٤٣٠٠٠ ق٠م٠

ويلاحظ ايضا وجود شبه بين البقايا العظمية الانسانية المنتمية لهذه المرحلة وبين الانسان النيدرتالي الفلسطيني •

وكل ذلك يؤكد صلات حضارية وبشرية بين جنوب غربي آسيا وبصفة خاصة

منطقة شمال شرقى ليبيا اى برقة فى ذلك الوقت •
وهذه الحقيقة من الاهمية بمكان فى التدليل على وجود جانب شرقى بالاضافة الى العناصر المحلية فى حضارة العصر الحجرى القديم الاوسط فى المغرب •

هذا بجانب وجود آثار الصناعة العتيرية فى بعض المواقع الليبية مثل هوا فتيح • وهذه الحقيقة تؤكد من ناحية اخرى وجود جانب مغربى فى حضارة منطقة برقة اى اتصال حضارى مع المغرب الصميم •
ولكن يلاحظ ان التأثيرات الحضارية المغربية تتجلى بصورة اوضح فى منطقة طرابلس اكثر منها فى منطقة برقة ـ وذلك على اعتبار ان منطقة هضاب جبل نفوسة بحذاء الساحل فى طرابلس تعتبر امتدادا شرقيا لهضاب جبال الاطلس •
وهذا الامتداد لايقتصر على الجانب الجغرافى الطبيعى بل يتضمن الجانب الحضارى بصفة خاصة ابتداء من مرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط •

ومن امثلة الحضارة العتيرية فى ليبيا صناعة الازامين والمكاشط الجانبية وتعتبر تلك الحضارة فى صناعتها نموذجا لصناعة الشظايا والمكاشط الجانبية ورؤس السهام ذات الالسنة والازامين المميزة لمرحلة العصر الحجرى القديم الاوسط •
وقد عثر على هذه الصناعات فى عدة مواقع مغربية ومن اهمها موقع كهف الخنزيرة ـ

الطبقة أ • وكهف مغارة الـ ليا بجوار طنجـة وكهف دار السلطان بجـوار . في الطريق بين الرباط والدار البيضاء •

هذا بالاضافة الى مواقع تلك الحضارة في تونس وشرقي الجزائر • وهناك اتجـاه الى الاعتقاد بأن الحضارة العتيرية نتجت اثر اتصال بين الحضارة الاشولية المتأخرة وحضارة لفلوازية ـ ليبية ••

وهذا الاتجاه يكمن في الواقع حقيقة ازدياد الصلات الحضارية في تلك المرحلـة •

وقد عثر الاثريون على مظهر آخر في غاية الاهمية ينتمي الى هذه المرحلة الحضارية وهو مظهر معنوى • فقد عثر على كوم متناسق من الكرات الحجرية الكبيرة الجيدة التشذيب في موقع جنوب تونس ،

وقد توسط هذا الكوم الحجرى الموقع الاثرى • ومما يسترعى الانتبـاه ان هذا التقليد الحضارى وهو تنظيم اكوام حجرية تتوسط المواقع موجود لحد مـا حتى الوقت الحاضر بين المجتمعات البربرية في المنطقة •• ويصعب البت في حقيقة تفسير هذا الكوم الحجرى من حيث الغرض من وجوده • ولكن يمكن الاستدلال ببعض الظواهر الاثرية التالية من الناحية الزمنية بمحاولة عن نوع من الترابط بينها وبين الاكوام السالفة • فيلاحظ ان المعابد او الاماكن المقدسة كانت تتوسط المواقـع الاثرية بوجه عام حيث يجتمع عندها الانسان معتقدا بوجود قوة مقدسة تتخذ مـن

هذا المكان منزلا لها فيحاول التقرب الى هذه القوة المقدسة لاسترضائهـــا
وللاطمئنان الى معاونتها له فى مختلف مجالات حياته •

ولا شك ان الانسان فى هذه المرحلة من تطوره الحضارى قد ادرك حقيقـــة
وجود قوى خفية تتحكم فى الحياة الانسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، واراد
تجسيم هذه القوى فى اماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره •
وفى المجتمع السومرى يلاحظ توسط المعبد للمدينة السومرية وكذلك فى المـــدن
اليونانية والرومانية ، ومن الجائز وجود تفسيرات اخرى •

وقد تطورت الحياة الانسانية فى مجتمعات العصر الحجـرى القديم الاوسط
بشقيها المادى والفكرى مما دفعها نحو الانتقال الى المرحلة الحضارية التاليـــة
وهى مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى •

" مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى "

" مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى "

تعتبر هذه المرحلة الاخيرة من مراحل العصر الحجرى القديم اهم مرحلة في مجال التطور الحضارى فى هذا العصر لانها تمثل خلاصة التجارب المختلفة التى واجهت الانسان خلال هذه المرحلة الطويلة من حياته زه مما جعلها تمهد الى مرحلة حاسمة اخرى فى الحياة الانسانية وهى مرحلة " ثورة " انتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث •

وقد ظهر هذا التطور فى حياة الانسان فى هذه المرحلة فى توصله الى صنع اسلحة حجرية دقيقة تعرف باسم الادوات الميكروليثية

فقد شعر الانسان بحاجته الماسة الى اسلحة دقيقة تؤدى اغراضه المختلفة بسرعة وتكون فى متناول يده بسهولة بدلا من الاسلحة الكبيرة والثقيلة التى كان مضطرا الى استخدامها وحملها فى تنقلاته المختلفة •

وهذا الانتاج الدقيق من الاسلحة يدل على خبرة دقيقة بالصناعات الحجرية •

وتعتبر هذه الاسلحة النصلية بمثابة الاداة المميزة لهذه المرحلة الحضارية

الجديدة •

وقد تمثلت هذه الحضارة فى عدد من المواقع الاثرية المنتشرة من منطقة الجبل الاخضر فى ليبيا حتى ساحل المحيط الاطلسى • وقد عثر ايضا على عدد من المواقع الاثرية التى تمثل مرحلة الانتقال الحضارى من العصر الحجرى القديم الاوسط الى العصر الحجرى القديم الاعلى لان هذه النقلة كانت كغيرها من مراحل الانتقال تدريجية •

وتعتبر مواقع منطقة الجبل الاخضر بليبيا ممثلة لمرحلة الانتقال الحضارى السالف الذكر ويمكن تلمس ذلك فى ثلاثة مواقع اثرية رئيسية • اولها موقع كهف حجفة الدبير وهى على بعد ١٥ ميل من بنى غازى عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى • حيث عثر على آثار مرحلة الانتقال فى ارضية الكهف • هذا بالاضافة الى الصناعات النصلية وبصفة خاصة الاسلحة الديكروليثية والازاميل الدقيقة •

وثانى هذه المواقع هو كهف حجفة النبى • وقد عثر فى هذا الموقع على اسلحة كثيرة مختلفة الاحجام منها الكبيرة والمتوسطة والصغيرة مما يؤكد اعتبارها تمثل مرحلة الانتقال حضارى لانه لم يمكن التوصل الى صناعة حجرية جديدة الانقطاع بصورة فورية عن التقاليد الحضارية السالفة • بل ان كلا التقليدين الحضاريين يسيران جنبا الى جنب الى ان يحل التقليد محل الحضارة السابقة •

وقد ثبت وجود صلات حضارية بين شرقى البحر الابيض المتوسط وبصفة خاصة فى فلسطين وموقع جريكو (اريحا) بالذات وبين هذه المواقع الليبية فى تلك المرحلة • وهذه الصلات تعتبر استكمالا للصلات الحضارية التى سبقت الاشارة اليها فى العصر الحجرى القديم الاوسط • وثالث هذه المواقع الحضارية هو كهف هوافتيح • وتعتبر الطبقات الاثرية فى هذا الموقع بمثابة سجل حى لتاريخ الانسان فى هذه المرحلة وماتلاها حتى العصر التاريخى فقد عثر على كميات كبيرة من الاسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطير •

ومن الممكن القول بوجود نوع من الصلات الحضارية بين هذا الموقع وبين جنوب غربى آسيا فى هذه المرحلة مما يؤيد ماسبقت الاشارة اليه بالنسبة للموقع السابق • ويمكن تاريخ هذه المرحلة بحوالى ٢٨٠٠٠ او ٢٩٠٠٠ ق٠م٠

اما فى المغرب فقد سادت هذه المرحلة الحضارة القفصية وتنقسم الى مرحلتين القفصية السفلى والقفصية العليا • وقد تعددت المواقع الاثرية الممثلة لهذه الحضارة وظهرت بصفة خاصة بعض المواقع المميزة لها والتى اطلق عليها العلماء الفرنسيون اسم وتسمى بالرماديات او الحلزونيات وهى التلال التى تجمعت فيها بقايا الطعام وبصفة خاصة القواقع بالاضافة الى الادوات

الحجرية التي كان يستخدمها الانسان .

وتتميز هذه الحضارة القفصية في صناعتها الى بالاسلحة والادوات ـ الميكروليثيـة والازاميل ، وقد انتشرت هذه الحضارة القفصية الصميمة في تونـس وشرقي الجزائر بصفة خاصة ، كما اتجهت ايضا نحو الشمال والشمال الغربـي والجنوب .

هذا وتؤرخ هذه الحضارة القفصية الصميمة بواسطة الكربون المشع ١٤ بحوالـي ٦٨٠٠ ق.م. .

ولم يقتصر هذا العصر الحضاري على الحضارة القفصية بل ظهرت حضـارة اخرى ساحلية تعرف بالحضارة الوهرانية نسبة الى موقع وهران ، كما اطلق عليهـا ايضا الحضارة الايبرو ـ موريه اى الممتدة من شبه جزيرة ايبريا حتى المغرب .

وتتميز هذه الحضارة الوهرانية بصناعتها الحجرية الخاصة حيث يلاحـظ ان النواة الحجرية التي استخدمها انسان هذه الحضارة كانت صغيرة ومسطحـة او مستطيلة او بيضاوية وتشبه لحد كبير صناعة موقع حجفة الطير السالفة الذكـر .
هذا ، وقد اختلف العلماء في تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية في سلـم التطور الحضاري في هذا العصر .

فهناك اتجاه لاعتبارها متأخرة نسبية من الناحية الزمنية اى انها تعاصر المرحلة الاخيرة من الحضارة القفصية • وهناك اتجاه ثان الى اعتبار اسبقيتها فى الصناعة النصلية على اساس ان بعض المواقع الاثرية فى نواحى الدار البيضاء تحوى خليطا من الاثار الوهرانية وعلى ذلك يتجه هذا الرأى الاخير الى اعتبار اولوية هذه الحضارة الوهرانية فى الصناعة النصلية فى المغرب •

وهناك اتجاه ثالث الى الاعتقاد بوجود صلات حضارية بين حضارة هوافتيح فى برقة والحضارة الوهرانية وهناك اتجاه رابع الى الاعتقاد بوجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الاسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية •
ويختلف العلماء فى هذا الاتجاه الاخير فبعضهم يعتبر الجانب الاوربى بمثابة مصدر هذه الحضارة وبعضهم الاخر يعتبر الجانب المغربى هو الذى اتجه فى انتشاره الحضارى نحو شبه جزيرة ايبيريا •

وقد تعرض لفيف من العلماء الى هذه الاتجاهات المختلفة فى تفسير التطورات الحضارية الهامة فى هذه المرحلة الاخيرة فى العصر الحجرى القديم •
وقد اقترح الاستاذ ماك برنى بعض الاراء الهامة فى هذا الصدد تتلخص فى اربع نقاط هامة :ـ

* اولها : من ١٠٠٠٠ ق٠م٠ بدأت الحضارة الوهرانية فى المغرب نتيجة

تأثيرات جرافيتية او هجرة من جنوب غربى اوربا ، كما ان حضارة حجفة النبع تعتبر معاصرة لها وربما كانت نتيجة هجرة من شرق البحر الابيض المتوسط .

وثانيها : من ١٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ ق.م. انتشرت حضارة حجفة النبع فى برقة واتجهت غربا الى جنوب شرقى الجزائر وتونس فى منطقة سادت فيها من قبل الحضارة الوهرانية ، كما امتدت تلك الحضارة الاخيرة الى الساحل المغربى .

وثالثا : ١٠٠٠٠ ـ ٩٠٠٠ ق.م. انتشرت الحضارة الوهرانية بحذاء الساحل المغربى حتى برقة وحلت محل حضارة حجفة النبع وربما وصلت الى مصر السفلى .

ورابعها : ٩٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ ق.م. سادت الحضارة التقصية العليا فى جنوب شرقى المغرب كما اتجهت شمالا واثرت فى الحضارة الوهرانية ، واتجهت شرقا حتى خليج سرته مما ادى الى ظهور الحضارة السرتية الميكروليثية " .

وتعتبر اقتراحات الاستاذ ماك السالفة الذكر فى محاولة ايجاد تفسير لمدى ارتباط حضارات هذه المرحلة فى غاية الاهمية ، ولكن هذه الاراء ليست نهائية لان الباحثين قد اختلفوا فى اصل الحضارة الوهرانية ومدى صلاتها الحضارية

بالشرق الادنى القديم •

ولكن هناك حقيقة ينبغي التنويه بها وهى اتساع المجال الحضارى للانسان في هذا العصر الحجرى القديم الاعلى فازدادت صلته الحضارية بكل من الشرق الادنى القديم وشبه جزيرة ايبيريا مما ساعد على تطوره السريع نحو النقلة الحضارية التالية وهى العصر الحجرى الحديث • ولم تقتصر جهود الانسان في هذه المرحلة الحضارية على المجالات المادية بل قد ازدادت قدراته الفكرية بصورة ملحوظة •

ويعتبر ذلك استكمالا للنواحى الفكرية التى سبقت الاشارة اليها في العصر الحجرى القديم الاوسط • ومن اهم الادلة الاثرية التي تثبت هذا النشاط المعنوى النقوش التى رسمها انسان هذه المرحلة معبرا عن افكاره • وكذلك بعض مظاهر النحت في مراحله الاولى كتعبير مادى لبعض افكاره في ذلك الوقت•

فقد عثر في موقع المكتا جنوب تونس على امثلة من هذه النقوش وكذلك الحجر الجيرى المشكل فى اشكال معينة ربما تمثل اقنعة انسانية او حيوانية واحيانا تمثل عضو التذكير ورموز اخرى • وكانت هذه الاشكال تمثل او تحمل بدليل وجود ثقوب فيها لهذا الغرض •

ومن الاهمية بمكان الاشارة الى ان الانسان فى هذه المرحلة كان لايزال يبحث عن الامان في حياته ومصيره لأنه كما سبقت الاشارة الى محاولته تخصيص مكان في

الموقع الاثرى كمركز له اعتباره فى مجال اعتقاداته ، فقد اتجه اعتقاده الى محاولة زيادة التقرب من هذه القوى الخفية المتحكمة فى حياته وحياة البيئة المحيطة بــه فبدأ يصور بعض مشاعره فى اشكال حيوانية او انسانية تعبر عن بعض مفاهيم الاولى كمحاولة منه للوصول الى الامان والاطمئنان ورضاء هذه القوى الخفية عنه ، وايضا التخلص من النواحى الشريرة من هذه النواحى الشريرة .

وهذا الاتجاه فى الاعتقاد قد استمر فى المراحل التالية اثناء العصر التاريخى ، فقد عثر فعلا فى بعض المواقع الاثرية القرطاجية التى تهدد حياته وهذه الامثلة الاولى من الاعتقاد سرعان ماتتطور وتتجسم بصورة اكثر وضوحا فى المراحل الحضارية التالية وبصفة خاصة فى العصر الحجرى الحديث .
ولم يقتصر هذا الجانب الفكرى على هذه النواحى بل لقد بدأ الانسان هذه المرحلة فى التعبير بالرسم عن افكاره واستخدام بعض النعام كزجاجات ماء زينها برسوم هندسية . كما بدأ من ناحية اخرى النقش على الصخر فقد حفر بعض الرسومات الحيوانية على الصخر .

والواقع ان هذه الرسومات لها وظيفتها التعبيرية ، وتعتبر مرحلة اساسية فى تطور التعبير الانسانى فى المراحل الحضارية الى ان يصل الى مرحلة التعبير بالكتابة فى بداية العصر التاريخى .

كل ذلك يبين تقدم الانسان فى هذه المرحلة الحضارية فى المجالات المادية والفكرية تقدما ملموسا يمهد لنقلته نحو " ثورة " انتاج الطعام والعصر الحجرى الحديث .

مرحلة العصر الحجري الحديث

مرحلة العصر الحجرى الحديث

تعتبر هذه المرحلة من اخطر المراحل الانسانية لانها تمثل نقلة هامة وحاسمة فى حياته وهى النقلة من الجمع والالتقاط والتجول وعدم الاستقرار الى الانتاج والاستقرار المادى والفكرى لاول مرة فى حياته . ولذلك يتجه العلماء الى اعتبار المرحلة السابقة مباشرة لهذا العنصر بمثابة " ثورة " او تغيير حاسم فى حياة الانسان .

ولا تقل هذه الثورة عن مراحل خطيرة اخرى مثل توصله الى استخدام القوة البخارية فى القرن الثامن عشر الميلادى وتوصله الى قوة الطاقة الذرية فى القرن العشرين الميلادى .

وقد ثبت من البحث والتحرى الدقيق لتراث الانسانية اولوية منطقة الشرق الادنى القديم وبصفة خاصة فى مصر والعراق وفلسطين فى التوصل الى مرحلة انتاج الطعام والزراعة والاستقرار لاول مرة فى تاريخ الانسان وذلك لاسباب كثيرة يعتبر العامل البيئى بظروفه الخاصة من اهمها . وقد عثر فى هذه المنطقة على المواقع الاثرية الدالة على انتاج الطعام مثل مرمدة بنى سلامة وقرى الفيوم أ وحلوان العمرى وديرتاسا فى مصر . ومواقع مولافات وتل جارمو وتل حسونة فى شمال العراق وجريكو (اريحا) فى فلسطين والعمق فى شمال سوريا وتل باكون وسيالك وغيرها فى الهضبة الايرانية . حيث تمكن الانسان فى كافة

هذه الاماكن من التوصل الى الزراعة وتخزين المحصول الزراعى وانشاء المنازل الخاصة بسكناه والطرق الموصلة اليها وكذلك المنازل الخاصة بموتاه اى المقابر . وكذلك المنازل الخاصة بالهته اى المعابد لاول مرة فى تاريخ الانسانية . فقد تطورت حياة الانسان تطورا حاسما فى المجالات المادية والفكرية نتيجة تحكمه فى البيئة وفهمه الصادق للمقومات البيئية وربط حياته بمختلف مجالاتها بهذه الظواهر البيئية التى خلقت لديه الوعى والادراك لتفهم الحياة الزراعية والتوصل الى صناعة الزراعة بدلا من اعتماده على الثمار البرية فى مرحلة جمع الطعام .

وقد اختلفت ظروف الانسان فى المغرب القديم اختلافا كبيرا عن ظروفه فى المشرق القديم وذلك لان البيئة المغربية بطبيعتها الجغرافية الخاصة قد وجهت الانسان المغربى القديم الى طابع آخر فى ميدان تطوره الحضارى . فبينما كان الطابع المميز للعصر الحجرى الحديث فى الشرق الادنى القديم هو الزراعة يجد الباحث ان الرعى هو الطابع المميز لهذه المرحلة فى المغرب بجانب بعض مظاهر الانتاج الزراعى المحدود . وذلك لان طبيعة الاقاليم المغربية تتفق فى ذلك الوقت مع حياة الرعى اكثر من اتفاقها مع حياة الزراعة المستقرة التى تتطلب جهودا شاقة فى التحكم فى القوى المائية لصالح حياة انتاج الطعام .

ولذلك يجد الباحث ان العصر الحجرى الحديث فى المغرب قد تأخر

من الناحية الزمنيــة عن نظيره فى الشرق الادنى القديم فبينما يبدأ فى المشرق فى حوالى منتصف الالف السادس ق٠م٠ فهو يبدأ فى المغرب حوالى منتصف الالف الخامس ق٠م٠ وبينما يستمر فى المشرق حتى منتصف الالف الرابع ق٠م٠ حيــث يبدأ عصر الحجر النحاس وما يليه من عصور ماقبل وقبيل الاسرات والعصر التاريخى نجد الباحثان العصر الحجرى الحديث يستمر فى المغرب حتى حوالى ١٢٠٠ ق٠م٠ ، بل يستمر فى بعض المناطق الداخلية حتى العصر الرومانى ٠

ويرجع ذلك الى الصعوبات البيئية الارضية والمائية التى تزيد من مجهـــود الانسان فى محاولة تحكمه فيها وتتطلب وقتا اكثر فى هذا الصدد ٠

وقبل الاحاطة بالتطورات الحضارية فى هذه المرحلة فى المغرب تنبغـــى الاشارة الى ان النقلة من مرحلة العصر الحجرى القديم الاعلى الى مرحلة العصــر الحجرى الحديث لم تكن فجائية بل تدريجية كما سبقت الاشارة الى مراحـــل الانتقال فى العصر الحجرى القديم باقسامه ٠
ولقد كان للتطورات الحضارية التقدمية فى العصر الحجرى القديــم الاعلى إثرهـا فى التمهيد نحو هذه النقلة ٠ وتنبغى الاشارة الى ان هذه النقلة فى الشرق الادنى القديم قد ظهرت فى الحضارة النطوفية نسبة الى وادى النطوف فى فلسطــين حيث عثر على المناجل التى يغلب استخدامها لقطع النباتات البرية ، ثـــم

تطورت وظيفتها الى استخدامها في قطع النباتات المزروعة .

ويلاحظ انه قد عثر في المغرب ايضا على بعض الاحجار التى كانت تستخدم لطحن المغرة فى العصر الحجرى تل القديم الاعلى .
مما يساعد على التطور نحو الانتقال الى مرحلة الاستقرار والوعى زالزراعة .
ويلاحظ ايضا فى آثار مرحلة الانتقال هذه استمرار استخدام الادوات الحجرية الخاصة بعصر جمع الطعام لا عمليات الصيد والالتقاط قد استمرت فترة من الزمن رغم بداية التوصل الى الاستقرار .

وقد قام العلماء بالبحث عن آثار العصر الحجرى الحديث فى المغرب وقد ثبت توصل الانسان فى هذه المنطقة الى الاستقرار والزراعة . ففى منطقة الجبل الاخضر فى برقة عثر فى موقع ... وا فتيح على آثار هذه المرحلة الحضارية مثل الاوانى الفخارية .

وتعتبر صناعة الفخار من اهم الادلة الاثرية التى تثبت توصل الانسان الى الاستقرار والزراعة والانتاج لان الانسان المستقر قد شعر بحاجة ماسة الى تخزين طعامه وشرابه ونجح فى التأقلم مع البيئة واستغلالها الى احد مدى فشكل من الطين اوانى مختلفة الاحجام لتحقيق وظائف التخزين وحفظ حاجياته المختلفة ولذلك صنع الفخار لاول مرة فى حياته فى العصر الحجرى الحديث .

وقد طبقت طريقة الكربون المشع ١٤ على آثار الطبقة الاخيرة فى موقع هوا فتيح وارخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الالف الخامس ق٠م٠

ويلاحظ الدارس وجود مؤثرات حضارية مصرية واضحة فى هذه الاثار الليبية فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم او بين فخار هذا الموقع وكذلك يظهر ذلك فى الصناعات الحجرية مثل رؤوس اسهام ولم يعثر على جذور سابقة لهذه الصناعات فى المواقع الليبية مما يؤكد حقيقة وجود هذه المؤثرات الحضارية المصرية ٠

وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد الى ان حضارة الفيوم أ تعتبر من اقدم مراحل العصر الحجرى الحديث فى مصر فهى ترجع الى منتصف الالف السادس ق٠م ٠ وهناك صلات حضارية بينها وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية مما يؤكد وجود خط سير اتصال حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الادنى وبصفة خاصة منطقة الفيوم فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الانسان ٠

وهناك اتجاه الى الاعتقاد ان البذور الاولى لحضارة الانسان فى مرحلة العصر الحديث فى شمال افريقيا بوجه عام ترجع فى الحقيقة الى جهود الانسان فى ذلك الوقت فى منطقة الصحراء الكبرى وهى منطقة فسيحة ممتدة من البحر الاحمر حتى

المحيط الاطلسى وكانت مسرحا فسيحا لتجول الانسان وتنقله بين الاودية والعيون والواحات والابار خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية .

وقد عثر الاثريون على عدد كبير من المواقع الاثرية فى اجزاء هذه المنطقة الصحراوية الضخمة وقامت فى هذا الصدد الاستاذة كاتون تومسون — بدراسات وابحاث وجمع للمادة الاثرية المنتمية لهذه المرحلة ، والتأكد من وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الاثرية . وقرب نهاية العصر الحجرى القديم الاعلى وبداية الانتقال للعصر الحجرى الحديث اى بعد ظهور مراحل الجفاف الاخيرة اضطر الانسان فى هذه المنطقة الصحراوية الى الرحيل نحو الاودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه ، واتجهت مجموعات من هذا الانسان نحو الشمال ، نحو برقة وتونس وبعضها اتجه نحو الشرق نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الادنى . وتمكن الانسان الذى انتقل الى المناطق الاخيرة من اسبقية التوصل الى انتاج الطعام واكتشاف الزراعة والتوصل الى الاستقرار وانشاء القرى .

وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية السالفة الذكر بين حضارة الفيوم أ وبين حضارة الانسان فى منطقة شرق ليبيا على اساس امكانية انتماء كلتا الحضارتين اصلا الى الجذور وتقاليد حضارية واحدة فى منطقة الصحراء الكبرى .

وفى منطقة الصميم عثر على عدد من المواقع الاثرية ذات الاثار المنتمية الى مرحلة العصر الحجرى الحديث •

ومن اهم آثار هذه المواقع الاوانى الفخارية التى عثر عليها فى مجموعة من مواقع الكهوف الساحلية وهى عبارة عن اوانى كروية الشكل وطويلة وبعضها يتميز بكونها ذات قاعدة مدببة وقد زينت بعض هذه الاوانى الفخارية بحزوز بجوار الفوهة واحيانا بخطوط تعبر عن احتمالية كونها تقلد الاوعية الجلدية او الاسبتة والسلال •

ويلاحظ ان بعض هذه الاوانى الفخارية لها ثقوب او بروز جانبى • ويغلب ارتباط ذلك بطريقة حملها •

مصر العليا	مصر السفلى	المغـــرب
حلوان العمرى	الفيوم أ	
دير تاسا	ومرمدة بنى سلامة	حضارات برته الحضارة القفصية

الفرع المصرى

الفرع المغربى

اصل مشترك فى المنطقة الصحراوية

وهذه الصناعة الفخارية تعتبر من اهم الادلة الاثرية المتممة لهذه المرحلة المستقرة • فقد شعر الانسان بحاجته الماسة الى تخزين طعامه ، وشرابه واستخدام الاوانى الفخارية لكافة اغراض حياته المستقرة ، وقد دفعه هذا الاستقرار الناتج من توصله الى الزراعة والرعى الى استغلال البيئة المحلية ووضع الاوانى الفخارية كدعامة اساسية لهذه الحياة الجديدة • وقد عثر ايضا على الاجران ومدقاتها وهى ادلة اثرية هامة تتصل بحياة الاستقرار •

هذا بالاضافة الى استمراره فى استخدام الاسلحة الميكروليثية ورؤوس السهام وقد بدأ يتجه الى بعض النواحى الكمالية بعد استقراره الجديد فاستخدم بعض ادوات الزينة المصنوعة من التواقى والخرز وغير ذلك •

ويحاول العلماء البحث عن اصحاب هذا الاقتصاد الجديد فى حياة الانسان فى المغرب • هل توصل الانسان المغربى القديم الى حياة الاستقرار كتطور طبيعى ومحلى لحضارة انسان العصر الحجرى القديم الاعلى ام ان هذا الاتجاه الجديد قد جاء نتيجة مجىء عناصر بشرية جديدة حاملة اليه هذه الحضارة الجديدة يصعب على الباحث التوصل الى حل نهائى فى هذا الموضوع الهام ويغلب ان جانبى التطور المحلى والهجرة الجديدة قد تداخلا فى كيان التطور الاقتصادى والحضارى فى هذه المناطق اثناء مرحلة العصر الحجرى الحديث التى

انتشرت فى منطقة الجبل الاخضر فى الالف الخامس ق٠م٠ وفى صميم المغرب حوالى منتصف الالف الرابع ق٠م٠ واستمرت حتى النصف الثانى من الالف الثانى وقد سبقت الاشارة الى امكانية وجود جذور اصلية لحضارة الانسان فى هذه المرحلة فى منطقة الصحراء الكبرى فقد اتجهت بعض عناصر بشرية نتيجة لجفاف هذه المنطقة نحو المغرب ٠ وسرعان ما تداخلت مع العناصر المحلية مكونة هذا الاتجاه الاقتصادى والحضارى الجديد ٠

وهناك ناحية هامة اخرى وهى ان العنصر البشرى المغربى القديم الذى واجهه الرحالة والكتاب الاول الفينيقيون واليونانيون كان البربر وان العناصر المسماه بالبربرية تمتد فى تحركاتها عبر الصحراء الكبرى من الشرق الى الغرب ويغلب عليها الانتماء الى عائلة اللغات الحامية المختلطة احيانا بعائلة اللغات السامية ٠ وترجع اصلا الى منطقة عمان واليمن والصومال وشرقى افريقيا ثم تحركت غربا وشمالا الى السودان الشمالى والنوبة ومنها الى الصحراء الغربية الفسيحة تحمل معها تقاليدها الحضارية ولهجاتها وفنونها المختلفة ٠

ويصعب على الباحث تحديد الفترة الزمنية التى تحركت فيها هذه العناصر البشرية من الشرق الى الغرب ولكن مما لا جدال فيه وجودها فى المغرب فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ٠

ولا شك ان تحركات البربر قد ساعدت ايضا على دعم الصلات الحضارية بين مختلف المواقع الاثرية في هذه المرحلة لحد كبير •

وتنبغي الاشارة الى اهمية هذا العنصر في تكوين جانب هام من الجوانب البشرية في الحضارات المصرية القديمة والليبية والمغربية • ولايقتصر ذلك على الجانب الحضاري بل يتضمن الجانب اللغوي • ولا تزال بعض القبائل البربرية والتي تعربت تقطن في الصحراء الكبرى وبصفة خاصة في الجزائر والمغرب • ويسمى البربر انفسهم الامازيغ اي الاحرار •

وقد اتجه الانسان في مرحلة العصر الحجري الحديث في المغرب الى زيادة التعبير عن افكاره بعد ان توفر لديه الوقت والقدرة الفكرية ودقة الملاحظة فقام بعمل نقوش كثيرة على بعض النعام وعلى صخور الهضاب والجبال بين نماذج من كهف الاحمر في نواحي تبسه ويلاحظ بعض النقوش عليه •• تعبر عن بعض مفاهيمه الاقتصادية والدينية • وتعتبر هذه الرسوم خطوة هامة في تطور قدرات الانسان التعبيرية سرعان ماتتطور الى ان تشمل التعبير بالرموز والكتابة قبل بداية العصر التاريخي •

وتعتبر النقوش مصدرا رئيسيا في التعرف على تفكير الانسان في هذه المرحلة ويصعب على الباحث تاريخ هذه النقوش بدقة ولكن العثور على آثار الانسان

بجوارها يساعد على تحديد هذا التاريخ • وتنتمى غالبية هذه النقوش الى مرحلة العصر الحجرى الحديث بوجه عام •

اما عن موضوعها فيغلب عليها الرسوم الحيوانية ، بالاضافة الى رموز يصعب على الباحث تفسيرها • ولكن لاشك ان لها مفاهيمها الخاصة لدى هذا الانسان فى المغرب القديم • وهناك امكانية وجود غاية سحرية فى هذه الرسوم على اساس تصور الانسان واظهاره تحكمه فيها ليحل فى طياته معنى تجسيم هذه الفكرة فى الواقع ••• فالانسان رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة اثناء العصر الحجرى القديم فهو لايزال يبحث عن الامان والاطمئنان والانتصار على القوى العديدة الضارة بحياته ومستقبله •

وهناك بعض الرسوم التى تسترعى انتباه الباحث مثل رسوم الكباش التى تحمل فوق رؤسها رموزا بيضاوية الشكل والتى فى بعض الاحيان يوجد امامها رجل يتميز بوجود خصلة شعر جانبية فى رأسه كما يرتدى قميصا وحزاما عريضا • وهناك امكانية وجود وجه شبه بين هذه الكباش والكبش المصرى فى العصر الفرعونى والذى يحمل على رأسه رمز الشمس ويمثل الاله امون رع فى الدين المصرى القديم وقد عثر على هذه الرسوم جنوب وهران وفى برقة •

ومما يلفت النظر ايضا ان موضوع خصلة الشعر الجانبية التى تميز الانسان السالف الذكر قد ذكرتها النصوص المصرية القديمة كعلامة تميز بعض الكهنة

المصريين • وقد جاء ذلك بصفة خاصة فى نصوص التوابيت فى الدولة الوسطى وهناك رسوم اخرى تمثل بعض الشخصيات التى تشبه لحد كبير الاله المصرى بس • هذا بالاضافة الى رسم رجل آخر قد ترك ذقنه بشكل يذكر الباحث بطريقة رسم الاله اوزير المصرى •

وقد عثر على هذه الرسوم جنوب طرابلس •

وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة الممتدة من حوالى منتصف الالف الثالث حتى حوالى منتصف الالف الاول قبل الميلاد •

ومن الواضح ان هذه الفترة تقابل فترات هامة فى صميم العصر التاريخى فى مصر القديمة مما يؤكد ان هذه الرسوم قد تعبر عن افكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة • ويعتبر ذلك استمرارا للصلات المصرية بين المغرب ومصر القديمة •

وهناك رأى آخر يميل الى الاعتقاد بأن هذه الرسوم قد جاءت من غربى اوربا واسبانيا او هى تطور من الحضارة القفصية المحلية • ولكن هذا الرأى يصعب الاستناد عليه اذا قورن بالادلة الاثرية السالفة الذكر •

وبينما يجد الباحث ان مرحلة العصر الحجرى الحديث فى الشرق الادنى

القديـــم قد تبعها عصر الحجر والنحاس وعصور ماقبل وقبيل الاسرات مما مهد لبداية العصر التاريخى ، فانه لايبدو مايناظر ذلك فى المغرب القديم • فقـــد استمرت مرحلة العصر الحجرى الحديث وبدأ العصر التاريخى بعدهــــــا حوالى ١٢٠٠ ق٠م٠

انظر الجدول التقويمى المرفق •• ولكن هناك بعض الادلة غير القوية التى من الجائز الاستناد عليها فى امكانية القول بتوصل الانسان الى استعمال النحاس فى المغرب اثناء العصر الحجرى الحديث وذلك اعتمادا على وجود بعض رســوم لخناجر يغلب كونها نحاسية ، كذلك العثور على آثار نحاسية فعلا ولكن فى مرحلة زمنية تالية • والواقع ان العامل البيئى كما سبقت الاشارة كان من اهـــم الدوافع الرئيسية فى تشكيل حضارة الانسان فى المغرب القديم وا الـة فترات ـ صراعه مع الطبيعة الى ان جاءت الى المغرب عناصر بشرية جديدة سامية الاصـــل عن طريق البحر ورست بسفنها على الشواطىء المغربية المطلة على البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلســى وبدأت عملية نقلة حضارية حاسمة لمجتمع العصر الحجرى الحديث فى المغرب الى مجتمع العصر التاريخى وكان ذلك على ايدى الفينيقيين •

جدول تقويمي مقارن لحضارات مصر والمغرب في

العصر الحجرى الحديث والحجر والنحاس وماقبل

الاسرات ، وبداية العصر التاريخي

الزمن	العصر	مصر	المغرب
٥٥٠٠ ق م .	الحجرى الحديث	الفيوم أ مرمدة بني سلامة حلوان العمرى دير تاسا	حضارات بسرقة والقفصية
٤٥٠٠	الحجر والنحاس	البداري	امكانية استخدام النحاس
٤٠٠٠	ماقبل الاسرات	جرزة والعمرة ونقاده الاولى " الاخيرة " الثانية	
٣٠٠٠	العصر التاريخي	العصر الثيني والدولة القديمة وعصر الانتقال الاول والدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني والدولة الحديثة	العصر الفينيقي

بداية العصر التاريخي القديم

مصر بلد فريد فى تاريخه فهو يمثل اطول مرحلة تاريخية عرفها الانسان وتمثل وحدة موضوعية لحد كبير لان الانسان المصرى القديم كان يؤمن خلال هذه الفترة بالقيم والمبادئ التى صنعها ابتداء من العصر الحجرى الحديث وخلال العصر الفرعونى بل حتى اثناء العصرين البطلمى والرومانى •

وقد سبقت الاشارة الى المقومات الطبيعية الجغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية والانسانية التى ادت دورها فى تشكيل الحياة الانسانية فى مصر واوحت اليه بطريق مباشر او غير مباشر الى صنع الحضارة المصرية القديمة ذات السمات والخصائص التى تميزت بها والتى استمرت خلال العصر الفرعونى •

وازدادت تجربة الانسان المصرى الحياتية مع هذه المقومات الطبيعية والتطورات الحضارية التى مرت خلالها تلك التجارب خلال عصور ماقبل الاسرات ووصلت الى قمتها قرب نهاية تلك العصور اى قبيل نهاية العصر التاريخى بفترة وجيزة حيث اكتملت المقومات الاساسية لحياة الانسان المصرى القديم وبدأ يشعر بضرورة وجود بعض الكماليات التى تكمل احتياجاته • فمن الناحية الاقتصادية وصل الانسان المصرى ماقبل الاسرات الى الاستقرار الاقتصادى بمعنى ان توفر لديه كميات من الفائض من الانتاج الزراعى مما تطلب التسويق الداخلى والخارجى وذلك بعد القيام بعمليات اساسيه فى تخزين المياه وتنظيم مشروعات الرى التى تتضح فى بعض التعبيرات الفنية على الاثار المصرية •

ومن الناحية السياسية اكتمل التنظيم الادارى الداخلى لحد كبير ووصل النمو

الادارى الى درجة قيام وحدة ادارية وسياسية بين المقاطعات المصرية ممـــا مهد الى نشأة مملكتى الجنوب والشمال خلال عصور ماقبل الاسرات الاخيرة • ومـــن الناحية الصناعية توفر الانتاج الصناعى فى كافة المجالات فازدهرت صناعة الفخــار والادوات النحاسية والخشبية والزجاجية وقد عثر على نماذج متعددة منها خمس آثار مجتمعات ماقبل الاسرات وتشهد بنهضة صناعية كبيرة فى هذا المجال وعلى العكس يمكن للمؤرخ القول ان الحضارة المصرية القديمة قد وصلت الى شكلهـــا الاساسى سواء فى المجالات الاقتصادية او الدينية او السياسية خلال عصور ماقبل الاسرات وشعر المجتمع المصرى القديم بحاجة ماسة الى اختراع وسيلة جديدة مـــن وسائل التعبير والاتصال بين الافراد والجماعات بتيسير عليه مهمة تحقيق المزيـــد من مراحل التطور الحضارى والسياسى وبدأ ذلك خلال عصور ماقبل الاسرات القديمة عندما استخدم بعض الالوان المادية والمعنوية فى شكل صورة وذلك على بعـــض اللوحات الاردوازية او العاجية التى استخدمها كتخليد لعدد من المناسبـــات السياسية (الدينية او الاقتصادية) • وأيضا على بعض الاوانى الفخارية ويعتبـــر ذلك فى واقع الامر تمهيدا لمرحلة اختراع الكتابة الهيروغليفية •

والواقع ان الاسباب الحقيقية لاختراع الكتابة الهيروغليفية كانت اسباب اقتصادية فى المقام الاول من اجل تسجيل المبيعات والمشتروات والمعاملات التجارية من حيث الحصر والصادر والوارد وغير ذلك مما تتطلبه المعاملات الاقتصادية •

بالاضافة الى ذلك ، كان الواقع الديني للتعبير عن القوة الالهية التي تقوم بحماية المجتمع المصري على مستوى المدن والمقاطعات وايضا الدولة في حاجة ماسة لتقريب المفاهيم الدينية الى كافة افراد الشعب عن طريق بعض الرموز الصورية التي تشكل في هيئة صور او تنقش على بعض الآثار والتي تكون قريبة من الانسان ويستطيع بواسطتها ان يزداد ايمانه بتلك القوى الالهية .

وقد نجح الانسان المصري القديم في ابتكار هذه الاضافة الحضارية الهامة وهي اختراع الكتابة الهيروغليفية قرب نهاية عصور ماقبل الاسرات كما يتجلى في بعض المنقوشات الكائنة على بعض الادوات الفخارية الخشبية الى تلك المرحلة وايضا اللوحات الحجرية والعاجية وغيرها التي عثر عليها في تلك الفترة .

وقد اتجه بعض العلماء بصفة خاصة هنري فرانكفورت في مؤلفاته الى القول بأن فترة الكتابة الهيروغليفية القديمة مقتبسة من الكتابة المسمارية السومرية ولكن الواقع ان هذا الرأي لايتفق مع الحقيقة بأى حال من الاحوال فالحضارة المصرية القديمة بكافة مقوماتها الفكرية والمادية نابعة من البيئة المصرية بمعنى ان الكلمة وان حقيقة ذلك تتضح في شكل الرموز الهيروغليفية المصرية فهي تعبر بصورة صادقة عن كافة الانشطة المصرية في كافة المجالات ..

الصورية تحمل نمطا معبرا عن المجتمع السومرى وليس هناك وجه شبه بين الهيروغليفية المصرية والمسمارية السومرية .

وبذلك الاختراع الخطير الذى يعتبر بمثابة ثورة فى تاريخ الانسانية لاتقل اطلاقا عن ثورة انتاج الطعام واكتشاف الزراعة خلال الالف السادس قبل الميلاد . فعمليـة اختراع الكتابة انقلاب كبير غير المفاهيم كلية ونقلها الى مرحلة تاريخية جديدة تتسم بالدقة والالتزام وذلك عن طريق التسجيل والتدوين لكافة الانشطة التى اتجـــه الانسان الى استخدام اللغة المكتوبة فى التعبير عنها .. ولذلك فالعصر التاريخى قد بدأ فعلا فى مصر عبر اختراع الكتابة الهيروغليفية وذلك حوالى ٣٠٠٠ سنة ق.م . بصورة حاسمة . والدليل على ذلك العثور على التنقيبات الاثرية التى تنتمى الـــى بداية الاسرة المصرية الاولى سواء فى مواقع الكوم الاحمر شمال ادفو بنقادة قرب قفط أو ابيدوس جنوب غرب سوهاج او سقارة غربى منف مايؤكد بداية استخدام الكتابـــة الهيروغليفية فى كافة السجلات الرسمية المتعلقة بالنشاط السياسى والاقتصـــادى والادارى وايضا فى الوثائق الخاصة للافراد . .

وهكذا بدأت الاسرة المصرية الاولى من عصر لاول مرة فى تاريخ الانسانية بقـــوة تعبيرية واضحة تؤكد السمة الوثائقية مسجلة حياة المصريين القدماء خــلال العصـر الفرعونـى . .

ويبدأ الباحث باعطاء صورة شاملة مركزة عن تاريخ مصر الفرعوني في صـــورة رسم بياني يمثل مراحل التكوين والنمو والازدهار السياسي والحضاري وايضا ـ مراحل الضعف في اضافة هذه الجوانب خلال حوالي ثلاثة آلاف سنة من تاريخ الانسان المصري في وادى النيل الادنى ٠

وعلى ذلك فيبدأ هذا الخط بمرحلة التكوين المصرى الاولى وهى المرحلـــــة المسماة بعصر فجر التاريخ كما تطلق عليه المدرسة الالمانية ٠ اما الامريكية فتطلق عليه عصر ماقبل الاسرات اى المكمل لما قبل الاسرات ٠ بينما المدرسة الانجليزيـة فتسميه بالعصر العتيق او المبكر بينما المدرسة الفرنسية فتسميه العصر الثينى ٠ نسبة الى قرية طينة فى جهة المنداقة ابيدوس ٠

والواقع ان هذه المرحلة بمثابة استكمال للتكوين السياسى والاقتصادى والحضارى لعصر الفرعونية وقد مهدت تلك المرحلة لبداية التطور الكامل والمستوى الرفيع فـى البنيان الحضارى والمادى والفكرى في التاريخ الممثل فى الدولة القديمـة ٠٠٠ المتضمنة للاسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ٠٠ تلك المرحلة التى تعتبر قمة عالية من قيم التاريخ المصرى القديم بل وتاريخ الانسانية جمعاء والتى لاتزال تشهد آثارها المعمارية وهى الاهرامات على عظمة تلك المرحلة فى كافة العلـوم الهندسية والفلكية بالاضافة الى الفكر الدينى الانسانى المتقدم ٠

ولكن هذه المرحلة سرعان ماسادتها قرب او آخرها في الاسرة السادسة مراحـــل

الضعف السياسي نتيجة لبعض الشخصيات التي لم تؤد المسئولية التي يحملها نظام الملكية الالهية بالصورة المثلى مما ادى الى تسرب العناصر السامية الامورية الى شرق الدلتا قرب اواخر الاسرة السادسة ومهد ذلك الى عصر الانتقال الاولى الذى يمثل التفكك وضعف سياسي شديد ولو انه من الناحية الاجتماعية يمثل نهضة فكرية متميزة ارتفع فيها مستوى الفرد فى المجتمع المصرى القديم الى مرتبة عالية من التقدير والاعتبار مما أدى الى نشأة الدولة الوسطى المتضمنة الاسرتين الحادية عشر والثانية عشرة •• ومن روائع التجمع بين القيم المصرية الكلاسيكية فى نظامى الملكية الالهية والخلود وايضا العدالة الاجتماعية • وقد استعادت سمعتها السياسية الداخلية ومركزها الدولى فى منطقة الشرق الادنى القديم خلال تلك الفترة بالاضافة الى نهضتها فى الادب المصرى واللغة المصرية القديمة والعمارة المصرية •• ولكن قرب اواخر الاسرة الثانية عشرعادت مصر مرة اخرى الى الضعف والانهيار المتمثل فى عصر الانتقال الثانى المستمر من الاسرات الثالثة عشر حتى السابعة عشر •

وقد تخللت هذه المرحلة تسللات العناصر الهندية الاوربية (الممتزجة بالعناصر السامية والمعروفة باسم الهكسوس • ولكن سرعان ماتمكنت مصر من خلال الدولة الجديدة من تحرير الوطن وبداية عصر جديد هو عصر الامبراطورية المصرية الاولى والثانية ولكن سرعان مابدأت تظهر مرحلة ضعف طويلة فى التاريخ المصرى عندما اتجه رجال الدين الى العمل بالشئون السياسية وذلك ابتداء من الاسرة الحادية والعشرين • ثم تسللت العناصر الليبية والنوبية واحتل الاشوريون مصر

خلال سبع سنوات خلال الاسرة الخامسة والعشرين ولكن سرعان ما استعادة مصر سيادتها الكلاسيكية خلال العصر الساوى ولكن غارت عليها جيوش قمبيز الفارسى الاكمينى واحتل مصر ابتداء من ٣٤٢ ق ٠ م ٠

وامتد الحكم الفارسى حتى الاسرة الثلاثين ولكن كانت هناك بعض المحاولات المصرية للتحرر النسبى خلال الاحتلال الفارسى ولكن خضعت مصر بعد ذلك للاحتلال اليونانى على يد الاسكندر المقدونى وبذلك انتهى العصر الفرعونى ٠

لكن الواقع ان الحضارة المصرية لم تتوقف بل استمرت خلال العصر البطلمى والرومانى لان الشعب المصرى القديم كان يؤمن بعبادته المصرية الصحيحة والتى بدأت تمتزج خلال ذلك الوقت ببعض المقومات اليونانية الطابع الى ان بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر بدخول العرب اليها ٠

عصـــــر فجـــر التاريخ او العصر العتيق

——————

(الاسرتان الاولـى والثانية فـى مصر)

قبل دراسة المعالم السياسية والحضارية للتاريخ المصرى خلال تلك الفـــترة ينبغى الاشارة ببعض مصادر التاريخ المصرى القديم التى يعتمد عليها العلماء والباحثين فى محاولة كتابة هذا التاريخ ٠

وتنقسم المصادر الى قسمين رئيسيين :

اولا : الوثائـــق :

وهى النصوص المصرية القديمة بالكتابة الهيروغليفية او الديموطيقيـــة او الهيراطيقية او القبطية بلهجاتها ٠٠ وقد دونت الوثائق على الحجر والطـــين والخشب والفخار والبردى ٠ وكان الانسان المصرى القديم مولعا بتسجيل كافـــة الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية كتابة على كل مايستطيع الكتابة عليـــه وتنبغى التفرقة فى هذا المصدر بين الوثائق الرسمية التى تصدرها الدولة حيـث يسطرها كتاب رسميون فى الدواوين الحكومية وبين الوثائق الخاصة او المذكـرات الشخصية التى يكتبها الافراد سواء فى مقابرهم الخاصة أو فى بردياتهم ومراسلاتهم وتنبغى الاشارة الى ان رجال الدين والكهنة وهم يمثلون طبقة المثقفين فـــــى المجتمع المصرى القديم كانوا يحتكرون هذه المهنة ويحفظون الوثائق المفهـــــوم

او الصفة الدينية مما يوحى بتصديق لدى عامة الشعب من غالبية الشعب المصرى القديم الذى يقدر تعداده بصفة تقريبية بحثه خلال العصر الفرعونى بصفة عامة حوالى سبعة مليون مواطن كانت غالبية تعمل فى مجال الحياة الزراعية •

ثانيا : الاثـــار :

وهى تجمع بين الاثار المعمارية سواء العمائر المدنية او الخاصة أى المساكن او القصور او العمائر الدينية سواء المعابد الالهية والجنزيـــة • أو المعابد الملحقة بالمقابر وايضا عمائر المقابر الرسمية والخاصه •• هذا بالاضافـــة الى نماذج النحت والنقش البارز الغائر • هذا بالاضافة الى الفنون الصغـــــرى كالتمائم والجعارين وبعض نماذج من الحلى كالاساور والقلائد والعقود •

ومن دراسة وفحص المادة التاريخية سواء الاجتماعية او الاقتصادية او الدينيـــة المتعلقة بالعالم الاخروى او الدنيوى يحاول المؤرخ الوصول الى الحقيقة قـــدر الاستطاعة لانه لاتزال هناك العديد من الفجوات السياسية والثغرات التاريخيـــة خلال التقويم الامنى الطويل والقصير بالنسبة لتاريخ الحكام والافراد • يتطلـــب ضرورة الحذر والحيطة التامة عند تاريخ كافة الاحداث • ولذلك فمنهج الدراســـة الموضوعية والمقارنة مطلوب للغاية فى توخى الحقيقة التاريخية •

وهذا بالاضافة الى كتابات المؤرخين الكلاسيكية مثل "هيرودوت" و استرابـــو"

والمؤرخين العرب وهذه مصادر هامة ولكنها تعتبر من الدرجة الثانية لانهـــا ليست اصيله ومعاصرة مثل المصادر السابقة .

وعلى سبيل المثال تجدر الاشارة الى بعض المصادر الاثرية واللغوية فى التاريخ الفرعونى والتى تحاول تحديد الفراعنة الاول خلال الاسرات المصرية وعلى رأسهـا حجر الديوريت الموجود فى متحف مدينة بالرمو بجزيرة صقلية والمعروف بحجر بالرمو : وقد اهتم العلماء بالنشور على هذه اللوحة الحجرية لانها تحوى تسجيل اسمـاء ملوك الاسرات الاول حتى الاسرة الخامسة وهى مرحلة لاتزال عملية البحث بـين العلماء جارية بشأنها .. ونظرا لكون حجر بالرمو غير متكامل وقد حاول العلمـاء استكماله عن طريق بعض قطع موجودة فى المتحف المصرى فى القاهرة والمتحـف البريطانى بلندن .

وهناك تشكك فى تكاملها تماما اذ ان الموضوع لايزال قيد البحث ومن امثلـة قوائم الملوك مثل قائمة الكرنك والتى ترجع الى عصر تحتمس الثالث وقائمة ابيـدوس الموجودة على احد جدران معبد سيتى الاول بأبيدوس والتى تتضمن الملـوك المصريين ابتداء من الاسرة الاولى حتى الملك سيتى الاول وهناك قائمة سقـارة الى عصر الملك رمسيس الثانى .. وكذلك هناك بردية هامة للغاية توجد فى متحف مدينة تورين فى شمال ايطاليا وهى بردية كاملة للملوك المصريين رغم انها للاسـف الشديد متقطعة اما المصدر الكلاسيكى الذى اتجه العلماء المحدثين الى تطبيقـه

هو ماكتبه الكاهن المصرى مانيتو فى عصر الملك بطليموس الثانى من التاريخ المصرى القديم والذى قام بتقسيم التاريخ المصرى الى الاسرات المصرية الحاكمة التى تحمل الارقام من الاولى الى الثلاثين •

اما بالنسبة للتاريخ المصرى فى عهد الاسرة الاولى والثانية فكما سبقت الاشارة ان هذا التاريخ تمثل مرحلة سياسية وحضارية مكملة لمراحل عصور ماقبل الاسرات ولكنها تتميز بالاستقرار السياسي بمعنى الكلمة وخاصة بعد ان تمكن الملك " نعرمر " من تحقيق هذا الاستقرار بانشاء الدولة المتحدة فى مصر وهى اول دولة متحدة فى تاريخ العالم ويعتمد المؤرخ فى ذلك على بردية الملك نعرمر الشهيرة والتى عثر عليها فى موقع الكوم الاحمر والتى تبرز على وجهيها مظاهر هذه الوحدة التى قام بها الملك نعرمر حيث تحقق له الانتصار على مملكة الشمال وتمكن من توحيد مصر لاول مرة فى التاريخ •

وقد اختلف العلماء اختلافا كبيرا فيما يتصل بشخصية " نعرمر " ومدى علاقته بشخصيات اخرى هامة مثل شخصية الملك " حورعحا " والملك " منى " التى وردت فى الوثائق المصرية •

والرأى الذى يتجه اليه الباحث فى هذا الصدد هو ان الشخصيات الثلاثة يغلب انها تمثل شخصية مصرية واحدة تحققت على يديها هذه الخطوة السياسية

الهامة وفى الوحدة بين الجنوب والشمال ويغلب ان هذه الاسماء الثلاثة لشخصية ملكية واحدة حيث ان الملك المصرى كان يحمل خمسة مستقلة متكاملة ولكن هــذا الرأى لايتفق معه بعض الباحثين الذين يعتبرون لكل ملك منهم شخصيته الذاتيـة ولايزال البحث قائما بين العلماء فى هذا الصدد .

اما ملوك الاسرتين الاولى والثانية فمنهم الملك جر و جت و د ن (ادبــــو) وسمرخت وقع وبرايب شن و خع سخموى " .

وقد عثر على آثار ملوك الاسرتين الاولى والثانية فى عدد كبير من المواقع الاثرية المصرية وعلى رأسها سقارة وهى جبانة العاصمة المصرية الاولى منف وابيدوس وبصفة خاصة موقع ام الجعاب حيث مقابر ملوك الاسرتين الاولى والثانية ونقادة حيث مقابـر الملكة نيت حتب وايضا الكوم الاحمر عند ادفو وكذلك حيث المقابر الخاصة بالاسرتين الاولـــى والثانيـــة .

وكانت المهمة الاولى لملوك ذاتين الاسرتين مهمة تأمين مصر فى المجال السياسى والدفاعى ضد التسللات البشرية السورية الحامية التى كانت تتسلل الى وادى النيل من شبه جزيرة سيناء وايضا من الصحراء وايضا صحراء النوبة ... ولذلك سجل ملوك الاسرات الاولى والثانية محاولتها فى تلك التسللات وتأمين مصر دفاعيا وذلك عـــن طريق اقامة بعض القلاع والاسر لحملات التأديبية شبه السنوية التى تؤمن حــــدود

مصر الشمالية والشرقية والغرب الجنوبية اما الواجب الثاني الرئيسي في اعمــــال اولئك الملوك كما يتضح من آثارهم مصر في المجال الاقتصادي وقد يتطلب ذلك اقامة العديد من مشاريع الري كحفر الترع اللازمة لتحقيق المشروعات الزراعية وايضــا القيام بارسال بعثات الى الصحراء الشرقية وصحراء النوبة وشبه جزيرة سيناء بصفــة خاصة في وادي حفارة لاستخراج الخامات المعدنية (كالنحاس والذهب وغيرهـــا في مناجم تلك المناطــــق . "

ومن الاهمية الاشارة الى ان مصر في تلك الفترات قد رأت نوعا من التنظيـــم الاداري المحكم في الوطن حيث انشئت دواوين خاصة بتنظيم الضرائب على سبيـــل المثال وهناك اشارة في بعض النصوص الى وجود تعداد للماشية في تلك الفترة المبكرة حتى يمكن حصر الثروة الحيوانية وما يتبع ذلك من ضرائب للدولة . وهذا بالاضافـــة الى التنظيم الاداري لمصر من خلال عدد من الاقاليم او المقاطعات لكل منها ـ عاصمته السياسية والدينية والهه الخاص .

هذا بالاضافة الى الوزير وحكام الاقاليم والقضاء وقواد الجيش .

اما النشاط الديني خلال الاسرتين الاولى والثانية فقد كانت عبادة الاله حـــور وهو الاله الرئيسي الذي اتخذته الدولة المصرية الاولى انها لا تمثل الديانـــــة السائدة آنذاك ولكن ينافسه في تلك الصدارة الاله ستاذ والتي ذكرت الوثائـــق المصرية الاساطير الطويلة الدالة على الصراع بينهما حول السيادة الدينية في مصـــر

القديمة .

وقد ظهر ذلك خلال الاسرة الثانية عندما اتخذ الملك برايب من الاله ست الهـا للدولة بدلا من الاله حور ويعتبر ذلك تغيرا في الكيان الديني في مصر فـي تلك الفترة ...

والواقع ان الكهنة كانوا يتنافسون فيما بينهم لدى الفرعون في محاولة التقـريب اليه واحتلال المكانة الدينية الاولى في الدولة المصرية المتحدة .. وفي هـذا المجال استغل الكهنة القدرات الفنية لدى الفنانين في تصوير عدد من الالهـة في شكل تمائم تظهر فيها صورة الاله مصغرة ويستطيع ان يحملها الافراد بسهولـة وقد عثر فعلا على عدد من التمائم الصغيرة المصنوعة من عجينة القيشاني ذات الوان الفيروز والتي تتمثل تلك الالهة مثل الاله حور والاله مينى والالهة ايزيس ... والالـه اور .

اما من ناحية العمارة الدينية فقد تطورت المقابر المصرية تطورا ملموسا وبدأت تظهر الارضيات الجرانيتية التي تؤكد السر الابدى تحقيقا لسمة الابدية والخلـود في المبادئ المصرية القديمة ومن الاهمية الاشارة في هذا الصدد الى ان الانسان المصري القديم كان يؤمن ابتداء من مجتمع ادارى في عصر الحجر والنحاس حوالـي الالف الخامسة قبل الميلاد بانتظاره الكونية في سمة الخلود لاتقتصر فقط علـى الانسان . بل تتضمن ايضا كافة المخلوقات الاخرى كالحيوانات والطيور وغيرها ..

وقد عثر فيه على بيانات خاصة ... الديوانات ابتداء من عصر البداري وخلال العصر الفرعوني .

وقد دفنت مع الحيوانات بعض الاواني تأكيدا لما تحتاج اليه من طعام وشراب ـ ومن الاثار الدينية الهامة في هذا العصر العثور على عدد من اللوحات الجنازية في صحبة كل متوفي وتحمل هذه اللوحات القابه رابين التي يقدمها للالهة ....

هذا بالاضافة الى نظام الملكية الالهية الذى بدأ يستقر بمعنى الكلمة من خلال تلك الفترة حيث حمل الفراعنة الالقاب الدالة على ذلك كما ظهرت ايضا القاب اخرى مثل ملك الشمال والجنوب (نسوبيت) والاعياد الدينية الكثيرة وعلى رأسها عيد (الحب سد) وهو عيد تجديد الحياة .

ومن الناحية الحضارية ازدهرت الحضارة المصرية خلال هذا العصر وتؤكد الاثار التى عثر عليها في مقابر الملوك والافراد في تلك الفترة على العديد من الصناعات الحجرية والنحاسية والعاجية والصدفية وكذلك صناعات النسيج والكتان والصوف .. هذا بالاضافة الى العثور على العديد من الاطعمة المصرية المحفوظة مع المتوفي في منزله الابدى كاللحوم والجعة والاسماك والحمام المحشو والذى تميز تقاليد فنية عريقة في القدم ولا تزال هذه الاثار كائنة في المناطق المصرية هذا بالاضافة الى النماذج الفنية المتقنة لمريا والامشاط والاساور والعقود بل وكافة نماذج الحلى المصرية الرائعة .

ويسجل كل هذا مستوى حضارى رفيع للغاية فى تلك المرحلة المبكرة والـــتى استغرقت حوالى اربعمائة سنة مما مهد الى بداية النهضة الحضارية التى وصلت الى قمتها خلال عصر بناة الاهرام وذلك فى الاسرات الثالثة والرابعة والخامســة والسادسة وهو عصر الدولة القديمــة ٠

تتضمن مرحلة المملكة القديمة الاسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة وتشمل عصور حكم عدد من الملوك المصريين العظام مثل الملك " زوسر " والملك " سنفرو " و " خوفو " وخفرع ومنكاورع وساحورع ونفرير كارع وببى وسنى واوناس وببى الثانى وغيرهم ٠

ويعرف هذا العصر بعصر بناة الاهرام لانه المرحلة التى تميزت بالاثار الهرمية الشكل والمنتشرة ابتداء من موقع ابوروا حتى ميدوم والمتضمنة لاهرامات الجيزة وزاوية الريان وابو صير وسقارة ودهشور وميدوم ٠٠ ومن المعروف ان الهرم فى حد ذاته يعتبر معجزة معمارية خالدة من حيث التصميم والبناء الهندسى الدقيق والحجم الضخم والذى لايزال صامدا حتى الان ٠

ويتساءل المؤرخ ماهى الاسباب التى ادت الى هذا النتاج المعمارى الضخم فى تلك الفترة ٠٠ والواقع ان عدد من الباحثين حاول الاعتماد على الرد التقليدى والذى ظهر فى كتابات الرحالة اليونانيين والقائل بان هذا الاعجاز المعمارى الضخم قد نتج نتيجة الاجبار والسخرة وفرصة العمل الشاق على الفلاحين المصريين الابرياء بالقوة وبالسياط ٠ ولكن هذا الرأى بعيد كل البعد عن الحقيقة ٠

والواقع ان عصر الدولة القديمة يعتبر عصر المثالية المطلقة فى الايمان بالقيم والمبادئ المصرية القديمة وعلى رأسها مبدأ الملكية الالهية وعقيدة الخلود ٠٠٠

والواقع ان خذين المبدأين لم ينبعا من فراغ وانما آمن بهما الانسان المصرى القديم بل انفرد بهما بالمقارنة بالحضارات الانسانية في الهند والصين وسومر واليونان والرومان والتى لم تؤمن بهما ويرجع ذلك الى انه صنع هذا المبادئ عقليا ووجدانيا بوحى من بيئته المصرية المنتظمة التى يلمح فيها القاطن على شاطئ النيل صورة واقعية ومتكررة دورة الحياة والولادة والموت ثم دورة الحياة والولادة من جديد ثم يموت وهكذا الى مالا نهاية مما جعله يرتبط منذ العصر الحجرى الحديث بالنظام الكونية للظواهر الطبيعية •• وفى مستوى الفرعون الى مرتبة التالية على انه الممثل على الارض والوسيط بين المجتمع الانسانى والمجتمع الالهى على ان تتوفر فيه القدرة على ضمان الخير والرفاهية والنصر والامن الحياتى لكافة المجتمع المصرى •• لذلك امن بهذا النظام الانسان المصرى القديم على هذا الاساس • وعندما عجز الملك عن تحقيق الامن بكافة اشكاله الداخلية والخارجية ابتعد الانسان عن الملكية الالهية وبدأ يطالب بحقوق الانسانية فعصر الدولة القديمة اذن هو عصر المركزية المطلقة وتجسيم الملكية الالهية وعقيدة الخلود •

وقد تفان افراد الشعب المصرى القديم عن ايجاد طرق تحقيق هذه المثل العليا فى كافة المجالات وعلى رأسها فى مجال التعبير الفنى فى العمارة وفى النحت والنقش بكافة صوره •

ومن هنا جاء هذا الاعجاز الفنى فى عمارة الدولة القديمة •• والتى اطلق عليها فعصر عصر بناة الاهرام •

وتبدأ الدولة القديمة بالاسرة الثالثة ، وهى تعتبر بداية التأسيس الحقيقى للحضارة المصرية القديمة وتثبيت المبادئ بصورة واقعية .

فأول ثورة حضارية فى عصر الاسرة الثالثة هى التحول الكامل فى العمارة المصرية من المبانى الطينية الى المبانى الحجرية تأكيدا لسمة الخلود والابدية والصمود امام الزمن .. وتبع ذلك تدعيم الجهاز الادارى فى الدولة المصرية المتحدة بالعديد من الوظائف والاداريين المتميزين .

وكان على رأس الدولة منذ بدايتها شخصية ملكية قوية هو الملك زوسر او كما تطلق عليه النصوص المصرية جسر تخت ، وقد اختار لمعاونته شخصية قوية وشهيرة هى شخصية المهندس المصرى ايمحتب والذى عمل ايضا كوزير للملك زوسر بالاضافة الى تخصصاته العديدة والمتضمنة الطب والهندسة والفلسفة وقد وصل الاعجاب به حتى فى العصور المتأخرة من التاريخ الفرعونى وفى العصر اليونانى الرومانى الى درجة تقديسه وارتفاعه الى مرتبة التاليه (الالة اسكلبيوس) .

ومن المدهش لم يعثر على مقبرته حتى الان ولايزال البحث جاريا حتى الان بين البعثات الاثريه على مقبرته بجبانة سقارة .

ويمكن ملاحظة تعدد الوظائف فى التنظيم الادارى فى الاسرة الثالثة وكثرة الالقاب مما يدل على جوانب تفصيلية فى الادارة وزيادة عدد التخصصات والمسئوليات العامة ..

يلاحظ على سبيل المثال فى عصر النصوص ان هناك موظفا اعمل اشراف على

التيجان الملكية والاشارات على زينة الملك وغيرها .. على اساس انه يحمل السمة الالهية وتنبغى توفر هذه السمة امام افراد الشعب . بل ان المجموعة الجنازية للملك زوسر تنفرد بوجود مجموعة كبيرة من الشعائر الرمزية الخاصة بعيد "الحب سد" وهو عيد تجديد قوة وحيوية الملك مما يؤكد الاحساس بمحاولة تجسيم صفة الملكية الالهية لشخص الملك .

كما ان طقس الجرى او الهرولة بجوار هذه الشعائر اثباتا لقدرته ... وكانت علاقة الملك بامراء الاقاليم قويه ليس فقط انتمائهم العائلي الى الاسرة الحاكمة بل ايضا لولائهم الصادق للفرعون .

وقد تمكن الملك زوسر من تأمين مصر داخليا و خارجيا والدليل الاثرى على ذلك المثور على بعض نقوش تسجل انتصاراته العسكرية خاصة النقش الذى فى وادى مغارة فى شبه جزيرة سيناء الذى يؤكد انتصاره على العناصر السامية الامورية التى كانت تحاول التسلل الى الدلتا عبر سيناء .. كما ان امن حدود مصر الجنوبية وكانت ايضا مكانا لتسللات العناصر الحامية للنوبية تجاه وادى النيل الادنى .

واهم آثر للملك زوسر هو بناء مجموعة المبانى المجموعة الجنائزية الخاصة به فى سقارة والتى يتوسطها الهرم المدرج وهذه المجموعة تعتبر فى حد ذاته ايضا معجزة معمارية كبيرة لانها قد بنيت فى كافة اجزائها بالحجر الجيرى الناصع البياض والاملس بدرجة تلفت الانتباه حتى الان .

وهذه المجموعة فى واقع الامر تمثل عصر الملك فى العالم الآخر ويحيط بهذا القصر السور الضخم الهائل الذى لا يزال كانت فى حالة جيدة للغاية حتى الآن . والذى يبلغ طوله ٥٤٥ متر وعرضه ٢٧٧ متر وارتفاعه عشرة امتار ونصف ويتميز فى عمارته بظاهرة النتوءات (الدخلات والخرجات) أو فى تعبير آخر المشكاوات .. والواقع ان اصولها انما ترجع الى عصر حضارة العبيد السومرية فى جنوب العراق حيث عثر على اقدم عمائر لبنية تتضمن هذا الاسلوب المعمارى ولم يعثر فى المواقع المصرية على اصول هذا النمط المعمارى فى مصر مما دفع بعض العلماء الى الاقتصاد بأنه اثر من المؤثرات السومرية فى العمارة المصرية ولكن سرعان ما تأقلم مع الحضارة المصرية والعقيدة المصرية القديمة ويظهر ذلك التطور المصرى الصميم فى تحول النتوءات على الجانب الشرقى للمصطبة الى زوجين اثنين من النتوءات .

وهذا الموضوع لم يستقر فيه الرأى بصورة حاسمة بين العلماء .. ويتوسط المجموعة البنائية مبنى الهرم المدرج الذى يصل ارتفاعه الى ٦٠ مترا ويتكون من ست درجات وهو نموذج رائع لتطور العقيدة المصرية القديمة حيث كان البناء العلوى للمقبرة اساسا مصطبة أى طبقة واحدة ولكن عمانا لعدم وجود اية احتمال لتعدى اللصوص على منزل المتوفى ازدادت المصطبة الاولى حجما من الجانبين ثم ازدادت فى ثانية من احد الجانبين ثم ارتفعت بعد ذلك مصطبة ثانية بعدها ثم ارتفعت عمارة البناء العلوى الى هرم مدرج مكون من اربع درجات ثم بالزيادة الاخيرة يتحول الشكل البناء العلوى الى هرم مدرج مكون من ست درجات وهو الشكل الحالى .

اما بالنسبة للبناء السفلى للهرم المدرج ويتمثل فى حجرة دفن الملك فهو عبارة اساسا عن حفرة مربعة الشكل مساحتها ٨ متر مربعا ويهبط منها بئرا بعمق ٢٨ مترا تحت مستوى سطح الارض .

وفى نهاية هذا البئر بنيت حجرة من حجر الجرانيت هى حجرة دفن الملك زوسر والتى يؤدى اليها مدخل من الجهة الشمالية من الهرم حيث المعبد الجنازى وتتشعب منها بعض الممرات السفلية التى غطيت بعض جدرانها بالقيشانى وبصورة تمثل ستائر اسوة بما هو موجود ايضا بالقصر الملكى الدنيوى وايضا هناك نقش على جدار احد هذه الممرات يمثل الملك زوسر .

ومن الاهمية الاشارة مدخل المجموعة الجنازية لانه يمثل اعجازا معماريا هاما حيث يتواجد اربعون عمودا يتضح فى عمارتها الاصول الاولى للعمارة الاعمدة التى ترجع فى جذورها الى مجموعة من البوص المحزم من اعلى ومن اسفل . وقد اوضح المهندس المعمارى ذلك كما ان العمود فى حد ذاته ليزداد قطره فى الجزء السفلى عنه فى الجزء العلوى اسوة بالسيقان النباتية .

وقد خشى المهندس من عدم قيام العمود بوظيفته وهى حمل السقف يستند على حوائط حجرية ويعتبر هذا الابتكار المعمارى الاول من نوعه فى التاريخ الانسانى قبل عمارة الاعمدة الايونية والدورية واليونانية التى زعم البعض انها صاحبة الاولوية .

وهناك ايضا مقبرة جنوبية داخل المجموعة الجنازية خاصة . كما تطلب بعض الاراء

ببعض اجزاء من جسد الملك او ربما الاحشاء الداخلية •

وقد اختلف العلماء فيما يتعلق بتفسير وجود اكثر من مقبرة للملك وخاصة انـــه ثبت وجود مقبرة فى شكل مصطبة كبيرة للملك زوسر فى بيت خلاف فى شمال ابيد وس بمحافظة سوهاج •

ومشكلة الازدواجية فى المقابر والتى ستتضح فى عهد الملك سنفرو اول ملـــوك الاسرة الرابعة حيث ينتمى اليه اكثر من هرم ترجع الى عدة نظريات • فا بالنسبـــة للملك زوسر يغلب ان تقاليد عصور ماقبل الاسرات حيث كانت مملكة الشمال ومملكـــة الجنوب واعتزاز كل اقليم بتقاليده الخاصة اى السمة الاقليمية بمعنى اصح كانـــت لا تزال سائدة فى تلك الفترة فهم يريدون ان يكون فرعونهم بجوارهم فى منزلـــه الابدى فتكون مقبرته او ضريحه بجوارهم بينما مقبرته الرسمية فى جبانة العاصمـــة وهى سقارة •

ومن الاثار الهامة التى عثر عليها فى سراديب الهرم المدرج مجموعة ضخمـــة من الاوانى الحجرية المرمرية ذات الاحجام المختلفة والتى تعتبر نموذجا رائعـــا فى فن نحت وتشكيل الاوانى الحجرية وهذه الكميات الضخمة توضح بالدليل القاطع مدى ايمان الانسان المصرى القديم بالخلود • فهو يرغب فى ان تتوفر له ذلك فـــى

عالمه الاخر اكبر كمية من الاواني الفخارية او الاواني الحجرية او الطعام او الشراب وكافة احتياجاته الاساسية والكمالية •

وهكذا يمكن القول ان مصر في عصر الملك زوسر قد بدأت فعلا عهدا جديدا في تاريخ الحضارة المصرية قد اتجهت الى تثبيت اركان الدعائم الحضارية المادية والفكرية وكان لمعاونة الوزير الكاهن والمهندس والطبيب امنحتب اثره الكبير في دفع هذه الخطوات الحضارية من الناحية التنفيذية وقد تلاه في الحكم الملك سانخت الذى ترك اثره الخالد في هرمه المدرج جنوب غربي مجموعة الملك زوسر الجنزية كما بنى لنفسه ايضا مقبرة اخرى في بيت خلاف اسوة بالملك زوسر •

والواقع ان الملك سانخت قد سار على نمط الملك زوسر في تنفيذ منشآته المعمارية ولكن لم يصل الى المستوى المعماري الرفيع الذى تحقق في عصر الملك زوسر • وقد تلاه في الحكم الملك نفركا الذى ترك آثاره في موقع زاوية العريان جنوب الجيزة وشمال ابو صير •

وكما سبقت الاشارة الى ان الانتقال من اسرة الى اخرى يحدث عندما يأتي الحكم ملك ليست لديه القوة الكافية على حمل المسئولية بصورة قادرة وبذلك ينتهي احد الامراء او شخصية قويه في المجتمع آنذاك الفرصة ويبدأ أسرة جديدة من بطانة

(الاســــرة الرابعــــة)

تعتبر الاسرة الرابعة قمة عصر الدولة القديمة بل قمة عالية فى التاريخ الفرعونى باسره ولا تزال اثارها الخالدة تشهد بذلك على مر القرون الا وهى اهرامات الجيزة والواقع ان الاسرة الرابعة كانت الاسرة القوية الشامخة التى التزم فيها الفرعــــون التزاما دقيقا بالقيم المصرية القديمة وهى نظام الملكية الالهية وعقيدة الخلـــود واقتنع الانسان المصرى بهذه القيم اقتناعا مثاليا فى عهد هذه الاسرة والدليـــل الاثرى على ذلك هى النجاح الفائق والدقة المتناهية فى تنفيذ المشروعـــــات المعمارية الكبرى المتعلقة ببناء المقبرة الهرمية الشكل فى عهود كل من الملك خوفو والملك خع افرع والملك من كاورع بصفة خاصة وقد اقتنع الانسان المصرى ان الفرعون سوف يحقق له الامن والامان والطمأنينة فى الدنيا والاخرة ولذلك تقبل المصـــر الفرعونى حتى الاسرة الخامسة الا انه لم يكن الانسان المصرى متفانيا فى تطبيقـــه والتضحية من اجله مثلما حدث فى عهد الاسرة الرابعة •

ويمكن للمؤرخ القول ان نظام الملكية فى العهود التالية للاسرة الرابعة كـــان مجرد ايمان نظرى وليس له واقعية التقديس والايمان القلبى الذى تجسم فـــى عهد الاسرة الرابعة • ولذلك اقتصر فى العهود التالية على الالقاب الملكيـــة والالقاب الكهنوتية ••

ولم تكن له صفة الالوهية التى توفرت سلفا حتى أن بعض الملوك لم يتقيد بنظام الملكية الالهية حرفيا فى عهد الدولة الحديثة واتجه الى الزوجات الاجنبيات ، وغير ذلك من السمات غير المتجانسة مع مبدأ الملكية الالهية المصرية ، وكان ذلك من الاسباب التى ادت الى بداية الانهيار السياسى للفراعنة بصفة خاصة قرب نهاية الاسرة العشرين وبداية عصر الانتقال الثالث .

كما ايضا بدت (كانت) سببا فى انهيار نظام الملكية الالهية الحامية فى عصر الانتقال الاول ولذلك فالاسرة الرابعة هى قمة الالتزام الدقيق بنظام الملكية الالهية وايضا عقيدة الخلود لان الملك يحمل صفة الالهية كما تصورها الانسان المصرى القديم فى الدنيا والعالم الاخر . وليست هناك ادلة اثرية وشواهد عينية اقوى من الهرم الاكبر (هرم الملك خوفو) حيث يحيط به احاطة كاملة من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية مجموعات ضخمة من المصاطب الخاصة بالحاشية الملكية وكبار الوزراء وكبار موظفى الدولة لانهم كانوا يؤمنون بنظام الملكية المطلقة وان الفرعون سوف يحقق لهم الخير والرفاهية ليس فقط فى دنياهم بل ايضا فى اخرتهم ولذلك احاطوا به احاطة كاملة ، بل وفروا ايضا وسائل الانتقال التى تساعدهم فى اللحاق به فى رحلته اليومية فى موكب الاله الشمسى مع من الشرق الى الغروب. ووفروا فى اجهزتهم الجنزية العديد من المراكب الضخمة التى تحقق لهم وسيلة السير نظريا فى موكب الاله الشمسى كل يوم . بينما لايلمس المؤرخ هذه الصفة صفة الالتفاف حول الفرعون فى المراحل السياسية التالية بل يجد الحاشية وقد

بدأوا يستقلون فى اقاليمهم الى حد كبير وساعد ذلك على عدم تمكن الفرعون من تحقيق الامن الاقتصادى والسياسى الداخلى والخارجى بالصورة المثلى فـــى المراحل التالية :

فمصر فى عهد الملك خوفو كانت فى واقع الامر يسودها السلام والطمأنينـــة وتفرغت لاداء المشروع المعمارى الضخم وهو بناء الهرم وهو المقبرة الملكية • وعلى الرغم من ان النصوص والاثار الخاصة بشخصية الملك خوفو قليلة للغاية حتى الان فان وجود الهرم الاكبر ليعتبر شاهدا كافيا على مدى المركزية المطلقـــة والايمان بعقيدة الخلود •

والواقع ان الملك خوفو قد سبقه فى حكم مصر ملك عظيم آخر قد مهد فـــى حياته الطريق الى التطور المعمارى الكامل نحو الشكل الهرمى الا وهو المـــلك سنفرو اول ملوك الاسرة الرابعة وكان الملك سنفرو قد اتخذ موقع ميدوم شرقـــى الفيوم مكانا لهرمه الاول الذى اختلف العلماء فى صاحبه ولكن لا شك انه استكمـــل فى عهد الملك سنفرو وهرم ميدوم لايزال قائما على قاعدته المربعة والذى يعتبر تطورا معماريا من الهرم المدرج فى عهد الاسرة الثالثة نحو الهرم الكامل فـــى عهد سنفرو ويبدو ان الملك سنفرو كان متلهفا فى تتبع التطورات المعمارية فلـــم يكتف ببناء هذا الهرم (هرم ميدوم) بل انتقل شمالا الى دهشور حيث قـــام بتنفيذ مشروعين ضخمين اولهما الهرم الشمالى ثم الهرم الجنوبى وكان الهـــرم

الشمالى يعتبر خطوة سابقة للشكل الهرمى الكامل الا وهو الهرم المنكسر او الهرم المنحنى .

والذى مهد الى اول هرم كامل وينتمى الى عصر الملك سنفرو ايضا . وعلى ذلك يمكن القول ان الملك سنفرو قد بدأ ايضا مرحلة تطويرية هامة فى العمارة الهرمية الشكل سرعان ما تطورت الى الشكل الهرمى الكامل فى عصره والذى اتخذه الملك خوفو والملوك التالية من بعده .

وقد اختلف العلماء فيما يتصل بحقيقة الشكل الهرمى الكامل من حيث مدى ارتباطه بالعقيدة المصرية القديمة حيث يرجح البعض ان هذا الشكل فى حد ذاته هو ايضا شكل قمة المسلة المصرية والتى ترمز اساسا للاله الشمسى رع ولكن يغلب ان الشكل الهرمى المصرى جاء تطورا معماريا تدريجيا ابتداء من المصطبة الى الهرم المدرج الى الهرم المنكسر الى الهرم الكامل .

ويغلب ان التفسيرات الاخرى جاءت لاحقة وقام باداتها ابتداء من الكهنة وهى الطبقة التى كانت تحاول ابتداء من هذه الفترة التقريب من الفرعون وعن قريب

ا ا ر والتى كتبت بطريقة تجمع بين الحقيقة والخيال مما يجتذب افراد الشعب نحو الاقتناع بها وتظهر مفعولها الحاسم فى نشأة الاسرة الخامسة وهى الاسرة التى تبلورت نشأتها فى اسطورة سجلتها بردية وستكار الشهيرة ، كما سيتضح خلال الحديث عن الاسرة الخامسة •

وهناك حدثا هام اخر وهو يتعلق بزوجة الملك سنفرو وهى الملكة حتب حرس وهى ام الملك خوفو والتى يحتفظ المتحف المصرى فى القاهرة بمجموعتها الجنازية الرائعة فعلى الرغم من القيم المصرية القديمة التى وصلت الى قمتها فى تلك الفترة الا انه كان هناك فى المجتمع المصرى بعض الافراد الذين يراودهم جانب السوء اكثر من جانب الخير فقد اعتدى اللصوص فى عصر الملك سنفرو على مقبرة زوجته الملكة حتب حورس مما ادى الى الاضطرار نحو نقل جهازها الجنزى الى بئر سرى شرقى هرم خوفو فى الجيزة حيث عثر عليه فى صورة غير لائقة مما يؤكد عامل الرغبة فى سرقة انقاذه بأى وسيلة • والواقع ان هذه الظاهرة المرضية فى المجتمع المصرى القديم تتواجد فى كافة المجتمعات ويستحيل توافر المثالية المطلقة فى اية عصر •

وقد تعاقبت ظاهرة سرقة اللصوص للمنازل الابدية خلال العصر الفرعونى ليس فقط فى الدولة القديمة بل ايضا فى الدولة الحديثة وكذلك فى العصر اليونانى والرومانى والعربى •

وكان مقر حكم الملك سنفرو اول ملوك الاسرة الرابعة موقع ميدوم الذي يقع شرقي منطقة الفيوم شمال محافظة بني سويف على الضفة الغربية لنهر النيل ومن اهم الاثار المنتمية الى حكم الملك سنفرو رمه الخالد المعروف باسم الهرم الناقص في موقع ميدوم وقد اتجه المؤرخون الى اعتبار الملك حوني آخر ملوك الاسرة الثالثة صاحب هذا الهرم ولكن الواقع انه لم يستكمله الى النهاية وقام الملك سنفرو اول ملوك الاسرة الرابعة باستكمال هذا الهرم الذي يعتقد المهندسون المعماريون انه لم يكن هرما كاملا في شكله الهرمي وانما كان هرما مدرجا يتكون من ثماني درجات ويبدو ان المهندس المعماري الخاص بانشاء هذا الهرم لم يتمكن تماما من القدرة النهائية في عملية الانشاء هادفا الوصول الى الشكل الهرمي الكامل ويظهر ذلك بسبب انتقال الملك سنفرو الى موقع جديد جنوب سقارة وهو بدهشور حيث بنى هناك هرمين الهرم الشمالي والهرم الجنوبي الهرم الجنوبي يعرف باسم الهرم الناقص لانه لم يستكمل الشكل الهرمي الكامل بينما الهرم الثاني نجح المهندس والملك سنفرو في بناء اول هرم هرمي الشكل بمعنى الكلمة ويعتبر ذلك عملا هندسيا رائعا بالنسبة للاعمال الحربية والسياسية الخاصة بالملك سنفرو فهي اعمال تقليدية اتجه الى تحقيقها اسوة بحكام تلك المرحلة ومن رأس تلك الاعمال القيام بعمليات تأمين الحدود الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والجنوبية لمصر هذا التأمين العسكري حتى ينعم الشعب المصري بالاطمئنان بأمنه الداخلي وامنه الخارجي بمعنى الكلمة ومن الشخصيات الهامة في الاسرة الرابعة الملك خوفو وهو ابن الملك سنفرو

والهرم الاكبر يعتبر معجزة معمارية على مستوى العالم اجمع فعلا لان مساحته ضخمة للغاية كما ان ارتفاعه في ذلك الوقت يعتبر عملا انشائيا نادرا هذا بالاضافة الى ان كمية الكتل الحجرية الملساء من الحجر الجيرى التى استخدمت فى عملية البناء اكثر من ٢ مليون وثلاثمائة الف كتلة حجرية وقد بنى الهرم الاكبر على مساحة تزيد على مساحة اثنى عشر فدان وكان ارتفاعه فى الاساس يرتفع الى مستوى ١٤٦ مترا وكان وزن كل كتلة حجرية تقدر ب ٥ر٢ طن هذا بالاضافة الى الكتل التى تصل الى ثمانيه اطنان وقد اختلف العلماء فى مصدر هذه الكتل الحجرية وبعضهم يتجه الى انها كانت مقطوعة من المحاجر المحلية فى منطقة هضبة الجيزة ولكن الرأى التقليدى انها كانت فى محاجر طره جنوب شرقى القاهرة ثم تقطع بعد ذلك ثم تحمل بواسطة السفن ثم تصعد الى مستوى هضبة الجيزة على زحافات تجرها الطاقات البشرية والحيوانية وهذه عملية شاقة ولكن الانسان المصرى القديم كان يتحمل المشاق البدنية فى سبيل تحقيق الهدف الاسمى وهو بناء المنزل الابدى للملك الاله الذى سوف يوفر له الطمأنينة والسعادة فى العالم الاخر بل ايضا فى عالمه الدنيوى .

فسعادة الانسان المصرى فى ذلك الوقت ترتبط ارتباطا وثيقا بما يوفره من الطعام له من الطمأنينة والامن الكامل ومن الاهمية الاشارة ان عملية قطع الكتل الحجرية كانت تنفذ بدقة متناهية وكان الحجر املس بمعنى الكلمة فلا توجد اى سنيهات او تعرجات على سطحه بحيث عندما توضع الكتلة الحجرية فوق الكتلة الحجرية

اخرى تقاد تندمس عليها آلية وتصبح جزءا واحدا او كأنها كتلة حجرية واحـــدة ويمكن ملاحظة هذه السمة وهى كون الحجر املس تماما حتى الآن فى بعض الكتـل الحجرية من الحجر الجيرى التى عاصرها الزمان فحملتها من فاعلية الزمن وعلـى ذلك عندما كشفت عنها الحفائر والتنقيبات الاثرية وبدت فى صورة وكأنها مصنوعة اليوم وفى نفس الوقت خلال الممرات الداخلية داخل الهرم والمؤدية الى حجرة الدفن الملكية اثناء عملية البناء ويلاحظ ان حجرة الدفن الملكية كانت فى الاساس تحت مستوى سطح الارض ولكن سرعان ماعدل المهندس المصرى هذا الموضوع . وصمم ان تكون حجرة الدفن الملكية فى قلب جسم الهرم ومبنية من حجر الجرانيت الاحمر الذى حصل عليه من محاجر الجرانيت شرقى اسوان ثم حمل بواسطـــــة السفن عن طريق نهر النيل شمالا حتى موقع هذا الاثر الكبير .

هذا وقد تحير العلماء حيرة شديدة فى كيفية تحقيق هذه العمارة الخالـدة والمتجهة الى الجهات الاربع الاصلية بمنتهى الدقة واتجه المؤرخ اليونانـــــى هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد حوالى ٤٨٠ ق . م الى القول بـأن هذا الهرم قد بنى بالسخرة وبالاجبار ولكن الواقع ان هذه النظرية او هــــذا الرأى خاطىء كلية ، فمن المستحيل ان يتحقق هذا الاعجاز الهندسى بالاجبـار دون توفر عنصر الاخلاص التام فى الاداء والتضحية فى سبيل الاتقان الفنـــى . هذا الهرم لم يبنى بالسخرة اطلاقا انما بنى بواسطة المصريين الذين اخلصـــوا فى الاداء لانهم كانوا يؤمنون فعلا بحقيقة الخلود وان حياتهم ومصيرهم يرتبـط

ارتباطا كليا مع الملك اثناء حياته الدنيوية واثناء حياته فى العالم الاخر ومن ناحية اخرى لم يكن الهرم بناء مستقلا فى حد ذاته عبارة مقبرة ملكية هرمية الشكل ولكن يكون الهرم جزء من اربعة اجزاء رئيسية تشمل المجموعة البنائية اولاها الهرم وهو المقبرة الملكية ثم ناحية الشرق يوجد المعبد الجنزى ثم يأتى بعد ذلك الطريق الجنزى الذى عادة مايكون مكشوف لاشعة الشمس او مغطى بسقف تحميه وينتهى هذا الطريق الجنزى بمعبد الوادى الذى تصل اليه المراكب الوافدة من العاصمة والتى فى مناسبات معينة تصعد وتؤدى الطقوس الدينية الخاصة بالملك المتوفى فى هذه المعابد معبد الوادى والطريق الجنزى ثم المعبد الجنزى لان الملك المصرى كان يعتبر بمثابة اله حى اثناء حياته فى الدنيا وبعد مماته واستمرار حياته فى العالم الاخر •

ويلاحظ ان حجرة الجرانيت هو الذى كان يستخدم فى حجرة دفن الملك • وذلك تأييدا لعقيدة الخلود حيث استخدم هذا الحجر بناء هذه الحجرة — وايضا فى سقفها الذى يتكون من عدد من الكتل الجرانيتية الواحدة بطول عرض هذه الحجرة وهذه عملية هندسية شاقة ومن ناحية اخرى اختلف العلماء فى كيفية بناء الهرم لانه ليس لدينا اى سجل من الاثار والوثائق المصرية التى تتحدث عن عملية بناء الهرم وكيفية حدوثها ولكن هناك نظريات او آراء ربما يتجه البعض الى ترجيحها بينما يتجه بعض العلماء الى تأييد آراء اخرى ومن الاراء التقليدية انهم كانت هناك زلاقات تصعد على ارصفة صاعدة من الاربعة جهات الاصلية

التى تحيط بالهرم ، وهذه الارصفة تصعد وترتفع من اتساع مساحتها عندما يرتفع البناء تدريجيا الى ان يصل الى قمته ثم تزال بعد ذلك وكانت الطاقات البشرية والحيوانية تجر الزلاقات ، او الزحفات التى تنزلق على هذه الطرق او الارصفة الصاعدة ، وهناك نظرية اخرى وهى محاولة بناء طريق حلزونى صاعد حول الهرم الى ان يصل الى قمته ثم يزال بعد ذلك عند الانتهاء من الاجزاء العلوية فى الهرم .

وهناك ايضا ملاحظة وجود خمسة سفن تعرف عفوا بمراكب الشمس تحيط لحد كبير بالهرم من الجهتين الشرقية والجنوبية وهذه السفن فى واقع الامر هى جزء من الجهاز الرمزى الخاص بالملك فى حياته فى العالم الاخر .
هذا وقد اتجه الوزراء والامراء وكبار رجال الدولة فى تلك الفترة الى اختيار مواقع منازلهم الابدية حول الملك ، كما كانوا يحيطون به فى دنياهم ارادوا ان يستمروا معه فى عالمه الاخر .

ولذلك عثر علماء الاثار وعلى رأسهم ريزنر الامريكى ويونكر الالمانى وسليم حسن فيما بعد المصرى عثروا على عدد كبير من مقابر الوزراء والامراء فى الجبانة الشرقية والجبانة الجنوبية والجبانة الغربية التى اشتركت ايضا جامعة الاسكندرية فى التنقيب عن بعض مقابرها برئاسة الدكتور المرحوم ابو بكر .. ولم يقتصر الملك خوفو على تخليد حياته بهذه العمارة الهرمية الضخمة ، بل هناك من الاثار المنتمية

الى عصره تتواجد في بعض مناطق مصر مثل سيناء حيث عثر في ولدى مغارة علـــى آثار ترجع الى عصره وهو يحاول ان يوقف تسلل العناصر الاسيوية التي تحـــاول بدورها التسلل الى شرق وادى النيل (شرق الدلتا)

ومن ناحية اخرى عثر ايضا في ابيدوس وهي مقر عبادة الاله اوزير جنوب عرســى سوهاج على تمثال عاجى صغير اخاص بالملك خوفو ولا شك ان حفائر المستقبـــل سوف تعطى الكثير عن عصر هذا الملك الذى كان يتسم بالسلام والطمأنينة الكاملة وتحقيق الامن الكامل لمصـــر •

ويعتبر عصر خوفو نموذجا رائعا لتمسك الانسان المصرى بقيمه الدينيـــة الاساسية وعلى رأسها نظام الملكية الالهية وعقيدة الخلود • وقد تبع الملك خوفو عدد من الحكام في عهد الاسرة الرابعة ولكن اشهرهم الملك خفرع • ومـــن بعده الملك منكورع • وقد خلد الملك خفرع حياته بهرمه الثاني في منطقـــة الجيزة ايضا جنوب الهرم الاكبر •

ولا تزال مجموعة الملك خفرع الجنزية في حالة نموذجية من البناء حتى الان مجموعة الملك خفرع حيث يتواجد المعبد الجنزى والطريق الجنزى ومعبد الوادى يلاحظ المؤرخ بصفة خاصة بحالة نموذجية حتى الان • بل يتواجد المرسى الذى يقع

شرقى معبد الوادى حيث كانت هناك قناة لاتزال الارضية الباينة تتواجد فيهـــا حتى الان .. تأكيدا على وصول قناة النيل حتى المرسى فى ذلك الوقت . ومـــن الاثار الخالدة التى لايزال العالم يشهد لها تمثال ابو الهول الذى يقع بشمــال معبد الوادى وينتمى الى عصر الملك خفرع وهو عبارة عن صخرة طبيعية ضخمة شكلت فى شكل تمثال كبير رأسه رأس انسان وجسمه فى شكل اسد رابض وطول هذا التمثال ٤٦ مترا وارتفاعه ٢١ مترا .. وهو التمثال المعروف باسم ابو الهول واسمه باللغــة المصلاية ششب عنخ وقد حرفها مؤرخ اليونان الى سفنكس ومعناها الصورة الحيـــة وكانت الارض حوله فى عهد الدولة الحديثة مكانا للصيد واعتبره بعض الحيثيـــين الذين كانوا يقيمون فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت اسما سموه تر حون والتى حورت الى ابو الهول وتمثال ابو الهول يغلب انه يمثل الملك خفرع وهو يتعبد للالـــــه الشمسى رع كل صباح لانه يتجه بوجهه تماما الى الشرق وفى رأى آخر ان هذا التمثال يعتبر ايضا رمزا للاله حور ختى وهو الاله الشمسى ايضا . ويلاحظ ان عقيدة انتمــاء رجال الحاشية من حيث ارتباطهم بشخصية الملك حوله فى العالم الاخر مثلمــــا حدث فى عهد الملك خوفو . يتكرر ذلك ايضا فى عهد الملك خفرع حيث يلاحظ وجود المقابر الخاصة باولاده الستة عشر وقد دفنوا فى مقابرهم الصخرية او المنحوتة فى الصخر جنوب وشرقى الهرم وايضا بجوار او على جانبى الطريق الجنزى الخاص بهم .

وقد خلف الملك خفرع ابنه الملك منقورع وهو صاحب الهرم الاصغر حجما والهــرم

الثالث فى منطقة هضبة الجيزة وهناك سمة واضحة وهى صغر حجم هذا الهرم ويغلب ان الدافع الى ذلك يرجع الى اسباب اقتصادية لعملية بناء الهرم عملية مكلفة وشاقة للدولة وتستغرق وقتا طويلا لذلك اتجه منقورع بناء على التجارب السابقة عليه ان يجعل منزله الابدى اصغر حجما من هرم والده واجداده • ويظهر ان هذا الاقتصاد ايضا لم يتجسم بصفة خاصة بصغر الحجم وانما ايضا يلاحظ ان الملك شبسكاف وهو الملك الذى تلاه فى الحكم قد كسى امر بكسوة هذا الهرم باللبن ثم بعد ذلك بست عشر ايضا من حجر الجرانيت وهناك مفاجأة واجهة العلماء بالنسبة الى هرم الملك منقورع وحجرة الدفن الخاصة به فقد عثر العلماء البعثة البريطانية على جثته سنة ١٨٣٧ م • واتجه هؤلاء العلماء الى نقلها من تابوتها الى انجلترا بواسطة البحر ولكن حدث ان غرقت السفينة وغرق التابوت عربى البرتغال بالمحيط الاطلنطى ولايزال فى مياه المحيط حتى الان ولكن تم انتشال الجثة واتجه المنقذون لها بها الى المتحف البريطانى فى لندن حيث لاتزال حتى الان •

ويمكن القول ان البيان السياسى المصرى ابتداء من عصر منقورع لاحظ من الانحدار النسبى بينا كما سبقت الاشارة الى الخط البيانى الموجز فى الصفحة السابقة كما هو فى البيان الموجز فى صفحة رقم حيث لوحظ بداية الانحدار فى الخط السياسى • ويغلب ان ذلك يرجع الى اسباب اقتصادية كما يرجع ايضا الى شخصية الحكام فابتداء من شبسكاف نجد ان التمسك الدقيق بنظام الملكية الالهية بدأ

يضعف نسبيا بدرجة ملحوظة وايضا ادى ذلك الى عدم اقتناع الشعب المصرى بذلك الوقت بحاكمه اقتناعا كاملا لانه اتجه الى الاعتقاد فى نظام الملكية الالهية وعقيدة الخلود على اساس ان الفرعون سوف يحظى له الايمان والامتنان ورفعه الى مستوى الاله • ولكن عندما تواجد بعض الملوك الضعاف بدأت هذه القيم تضعف ايضا •

وعلى سبيل المثال فى هذا الميدان يلاحظ ان الملك شبسكاف قد اتجه الى تزويج ابنه بتاح شبس • ولم يكن من الشخصيات الملكية وعلى هذا الاساس يعتبر ذلك نوعا من الخروج على التقاليد التى تنتمى اليها تقاليد الملك الاله الذى لمسناه فى شخصية خوفو وخع افرع ومثال اخر وهو ان الملك شبسكاف قد ترك منطقة الجيزة واتجه الى منطقة سقارة حيث بنى لنفسه مصطبة يعلوها مايشبه التابوت وهى مصطبة فرعون ويعتبر فى الواقع ان ذلك خروجا عن التقليد الملكى السالف الذكر وايضا هو نوعا من الابتعاد عن نفوذ كهنة الاله رع والذين كان لهم نفوذ بارز فى عهود الملوك السابقين حتى انه يلاحظ ان اسم الاله رع والذين كان لهم نفوذ بارز فى عهود الملوك السابقين حتى انه يلاحظ ان اسم الاله رع يتواجد واضحا فى اسم الملك خع افرع وكذلك فى اسم الملك منقورع • ولكن هذه الفترة المؤقتة التى ضعف فيها نفوذ الاله رع سرعان ماتعاود قوتها مرة اخرى عندما نصل الى الاسرة الخامسة حيث يزداد نفوذ كهنة الاله رع مرة اخرى •

ظل شبسكاف في حكم مصر في حكم الاسرة الرابعة الملكة خنت كاوس وهي ابنـة الملك منقورع ولذلك لان شبسكاف لم يترك ابنا ليلة في الحكم ولذلك كانت اختـه تطالب بالعرش من بعده •

وقد انتجبت خنت كاوس الملك اوسركاف اول ملوك الاسرة الرابعة • وقد تركـت الملكة خنتكاوس مقبرتها في منطقة الجيزة وهي مايسمى بالهرم الرابع وهي اقرب الـى مصطبة فرعون التي سبقت الاشارة اليها ومقبرتها مربعة وفوقها مايشبه التابـوت ومعبد هذا الهرم منحوت في الصخر ومغطى بالجرانيت ولكن التابوت الخاص بهـا كان المرمر • ويغلب انها لم تتزوج شخصية ملكية بل يغلب ان زوجها كان كاهنـا اساسا من سينتمي الى كهنة الاله رع وهذا ادى الى عودة نفوذ كهنة الاله رع مـرة اخرى في حكم مصر وادى ذلك الى انتقال السيادة مرة اخرى الى اسرة جديـدة وهي الاسـرة الخامسة •

((الاســــرة الخامســـة))

حاول كهنة الاله رع الذين يتنجبون مقر لهم في موقع هليوبوليس وهى فى نواحى المطرية وعين شمس حاليا شمال شرقى القاهرة اقول حاول هولاء الكهنة استعادة نفوذ الاله الشمسى واقناعا لافراد الشعب المصرى بذلك اتجهوا الى كتابــــة بردية تحكى نوعا من القصص الاسطورى الذى يحاول اقناع الشعب . وهـــــذه الاسطورة تعرف ببردية وستكار وهى تتلخص فى ان احد السحرة من عهد الملـك خوفو واسمه ديدى ذكر انه كان يوجد فى هليوبوليس كاهن للاله الشمسى وذكـــر ان هذا الكاهن واسمه اوسر رع وزوجته سوف تصبح ام وستلد ثلاثة ابناء ابوهـــم اله الشمس وسوف يحكمون مصر .

وهكذا تنبئت هذه القصة الاسطورية بأنه سيفد الى مصر حكاما فى عهد الاسرة الخامسة ينتسبون الى الاله رع وقد تحقق ذلك فى الواقع ولذلك يلحظ الباحث ان اهم واجب واجه ملوك الاسرة الخامسة كان بناء معبدا خاص بعبادة الاله الشمسى وقد اتخذ ملوك هذه الاسرة موقع ابو صير جنوب الجيزة وشمال سقارة مكانا لعبادة الاله الشمسى ومكانا ايضا لمنازلهم الابدية او بالاحرى اهراماتهم التى لاتزال كائنة فى هذا الموقع .

واهم ملوك الاسرة الخامسة هم الملك ساحورع ثم الملـك نفرايركارع ثم الملـك نيو سر رع واخيرا الملك اوشس ـ ويلاحظ من اسماء اولئك الملوك الاهتمـــــام

الواضح بنفوذ الاله وقوة سيطرته على ملوك تلك الفترة والواقع ان ملوك الاسرة الخامسة قد اخذوا فى الاهتمام بعبادة الاله الشمسى ، واكثروا من المنح المتاحة لزيادة نفوذ هذا الاله فى معابده ، وبالتالى انعكس ذلك فى كيان الفرعون وفى نظام الملكية الالهية الذى بدأ يضعف بمعنى الكلمة فى تلك الفترة وكانت شخصية الملك شخصية متواضعة ان صح التعبير حتى من كبار موظفيه وهناك العديد من الامثلة الدالة على ذلك والتى يلاحظها المؤرخ فى مقابر الموظفين او الامراء المحيطين به والذين يقصوا قصص حياتهم المعاصرة لاولئك الملوك بصورة تؤكد ذلك .

ومن الاهمية الاشارة انه من اهم الاعمال التى تحققت فى عصور ملوك الاسرة الخامسة محاولة تحكمهم فى تأمين الحدود الشمالية الغربية حيث بدأت العناصر الحامية المتمثلة فى الليبيين محاولة التسلل والتغلغل عبر الصحراء الغربية بوادى النيل . لان ذلك اسهل على حياتهم من حياة الصحراء ولكن ملوك الاسرة الخامسة نجحوا فى تأمين الحدود الشمالية الغربية ، بل وايضا الحدود الشمالية الشرقية وايضا الحدود النوبية فى جنوب مصر .

ومن اهم الاعمال الاقتصادية التى ازدهرت فى عهد ملوك الاسرة الخامسة قيامهم ببعض الرحلات الى منطقة القرن الافريقى او بالاحرى الصومال لاستجلاب البخور وايضا البخور اللازمة للطقوس المختلفة فى المعابد ، وكذلك ايضا خشب الابنوس وهو الذى تحتاجه مصر فى كافة شئونها المدنية وايضا الدينية ومن اهم الاعمال التى تتمثل فى هذا النشاط الاقتصادى نجاح مصر فى الاتصال على نطاق

واسع لمنطقة شرقي البحر المتوسط حيث وردت العديد من النصوص الدالة علـــى الرحلات الاقتصادية التي اتجهت الى موقع بيبلوس وهي مايسمى الان جبيل شمـــال بيروت بحوالي ٤٠ كم وهو الموقع المطل على البحر المتوسط • والقريب للغاية مـــن غابات شجر الارز اللبناني الذى يتواجد فى لبنان وسوريا وهو الخشب الذى تحتاج اليه مصر • بصفة خاصة لكافة شئونها المدنية والسفن سواء مايتصل بالعالم الدنيوى او العالم الاخر وعثر على النقوش الدالة على هذه الرحلات فى الطريق الجـــنزى الخاص باهرامات اولئك الملوك وايضا هرم الملك اوناس ومن اهم العصور الذى تميزت فى عهد الاسرة السادسة هو عصر الملك اوناس الذى نقش من الداخل بعدد مـــن النصوص الدينية المعروفة باسم نصوص الاهرام وهى هي سحرية تحمى روح الملك فـــى العالم الاخر وتعاصر هذه النصوص مايسمى بنصوص التوابيت فى عهد الدولـــــة الوسطى ونصوص كتاب الموتى فى عهد الدولة الحديثة • وقد عثر فى الطريق الجنزى الموصل بين الهرم (هرم اوناس) وبين معبد الوادى وهو طريق مظلل ومسقـــف وبه بعض الفتحات الخاصة بالاضاءة عثر على العديد من الرسوم والنقوش التى تمثـــل الحياة اليومية بمعنى الكلمة ويرجح ان السقف فى هذا الطريق قد كسى ايضـــــا او زين بالنجوم وكأنه يمثل السماء فى العالم الاخر •

والواقع ان نظرة الانسان المصرى تجاه الخلود كانت نظرة حقيقية تصورها تصور حقيقيا بمعنى الكلمة فهو يعتقد ان عالمه الاخر هو العالم الخالد الذى تزدهر فيه الحياة وتستمر الى مالا نهاية وتصور بنفس صور العالم الدنيوى فى اسماء مكسوة بالنجوم وحياته فى منزله الابدية تنعم بكافة الانشطة الدنيوية التقليدية مـــن

زراعة وتجارة ورقص وغناء بالاضافة الى العبادة والتقرب الى الالهة في محاولة تأكيد الامتنان في عالمه الدنيوي وعالمه الاخروي .

وهكذا يتضح ان الاسرة الخامسة قد تميزت بازدياد نفوذ كهنة عين شمس فيها بصورة واضحة وقد زادت المنح والهدايا وظاهرة الاعفاء من الضرائب بالنسبة الى اراضي المعبد وعلى ذلك اكتسب اولئك الكهنة . كهنة عين شمس العديد من المزايا اثناء الاسرة الخامسة . وكان لذلك الوضع دوره الكبير في الكيان الدينى في المجتمع المصرى القديم . ثم انتقلت السيادة السياسية بعد ذلك الى الاسرة السادسة التى يمكن اعتبار ملوكها الرئيسيين هم الملك تتى وببى الاول وببى الثانى .

وقد تميزت هذه الاسرة فيما تميزت بوجود عدد من الانشطة الاقتصادية والاستكشافية في النوبة والسودان الجنوبى . ويمكن اعتبار شخصية كرمس اونى وخوفحر من اهم الشخصيات التى تحققت على يديها تلك الانشطة والواقع ان الدولة القديمة في عهد الاسرة السادسة قد تميزت بتحكم الفراعنة في تأمين الحدود الجنوبية لمصر تأمينا كبيرا . ولكن ظاهرة جديدة بدأت تغير من الكيان السياسى الداخلى في مصر تأخذ مكانها الفعلى في تطور الاحداث الداخلية في مصر وهذه الظاهرة هى بداية تواجد نوعا من التسللات الوافدة من الشمال الشرقى لمصر والآتية اساسا من شبه الجزيرة العربية وتمكنت من عبور شبه جزيرة سيناء الى حدود مصر الشمالية الشرقية وهذه العناصر هى المعروفة باسم العناصر الامورية وهذه العناصر قد انتهزت فرصة ضعف الحكام قرب اواخر عصر الاسرة السادسة ونجحت في التسلل فعلا الى شرقى

الدلتا • وقد ادى هذا الموقف الخطير الى تعدد نزوى فى النيار السياسى المصرى القديم حيث ذاته •• وذلك على اساس ان نظام الملكية الالهية يعتمد اصلا على قيام الفرعون بتحقيق التأمين السياسى والتامين الاقتصادى للمجتمع المصرى القديم ولكنه بعد ان نجحت العناصر الاموريه السامية فى التسلل الى شرقى الدلتا • فيمكن القول ان هذا التأمين السياسى قد انهار كلية واصبح مبدأ او نظام الملكية الالهية فى مصر الفرعونية لا يعتمد على اى اساس • ولذلك بدأت الازمة العنيفة داخل نفوس افراد الشعب المصرى القديم مما مهد الى انهيار الاسرة السادسة كلية وتدشى المركزية السالفة وبدأت الادارة اللامركزية تأخذ مكانها فى النظام السياسى الداخلى فى مصر الفرعونية •

وبدأ كل اقليم يحاول الاستقلال بذاته منفصلا عن بقية الاقاليم الاخرى ومستقلا عن الوحدة السياسية المصرية وهكذا بدأت مرحلة من الفوضى السياسية والاضطراب السياسى • بل وتابع ذلك ازمة اقتصادية طاحنة •• وقد دلت النصوص المصرية القديمة على ذلك تمام بصورة واضحة للغاية •• هذا بالاضافة الى اتجاه كبار موظفى الدولة الى الاستقلال فى اقاليمهم بل وتوريث ابنائهم فى مناصبهم الادارية وعدم تحقيق نوعا من التنقلات بين الموظفين فى تلك الفترة • وقد ادى كل ذلك الى الانعزالية والاستقلالية لكل اقليم على حدة •• وهكذا عادت مصر الى مرحلة تسبق بداية العصر التاريخى اى الى مرحلة عصور ماقبل الاسرات حيث كانت مصر منقسمة الى عدد من الاقاليم المستقلة •

ويمكن اعتبار هذا العصر بمثابة ثورة اجتماعية من الدرجة الاولى لانه عصر ساد ت فيه الفوضى السياسية • ولكنه من الناحية الاخرى تمكن هذا العصر من القفز بالضمير الانسانى المصرى القديم الى مرحلة عالية للغاية والى قمة من قمم الدعوة الى قيم مصرية عديدة تتركز على حق العدالة الاجتماعية بين افراد المجتمع المصرى، القديم • بل وحق المساواة المطلقة بين افراد ذلك المجتمع وتؤكد النصوص المصرية المعاصرة لاواخر تلك الفترة تلك الحقوق بوضوح كامل كما تؤكد ايضا النصوص المصرية مدى الاضطراب الاجتماعى والاقتصادى والسلوك بين افراد المجتمع المصرى

ويتضح ذلك فى عدد من النصوص المعروفة باسم تحذيرات ايبور • وكذلك فى قصة الفلاح الفصيح وفى نص اليائس من الحياة وفى قصة الفلاح الفصيح ينادى هذا الفلاح البسيط بطريقة رائعة فى اسلوب رائع بحق الحياة وحق العدالة الاجتماعية • وبعد ان سجل العديد من الشكاوى التى طالب فيها بتحقيق تلك العدالة تمكن اخيرا من الاستماع الى وجهة الحق فى هذا الصدد •

اما بالنسبة لنص اليائس من الحياة فهو يؤكد مدى تواجد نوعا من التردد والذبذبة الفكرية فى نفسية الفرد المصرى حيث كان متحيرا بين الالتزام وقيمة التقليدية السابقة وقيمة الواقعية التى بدأ يشعر بها فكان فى حيرة مطلقة

ان يتجه اهل يحافظ على قيمة التقليدية التي تمكن من نصها والايمان بها في عهد الاسرة الرابعة •

ام يتجه الى ترك تلك المبادئ كلية ويتجه على الفور الى مبادئ واقعية تطالب بحق العدالة الاجتماعية وحق المساواة في الحقوق والواجبات •• عوضا على الحق المطلق للالهية والذى كان يركز كل شئ في يد الفرعون بصورة سياسية مطلقة الحدود •

وهكذا يتضح ان عصر الثورة الاجتماعية قد ادى الى هذه المفاهيم المتضاربة خلال تلك المرحلة ويتضمن عصر الانتقال الاول اربع اسر هي الاسرة السابعة والاسرة الثامنة والاسرة التاسعة والاسرة العاشرة • فبينما كانت الاسرتان السابعة والثامنة في منف كانت الاسرة التاسعة والعاشرة في اهناسيا في منطقة الفيوم • وبينما كان الكيان السياسي الداخلي في مصر موزعا بين سادة الاقاليم في تلك الاسر السالفة فقد كانت هناك نزعة وطنية جديدة مقرها مدينة طيبة في صعيد مصر (الاقصر حاليا) حيث بدأت تبزغ على الوجود اسرة جديدة قوامها شخصية قوية هي شخصية الملك نب حبت رع منتحتب وهو المنتمى الى الاسرة الحادية عشرة حيث تمكن هذا الملك المصرى القوى من اعادة السيادة السياسية الكاملة لمصر واعادة توحيد مصر مرة اخرى وذلك بقوة المحالفات السياسية الداخلية وقوة العسكرية

والنهرية ونجح في تحقيق واستعادة الوحدة السياسية المصرية مرة اخرى •
وهكذا بدأت مرحلة جديدة في التاريخ المصرى القديم هي مرحلة الدولة الوسطى وهى تتضمن الاسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة •

ويمكن تركيز حكم الاسرة الحادية عشرة بيد مجموعة من الحكام او الفراعنة يطلق عليهم الانتافة نسبة الى انتف والمنتوحتبيون نسبة الى منتوحتب بينما الاسرة الثانية عشرة فهى تضم مجموعة الملوك الذين يحملون اسم امنمحات والسنوسرتيون نسبة الى سنوسرت اسم الملك سنوسرت •

وهكذا تعود السيادة المصرية مره اخرى في تلك الفترة وهى عهد الدولة الوسطى ولكنها لا تبنى على نفس المبادىء التى بدأتها بها الدولة القديمة وخاصة الاسرة الرابعة •• بل تتبنى على نوعا من العدالة الاجتماعية وقبل دراسة تاريخ الدولة الوسطى تنبغى الاشارة بايجاز الى معالم الفترة السابقة عليها والمتمثلة للدولة القديمة وعصر الانتقال الاول من الناحيتين السياسية والحضاريه •

وقبل الانتقال الى المراحل التاريخية التالية ينبغى عمل تقييم شامل لمـــــا سبقت الاشارة اليه •

فمنذ عصر ماقبل الاسرات الاخير فى مصر بدأت بوادر الوحدة السياسية تأخذ طريقها نحو التحقيق فى تلك الفتره • وقد انتقلت السيادة الحضارية والسياسية الى الجنوب الذى اتجه نحو مد نفوذه الحضارى مرة اخرى نحو الشمال •

وقد تركزت نشاط تلك المرحلة فى عدد من المدن الهامة ، فى مصر العليـــــا مدينتى نخب (الكاب) مقر عبادة الالهة نخبت (انثى النسر) ونخن ونقـــــادة وطنية فى ابيدوس بينما فى مصر السفلى بوتو (تل الفراعين) ، مركز دسوق وهـى مركز عبادة الالهة وادجت التى يرمز لها بالصل ، وجوزة واون ويلمس الدارس تلـك المدن بانها تحمل صفتين اولهما صفة سياسية والاخرى دينية وكان لمدينة ابيـدوس الصفة الدينية فى الجنوب ، كما كان لمدينة اون فى الشمال الصفة ذاتها •

وقد حملت المدن الاخرى الصفات الدينية ايضا ولكن غلبت عليها الصفة السياسية وقد تميزت مدن الشمال بمصر رموزها الخاصة مثل النحلة والتاج الاحمر المصنـــوع من الاغصان المجدولة والخاص اصر بالالهة نيت ، الهة الدلتا ذات الطابـــع الحربـى •

بينما تميزت مدن الشمال بعض رموزها الخاصة مثل النحلة والتاج الاحمر المصنوع من الاغصان المجدولة والخاص ايضا بالالهة نيت ، الهة الدلتا ذات الطابع الحربي . بينما تميزت مصر العليا بنبات السوسن او الذلفا والتاج الابيض الذي من المصنــــوع من الجلد . وعلى الرغم من وجود تلك العناصر المميزة لكل من المملكتين والحــدود السياسية الخاصة بهما ، فقد بدأت عناصر الوحدة الفكرية بين المملكتين في اعتبـــــار الاله حورس الها رئيسيا لكل منهما ، واعترف هاتان المملكتان بعبادته . ويستــدل على ذلك من تواجد الاسم الحوري بالاضافة الي الاسم الشخصي لملك تلك الفــترة . وفي المجال السياسي لم تتحقق الوحدة بسهولة ، بل لقد تطلبت حروبا طويلة بــين المملكتين الشمالية والجنوبية ، كما يستدل من النقوش المسجلة على مقابض السكاكين والامشاط العاجية واللوحات الاردوازية التذكارية . وتبين تلك النقوش العمليـــــات الحربية ونتائجها ويظهر فيهـــا انتصار الجنوب على الشمال . وبصفة خاصة عصـــا الراعي التي تعتبر رمزا للاله عنجتي في شرقي الدلتا . وتم امام قصر ملك الجنـــــوب كما يلاحظ تواجد اسرى الحرب في تلك النقوش .

بالاضافة الى تلك اللوحات الهامة المتصلة باحداث الحرب الاهلية بين الشمـــــال والجنوب في ذلك العصر ، وهناك بعض الاثار السياسية المباشرة التي تعبر عـــــن بعض العمليات الحربية الخاصة ، ومن اهم تلك الاثار مقمعة الملك الذي اطلق عليــه اسم عقرب وهي التي عثر عليها في نخن ، والتي بالاضافة الى كون الملك يقــــــوم فيها ببعض الواجبات الزراعية فانه قد نقشت عليها بعض اعلام المقاطعات الخاصـــــة

بالصعيد ، وقد علقت فيها الطيور الميتة والاقواس الرامزة الى الشماليين المنهزمين ولكن عمليات الملك عقرب الحربية لم تصل ابعد من ... ره شمالا بدليل انه لم يعثر على آثار له شمال ذلك ، مما يغلب ان الدلتا كانت لاتزال سيادة المملكة الشمالية ولكن تحققت الخطوة السياسية الحاسمة على يد الملك نعرمر الذى خلد تلك العملية الحربية والسياسية الهامة فى التاريخ المصرى القديم ، فى لوحته التى عثر عليها فى نخن والموجودة حاليا بالمتحف المصرى بالقاهرة ، والتى يظهر فيها نعرمر وهو يحتفل بانتصاره على الدلتا ويلبس تاج الوجه البحرى • ويتجه التقليد ان نعرمر قد بدأ عملياته من طيبه •

ولكن هذا التقليد ينبغى اعادة النظر فى حقيقته لان الزعامة السياسية والدينية فى مصر العليا لم تقتصر على طيبه فى تلك المرحلة • بل امتدت الى نخن ونقسادة بدليل ان آثار نخن التى جمعت الكثير عن عصر نعرمر وعقرب بالاضافة الى كونها مركزا سياسيا ودينيا ورئيسيا فى الجنوب ، كما ان الاله حور قد اتخذها مركزا له بالاضافة الى ادفو بعد ذلك • ومن ناحية اخرى كان لمدينة نقادة دورها الهام فى عصر ماقبل الاسرات الاخير على الرغم من حفائر بترى فى المئات من مقابر هذا الموقع ، فانه لاتزال هناك حاجة ماسة الى استكمال الحفر وتفسير تواجد مقبرة نيت حتب زوجة نعرمر حور عحا اول ملوك الاسرة الاولى فى هذا الموقع بالذات •

ذا من السلم بان موقع ابيدوس كانت له اهمية خاصة فى تلك الفترة ، ولكـنـه تغلبت عليه الصفة الدينية لذلك يجد الدارس امكانية كون السيادة السياسية الجنوبية فى كل من نخن ونقادة بالاضافة الى طيبة • ولن يحل هذا المشكل بصورة حاسمـة الا بعد اعادة الحفر المقارن فى هذه المواقع الثلاث الجنوبية نظرا لتكاملها فـى هذه المرحلة الهامة من التاريخ المصرى القديم •

ومن اهم مظاهر هذا العصر فى مصر اتساع نطاق الصلات الخارجية التجاريـة والحضاريـة مع فلسطين والعراق بصفة خاصة •

ويتضح ذلك فى تواجد عدد من الاثار التى تظهر فيها بوضوح تلك المؤثـرات السومرية والفلسطينية ذات الاهمية الخاصه •

ومن امثلة تلك المؤثرات الاجنبية الفخار ذو الايدى المموجة الذى عثر عليـه فى المعادى وجرزة ونقادة وغيرها •

والذى يرجع فى اصوله الى فلسطين حيث عثر عليه فى الطبقة الثامنة فى اريكو والطبقة الثامنة عشرة فى بيت شأن فى فلسطين وفى مجال الصناعة الفخارية تأثر عصـر ماقبل الاسرات الاخير فى مصر ايضا بالفخار العراقى القديم •

حيث عثر على مجموعة من الاوانى الفخارية ذات الصنابير المائلـة ، وكذلك على بعـض الاوانى المثلثة فى مستجدة والبدارى •

وتنتمى تلك الاوانى فى العران القديم الى عصر حضارة جمدة نصر . هذا بالاضافة الى العثور على اربعة من الاختام الاسطوانية المنتمية الى عصر حضارة الوركاء وعصر جمدة نصر فى كل من جرزة ونجع الدير وفيما يتعلق بمجال التعبير الفنى فقد اتضح تواجد عدد من المؤثرات الفنية السومرية الطابع على الاثار المصرية مثل رسم الثعابين المتشابكة وبطل بين اسدين ، والسفن العراقية القديمة المتميزة بمقدمتها ومؤخرتها القائمة وجدت هذه الاثار فى مصر على مقابض عدد من ايادى وبصفة خاصة مقبض سكين جبل العرقى ، وايضا على حيطان المقبرة الملونة والمنتمية الى عصر ما قبل الاسرات الاخيرة فى نخن .

وقد وصلت تلك التأثيرات السومرية الى قمتها فى مصر ، فى العمارة المتميزة بظاهرة الفجوات المنتظمة فى نهاية عصور ماقبل الاسرات والتى تتضح بصفة خاصة فى مقبرة الملكة نيت حتب فى نقادة . اما فى المجتمع المصرى القديم فقد كانت النقلة الى الاسرة الاولى تتميز بعملية سياسية بحتة عن التوصل الى الوحدة السياسية بين الصعيد والدلتا .

وقبل الاحاطة بمعالم عملية الوحدة السياسية المصرية القديمة يلزم التعرف على المقومات الرئيسية التى ادت الى اختراع عملية النقلة الى بداية العصر التاريخى فى كل من مصر وبلاد الرافدين .

وتدور اساس تلك المقومات حول نقطة نفسية حاسمة فى مشاعر المجتمعات الانسانية القديمة ، تلك النقطة هى البحث عن الاطمئنان على كفايته الانتاجية ومصيره بعد الموت الدنيوى .

وقد توصل انسان الشرق الادنى القديم فى هذا الصدد الى التعرف على بعض القوى الالهية التى تتضمن له ذلك الاطمئنان والاستقرار الذهنى والمادى . وقد تحقق له بصورة مثالية هذا النوع من الاستقرار فى مصر القديمة ولذلك كان المجتمع متجانسا مع بيئته بكافة مقوماتها المائية والارضية والجوية مما حقق له تكاملا فريدا فى نوعه على تنفيذه فى المجالات المادية والفكرية .

فقد اعتقد الانسان المصرى القديم فى حقيقة ذلك التكامل الدورى المنتظم الذى يلمسه فى دوره الحياة والموت المنتظمة فى الحياة النباتية والحيوانية والبيئية والشمسية والنهرية فآمن بكونه سائرا متمشيا مع تلك الدائرة الابدية فى مصر القديمة ، ولذلك تحقق لديه ذلك الاطمئنان المتجسم فى حقيقة الخلود واستمرار الحياة فى العالم الاخر وتقمص الملكية الالهية وعمل على ربطها بالقوى الالهية حتى تكفل له ضمان ذلك الاطمئنان فى مجامعها المقدسة .

ولذلك شعر بضرورة تكامل ذلك التجانس فى حياته السياسية ايضا ، فعمل على تحقيق دولة متحدة قرب نهاية عصور ماقبل الاسرات ونجح فى ذلك السبيل بصورة حاسمة بادئا العصر التاريخى بالاسرة المصرية الاولى .

اما فى المجتمع العراقى القديم ، فقد كان الانسان يلمس بصورة مباشرة حقيقة عدم الاستقرار البيئى ، كما يتضح ذلك من اختلاف مواعيد الفيضانات فى دجلة والفرات

وتعدد العناصر البشرية وعدم الاستقرار البيئي في الجنوب ، والصراع الدائم بين المياه العذبة والمالحة .. مما ادى الى عدوية الامئنانه وتجسيمه بعض القـــوى المتحكمة في الزوابع والعواصف في باكورة القوى الالهية ، مثال ذلك الاله السومرى انليل .

وكذلك كانت تلك الصعوبات البيئية عاملا موثرا في حياته الى درجة اتخـــاذه ظاهرة الطوفان ، وهي ظاهرة بيئية محلية كعلامة تميز بداية العصر التاريخي ومـــن ناحية اخرى لم يتوصل الانسان العراقي القديم الى الايمان بعقيدة الخلود بصـــورة مماثلة للانسان المصرى القديم ، بل فرضا على الالهة .. كل ذلك يوضح مـــدى فاعلية المؤثرات البيئية في تشكيل العمليات التاريخية السياسية والفكرية والدينيـــة في حياة انسان تلك المنطقة .

اما عن حادث التوحيد السياسي بين مملكتي الشمال والجنوب في مصر قـــرب نهاية عصور ماقبل الاسرات وبداية العصر التاريخي ، فقد اختلف العلماء في تفاصيل احداثهـــا .

اما بالنسبة الى الشكل الحضاري المصرى ، فله طبيعته الخاصة التي تجعله فريـدا في منطقة الشرق الادنى القديم .

وليس معنى ذلك عدم وجود شبه على الاطلاق بينه وبين التفكير الحضاري فـــي بلاد الرافدين ، فكلاهما يعطي اعتبارا خاصا للجانب الديني من حيث فاعليته فـــي تشكيل الحضارة اثناء الالف الثالث قبل الميلاد . ولكن من الفارق في المفهـــــوم

الديني بالنسبة للمجتمع الانساني • بينما تنفرد القوى الالهية في العراق القديم بالخلود في العالم الاخر ولا ينعم الانسان فيها فانه على العكس من ذلك تتساوى الالهة والبشر في استمرار الحياة في العالم الاخر في التفكير المصري القديم • ويرجع ذلك الى الاستقرار والانتظام في بيئة البيئة المصرية مما يكفل الاطمئنان وربط العالم الدنيوي بالعالم الابدى الى مالا نهاية • وان كون الزراعة مهنة رئيسية بدأ بها الاستقرار الفعلى منذ العصر الحجرى الحديث ليؤكد ذلك الاتجاه الفرد ى لدى المصريين القدماء لان الزراعة تتجسم فيها ظاهرة الخلق والنمو والحياة واخيرا الموت • وذلك في دورة حياة النبات • كما تتجلى ايضا في دورة حياة الانسان والحيوان والقوى الكونية المختلفة والتي يلاحظ الانسان المزارع عن قرب •

ولذلك تركزت الحضارة المصرية القديمة منذ عصور ماقبل التاريخ على الاهتمام بظاهرة الخلود وظاهرة اخرى مكملة لها هى الملكية الالهية • على اساس ان ربط الحاكم الدنيوي بالعالم الالهي وحملة للصفة الالهية يساعد على ضمان الاطمئنان المجتمع الانساني عن رضا القوى الالهية عنه •

وتبعا لذلك نشأت الشهادات الاولى في اقليم مصر عندما اتجه كل اقليم الى الايمان باله محلى معين له مجالات نشاطه في حدود ذلك الاقليم • وخلال عصور ماقبل الاسرات بدأت المنافسة الدينية بين الاقاليم من حيث اتجاه كهنة كل اله الى اظهار اولية الههم على الالهة الاخرى •

وقد حاول اولئك الكهنة الارتفاع بيالهتهم عن المستوى المحلي الى المستوى الكوني وذلك بالاتجاه الى اعتبار الخلق الاول قد حدث عن طريق الههم وتدعيم ذلك بالاساطير والفلسفة الدينية ٠

وكانت مدينة هليوبولس (عين شمس) مركزا دينيا لعبادة الاله الشمسي ٠ وقد ظهرت فيها النظرية الدينية الهليوبوليتانية ٠ نسبة اليها والتي تتجه الى اعطاء الاولوية في الخلق الى الاله آتوم رع الاله الشمسي الذى يعتبر بمثابة مصدر لثمانية من الالهة شو (الهواء) وتفنوت (الماء) وجب (الارض) ونوت (السماء) ثم اوزيريس وايزيس ونفتيس ٠

وقد نشأ صراع جديد بين كل من اوزيريس وست ادى الى قتل الاول واتجه ابنه الاله حورس الى الانتقام لذلك وتمكن من الانتصار على ست والاستحواذ على عرش مصر ٠

وقد مثل الاله حورس بالصقر ٠ وقد ظهرت عقائد اخرى منها العقيدة المنفية نسبة الى منف والعقيدة الهرموبوليتانية نسبة الى هرموبوليس (الاشمونين) وقد اعطت الاولى بتاح السيادة بينما اتجهت الاخيرة الى الاله تحوت ٠

وتنبغى الاشارة بصفة خاصة الى ان العقيدة المنفية قد تميزت على العقائد الاخرى في مجال الخلق من حيث اعتبار حدوث ذلك عن طريق معنوى بحت وهو استخدام اللسان في النطق الشيء بينما اتجهت العقائد الاخرى اتجاها ماديا

طبيعيا فى تفسير كيفية حدوث الخلق الاول •

وقد استمر ذلك الصراع الدينى بين تلك المراكز الدينية اوائل العصر التاريخى وقد حاول كل مركز منها استمالة الحكام اليه هادفا من وراء ذلك ارتفاع اعتبار الاله المنتمى اليه من ناحيه • وتوسيع دائرة النشاط الاقتصادى بما تتضمنه من قطاعيات زراعية واوقات لخدمة الاله من ناحية اخرى • وقد تمكن الاله رع من الاستحواذ على السيادة الدينية اثناء فترة طويلة من الدولة القديمة رغم عنف المنافسة بينه وبين الالهة الاخرى •

وقد وصلت عبادة الاله رع فى عهد الاسرة الخامسة الى ابعد مدى • وتوكد ذلك الادلة الاثرية وبصفة خاصة معبد ومسلة الاله الشمسى فى منطقة ابو صير شمال سقارة •

ومن الاهمية الاشارة الى ان تلك المعتقدات كانت مقبولة من طرف الشعب المصرى اثناء الدولة القديمة وبصفة خاصة الاسرة الرابعة • ولذلك اقبل على تجسيم معتقداته بشكل واقعى ملموس يوكد مفاهيمه لكافة افراد المجتمع •

وبالنسبة لعقيدة الخلود واستمرار الحياة فى العالم الاخر • فقد وصل الانسان المصرى القديم فى ذلك المدى الى درجة قصوى لم تصلها آية حضارة اخرى • فقد تابع عملية بناء المنازل الابدية اى المقابر بطريقة تصويرية لاتزال آثارها واضحة لدنى •

فقد تطورت عمارة المقابر من مجرد مصاطب تجمع بين البناء السفلى الذى يتضمن حجرة الدفن والبناء العلوى الذى تلحق به الحجرات التى سجل على جدرانهـا مختلف جوانب نشاطه الدنيوى والمهنى والترفيهى • وابواب وهمية وسراديب وترك فيها تماثيل لشخصه الى تماثيل اخرى لدلهة الاخرى المصرية • حيث انه اعتبر مقبرته بمثابة منزل ابدى يجمع فيه كافة احتياجاته فى العالم الاخر من اوان فخارية وحجرية ونماذج للسفن ولوحات جنزية • وذلك بالاضافة الى النصوص التى تتضمن الادعية التى تكفل له السعادة فى العالم الاخر • وقد كان لكل ذلك اثره فى ضخامة التركة الاثرية المصرية القديمة بسبب العثور على كافة الادلة الاثرية داخل المقابر التى اشترك الملوك وكافة افراد الشعب فى تجهيزها كل حسب امكانياته •

ولكن التطور المعمارى الضخم قد تحقق فى المقابر الملكية الهرمية الشكل وبصفة خاصة ابتداء من الهرم المدرج الخاص بالملك زوسر • وقد اتجه المهندس ايمحتب الى تصميم ذلك الهرم من ست مصاطب بصورة تدريجية فوق بعضها •

والواقع ان ذلك الهرم يمثل تطورا جديدا فى العمارة المصرية القديمة فهو اول بناء كامل من الحجر • ولم يكن ذلك الهرم منفردا بل كان يمثل جزءا من مجموعة جنزية مستقلة خاصة بالملك زوسر يحيط بها سور كبير يتميز بظاهرة الفجوات

المنتظمة فى بنائه • تلك الظاهرة المعمارية التى تعتبر من التأثيرات الحضارية السومرية الاصل قرب نهاية عصور ماقبل الاسرات والتى اقامتها الحضارة المصرية القديمة داخل نطاقها •

ويقع مدخل تلك المجموعة من الجهة الشرقية حيث يؤدى الى ممر يتميز بتواجد اعمدة حجرية تستند على حوائط وهكذا تتوفر الاقطار المصرية اصول العمارة ومراحل تطورها المبكرة •

ومن الاثار الهامة فى الجيزة عثر فى الجهة الجنوبية على حفرتين كبيرتين فتحت احداهما سنة ١٩٥٤ حيث عثر على الاجزاء الخشبية الخاصة باحدى مراكب الملك خوفو وعددها ١٢٦١ قطعة خشبية •
ويلاحظ انه بعد اعادة تركيب تلك المركب بواسطة الحبال التى ربطت بين اجزائها بطريقة تشبه حياكة القماش بلغ اولها ٤٣ر٥٥ مترا بالاضافة الى تزويدها باثنى عشر مجدافا •

اما عن نوع الخشب المستخدم فهو خشب الارز اللبنانى • اما عن وظيفة تلك المركب فقد اختلف العلماء فى هذا الصدد ويغلب انها تنتمى الى الاثاث الجنزى الخاص بالملك خوفو • وقد سبق العثور على كثير من الحفر التى حفرت على شكل مراكب بجوار المقابر منذ الاسرة الاولى وذلك لحاجة المتوفى لها فى العالم الاخر •

ومن الاهمية الاشارة الى ان الفنان المصرى القديم فى تلك المرحلة كان يؤمن بالخلود • ولذلك اتجه الى اقامة مسار حول مقبرة الملك ويتمثل ذلك بصورة واضحة فى الجبانات الغربية والشرقية والجنوبية حول هرم الملك خوفو •

ويعتبر عصر الاسرة الرابعة مرحلة مثالية فى القيم المصرية القديمة من حيث اعتناق الشعب لها لدرجة كبيرة • ولم يقتصر تعبيره عن الخلود والملكية الالهية بتلك التركة الهرمية الضخمة • بل لقد شكل بعض التماثيل المعبرة عن قيمه الدينية ومن اهمها تمثال خفرع من حجر الديوريت والذى يتجسم فيه مفهوم الملكية الالهية بصورة واضحة •

وقد استكمل النحات المصرى القديم تعبيره عن القيم الدينية آنذاك بان نحت خلف رأس تمثال الملك خفرع صقرا يرمز الى الاله حورس مكانه يؤكد الصفة الإلهية للملك خفرع من ناحية • ويشير الى حمايته للملك من ناحية اخرى •

ولقد سبقت هذا التمثال بالذات محاولات اخرى تؤكد الاتجاه نحو التعبير بالنحت عن الثقة الملكية الالهية تتجلى فى تمثال الملك زوسر فى الاسرة الثالثة بسل وتمثال الملك خع سخم فى نهاية الاسرة الثانية •

وقد اتجه الفنان المصرى القديم فى تلك المرحلة الى استغلال كافة الموارد المتوفرة فى محيط بيئته للتعبير عن مفاهيمه • ولم يقتصر على الحجر بمختلف انواعه بل استخدم الخشب والنحاس ايضا فى صنع تماثيله •

ومن الامثلة الخالدة على ذلك تمثالى الملك ببى الاول من ملوك الاسرة السادسة وولده الذين عثر عليهما فى الكوم الاحمر .

وكان اتجاه بين بعض العلماء يميل الى الاعتقاد بأن الفن المصرى القديم في تلك المرحلة بالذات يميل الى الجمود بمعنى ان الفنان لم يكن حرا فى التعبير بصورة تلقائية بل كان مقيدا بما تتطلبه عقائده الدينية . والواقع ان هذا الرأى لايمثل الحقيقة لان الفنان المصرى القديم رغم ارتباطه الوثيق بمستلزمات عقيدته وضرورة التمسك بها ، فانه كان متحررا منها فى مجالات كثيرة وخاصة بالنسبة لتعبيراته الفنية الخاصة بالافراد ولكنه تمسك بنمط معين بالنسبة للملوك . ويرجع ذلك الى عقيدة الملكية باعتبارها قد رفعت مستوى الحكام الى مصاف الالهة مما يتطلب تعبيرا محافظا وبصفة خاصة فى عهد الاسرة الرابعة . وهى مرحلة القمة فيما يتصل بالملكية الالهية المطلقة ومن امثلة النحت المعبر بصورة متقنة تمثالى سرنفرت من الاسرة الرابعة فى ميدوم وفيما يتصل بالنحت الخشبى فان تمثال شيخ البلد الذى عثر عليه فى سقارة المنتمى الى عصر الاسرة الخامسة ليظهر مدى مقدرة الفنان المصرى القديم فى ناحية استخدامه للخشب فى التعبير . كما ان لوحات حسى رع الخشبية المنتمية الى الاسرة الرابعة تظهر بوضوح تلك القدرة ايضا والواقع ان الفنان المصرى القديم قد نجح فى استخدام كافة الموارد بطريقة تتسم بالدقة والصنعة الفنية بدرجة متفوقة فى تلك المرحلة .

وان آثار الملكة حتب حرس زوجة الملك سنفرو وام الملك خوفو والتى عثر عليها فى بئر شرقى الهرم الاكبر والتى تتضمن المظلة بالملكة وستائرها وكذلك المحفية وادوات الزينة المختلفة لتؤكد ذلك فى مجال الصناعة والنقش على الاثاث المكسو برقائق ذهبية .

ولم تقتصر الحضارة المصرية فى عصر الدولة القديمة على مجالات الهندسة المعمارية والفنون المختلفة بل تعدتها الى مجالات العلوم والرياضيات وتنبغى الاشارة بالذات الى تقدم الطب المصرى القديم ، وتسجيل بردية ادوين الجراحية المنتمية الى تلك المرحلة مدى تطور جراحة العظام وتقدمها فى ذلك الوقت .
وتعتبر تلك الوثيقة من اولى الوثائق التاريخية المتعلقة بتاريخ الطب .

وعلى الرغم من ذلك التطور الحضارى فى عهد الدولة القديمة ، فقد بدأت مظاهر التحول فى التفكير المصرى القديم قرب نهاية تلك المرحلة لعدة اسباب جوهرية تتركز بصفة خاصة فى الجوانب الاقتصادية والسياسية .

فقد كثرت مظاهر الانتاج المادى وبصفة خاصة العمارة الدنيوية والاخروية وكافة المشروعات المدنية والاقتصادية والحربية فى كيان المجتمع لاستنزافه قسطا كبيرا من قدرات الدولة . وانعكس ذلك على النظم المصرية لان اساس تلك النظم يقوم على اعتقاد الانسان المصرى القديم فى الوهية الملك مما ينجم عنه ضمان استقرار الشئون الاقتصادية وعدم اختلالها .

ومن ناحية اخرى ازدادت ظاهرة التنافس الدينى بين المراكز الدينية ، كما ازدادت المنح والاعفاءات الضريبية مما اثر ايضا على كيانه الاقتصادى . ولم يقتصر التحول عند ذلك الحد ، بل ظهر فى المجال السياسى الخارجى حيث عاصرت نهاية الدولة القديمة مرحلة التحركات البشرية وبصفة خاصة السامية فى مناطقة

جنوب غربي اسيا والتي اتبعت احدى شعبها الى منطقة شبه جزيرة سيناء شرقي الدلتا . مما ادى الى انقلاب المفاهيم المصرية القديمة من حيث كونها اساس تعتمد على توفير الملك الاله الامن والطمأنينة للوطن المصري القديم . وبدأت بوادر التخلي من حرفية تلك القيم تظهر خلال الاسرتين السادسة والخامسة وقد اتجه الملك شبسي كاف من ملوك الاسرة الخامسة الى اتخاذ مصطبة كبيرة بدلا من بناء هرم كمقبرة لهم ، كما بدأت تظهر اتجاهات جديدة فيما يتصل بالنقوش الخاصة بحجرة الدفن في الاهرامات .

وقد ظهرت مجموعة كبيرة من النصوص الهيروغليفية المعروفة باسم نصوص الاهرام وهي تتضمن الكثير من التعاويذ والصيغ الدينية الهادفة الى معاونة المتوفى في حياته الاخروية ، وقد سجل الملك اوناس اخر ملوك الاسرة الخامسة تلك النصوص على جدران حجرة الدفن والحجرة المؤدية اليها . ولكن التحول في وصل مداه البعيد في عصر الانتقال الاول الذي يعرف ايضا باسم عصر الثورة الاجتماعية الاولى على اساس كونه مرحلة انقلاب في القيم الاجتماعية في مصر القديمة . وتعتبر تلك المرحلة من اخطر مراحل التاريخ الانساني الكبير من حيث كونها محاولة انسانية تهدف الى تحقيق المساواة والعدالة في المجتمع آنذاك .

وقد عثر على عدد من الوثائق الهامة المنتمية الى تلك المرحلة والتي تشهد بطريقة واضحة على ذلك مثل وثائق الفلاح الفصيح والبائس من الحياة وغيرها .

وفيما يلي بعض مقتطفات من تلك الوثائق :ـ

" خلقت (ايها الاله) الرياح الاثيرية التي يستطيع ان يستنشقها كل انسان كزميله

الذى يسيطر فى زمانه • وخلقت الفيضان العظيم وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجل الغنى وخلقت كل رجل مثل زميله • • "

ولم يكن للكاتب المصرى القديم ان يتجه الى تلك الجوانب الهادفة للعدالة الاجتماعية الا بعد تلمسه لواقع التغيير فى القيم المصرية القديمة •

وتنطق النصوص المصرية بالعديد من امثلة المناداة بالعدل • ويتجلى ذلك فى وثيقة الفلاح الفصيح :

" ان الذى يوزع الحق يجب ان يكون منصفا ومدققا ومضبوطا "

مثل كفتى الميزان • •

هل تخطىء كفتا الميزان • • • ان الشريقلل الحق • • "

اما نص اليائس من الحياة فقد عبر بطريقته الخاصة عن الذبذبة النفسية التى واجهت الشعور الانسانى فى تلك المرحلة • فقد تردد الانسان المصرى القديم ازاء الثورة ضد قيمه السابقة ودخل فى دور من التشاؤم وصل الى درجة اليائس من الحياة •

ولكن سرعان ما حل الامل والتفاؤل بالمستقبل بعد تحقيق العدالة الاجتماعية •

ولقد عبر برستد عن تلك المرحلة الهامة بانها تمثل فجر الضمير الانسانى والواقع انها فى هذا المجال تعتبر من اولى محاولات الانسان الرامية الى تعيين العدالة والديمقراطية •

ولذلك يمكن القول ان الشخصية الذاتية للفرد قد تبلورت فى مجتمع تلك المرحلة

ونجحت تلك الحركة الفكرية فى تعديل المفاهيم المصرية القديمة وتحقيق العدالة الاجتماعية فى حدود معينة ، مما ادى الى الاستقرار مرة اخرى فى بداية الدولة الوسطى التى حملت صفة الملكية العادلة مكتسبة اياها من بعد التجارب المريرة التى خاضتها الملكية المطلقة فى عصر الانتقال الاول وقد حاول الفنان المصرى القديم التعبير عن مظاهر تأثيرات تلك المرحلة فى النحت ومن ابدع ما انتجه فى هذا الصدد رأس الملك سنوسرت الثالث من الاسرة الثانية عشرة وتظهر فيهما الملامح الواقعة المعبرة بصورة واضحة عن ذلك التحول فى مفهوم الملكية الالهية ،

((الدولـــــة الوسطـــى))

من اهم مراحل البناء فى تاريخ مصر الفرعونية مرحلة الدولة الوسطى الـــــتى تتضمن الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة • وقد جاءت هذه المرحلة بعد التجربة العنيفة التى خاضتها مصر مع الجوانب السياسية والاجتماعية خلال عصـــر الانتقال الاول حيث شعر الانسان لاول مرة انسانيته وحقوقه ومطالبه كمواطـــــن • ونجح ملوك الاسرة الحادية عشرة بقيادة الملك نيت حتب رع منتوحتب فى اعـــادة التحكم السياسى فى اقاليم وادى النيل الادنى وتوحيد مصر مرة اخرى بقيادة مدينة طيبة وانهاء السيادة الاقليمية بصفة خاصة فى كل من اهناسيا ومنف •

وحاول قادة الاسرة الحادية عشرة وكذا الاسرة الثانية عشرة تقوية كيان الحكومـــة المركزية وكان اسلوبهم فى هذا الموضوع يتركز فى انشاء جيش مصرى يتبع الفرعـــون بدلا من حرس عناصره ولحسرة المالكة •

ومن ناحية اخرى بدأت الاسرة الثانية عشرة نظام الاشتراك فى الحكم بمعـــنى تأمين مستقبل الاسرة الحاكمة عن طريق قيام ولى العهد او من يختاره الفرعـــــون بدور مشترك مع الفرعون نفسه فى حكم مصـــر • ويلاحظ وجود الحوليات السنويـــة التى تحمل اسم الفرعـــون والاحداث التى حدثت فى عصره وبصورة متكاملة مع شـــتى احداث الامير المشترك معه فى الحكم • وذلك من اجل تأمين استمرارية النظـــام السياسى فى الدولة • والواقع ان عصر الاسرة الحادية عشرة يعتبر بمثابة مرحلة تفرغت لاعادة تحقيق الوحدة السياسية المصرية وانبعثت بعد ذلك الانشطة السياسيـــة والحربية فى عهد الاسرة الثانية عشرة •

ويذكر الباحث ان الدراسة فى تاريخ مصر فى عهد الاسرة الثانية عشرة الذى يعتبره المؤرخون عصرا ذهبيا فى تاريخ مصر الفرعونية نظرا لما اتسم به من ثـراء فى كافة الجوانب الحضارية المادية والفكرية وبصفة خاصة فى مجال الادب المصرى القديم واللغة المصريه التى وصلت الى قمتها النموذجية فى عهد الاسرة الثانية عشـرة .

فاول ملوك الاسرة الثانية عشرة هو الملك امنمحات الاول الذى كان يحمـل اساسا فى منصب الوزير لاخر ملوك الاسرة الحادية عشرة ..

ومن اهم الخطوط السياسية الداخلية التى نجح امنمحات الاول فى تحقيقهـا هو قيامه بتحديد الحدود الداخلية بين الاقاليم المصرية حتى يساعد على الوحدة الداخلية وعدم قيام نزاع اقليمى فيما بين تلك الاقاليم .

ولم يقتصر على هذه الخطوة .. بل اتجه الى تحريم قيام حكام الاقاليم بتاريخ احداثهم وانشطتهم الداخليه فى سنوات حكمهم وتدعيما لوحدة مصر السياسيـة اتجه الى نقل العاصمة المصريه من مدينة طيبة الى مواقع اللشت حتى يساعـده هذا الموقع المتوسط فى التحكم فى ارجاء كل من مصر العليا ومصر السفلى ومـن ناحية السياسة الخارجية نجح امنمحات الاول فى تأمين مصر وخاصة فى حدودهـا الشمالية الشرقية وليبيا الغربية بل والنوبيه ؛

واتجـه الى تدعيم هذا التامين ببناء الحصون والقلاع والحوائط الدفاعية ،

ومن الاهمية الاشارة الى ان الملك امنمحات الاول قد اشرك ابنه الذى اصبح فيما بعد سنوسرت الاول فى بعض المهام العسكرية الدفاعية .

وعلى سبيل المثال ارسله لمحاربة العناصر الليبية الحامية الاصل التى كانت تتسلل على حدود مصر الغربية . وهذا بجانب النشاط الاقتصادى التقليدى الذى كان يقوم به الملوك المصريين منذ بداية العصر التاريخى وهو ارسال بعثات الى شبه جزيرة سيناء والى ايضا الصحراء الشرقية للحصول على بعض المواد المعدنية التى تتطلبها المشروعات المعمارية والفنية والمصرية القديمة .

وكما سبقت الاشارة فقد اعتبر العلماء عصر الملك امنمحات الاول هو بداية عصر ذهبى فى التراث الادبى المصرى القديم .

ومن اهم الوثائق الخالدة على ذلك النصائح التى سجلها هذا الملك والتى سجلها هذا الملك والتى تتضمن تراثا اخلاقيا رائعا .

وعلى سبيل المثال تقول بعض الفقرات بتلك الوثيقة :

(لا تثق بأخيك ، ولا تقرب لك انسانا ..) الذى اكل خبزى احتقرنى، قامت ضدى مؤامرة بعد العشاء فى ساعة راحتى .. كن قاسيا على اتباعك فالناس لا يهابون بمن يخيفهم .. "

والواقع ان هذه الفقرات تعبر عن بعض المشاكل المجتمعية التى واجهت الملك امنمحات الاول فى حياته العامة والخاصة وقد اشار فيها الى حادثة المؤامرة التى دبرت ضده وكانت مؤامرة نسائية ولكنها لم تثمر فى تحقيق هدفها وهو قتل الملك ومن الادب النموذجى فى تلك الفترة والذى وصل الى مستوى الشهرة الدولية

قصة سنوهى وهى قصة رائعة مصرية صميمة فى اسلوب كتابتها واحداثها الوطنية الصميمة فقد ترك سنوهى مصر فى تلك الفترة العصيبة التى خشي فيها على نفسه من احتمال اتهامه بالمشاركة فى قلب نظام الحكم وهرب بنفسه وتحمل المشاق فى خلال عبوره شبه جزيرة سيناء وصوله الى ارض فلسطين وقد استخدم المصطلحات التى تنم تلك المشاق فى سرده لتلك القصة •

ثم تمكن من الاستقرار فى فلسطين وتكوين اسرة سعيدة حيث عاش هناك الى ان وصلت به الحياة الى مرحلة شعر فيها بالحنين الى ارض الوطن ليس فقط على مستواه القلبى او الشخصى ولكن ايضا للحنين الى القيم المصرية والتى يؤمن بها ونشأ على الايمان بها وعلى رأسها عقيدة الخلود حيث خشى ان يتوفاه الله وهو فى ارض اجنبية فلا ينعم بالخلود فى ارض الوطن •

وهذه المشاعر تجمع بين صفة الوطنية وعقيدة الخلود • وبدأ يراسب الملك طالبا السماح له بالعودة الى ارض الوطن حيث تحقق مراده • وقد ترك الملك امنمحات الاول ابنه الملك سنوسرت الاول الذى اتبع نفس العقيدة الذى سار عليه والده وذلك باشراك ابنه الاكبر امنمحات الثانى معه فى الحكم • وسجلت الوثائق المصرية نشاط الملك سنوسرت الاول فى مجال الاستغلال الاقتصادى لامكانيات منطقة النوبة السفلى والعليا • وبصفة خاصة فى معدن الذهب وهو بمعنى المسمى باللغة المصرية " نبو " وهو نفسه الاسم الذى تعنيه كلمة النوبة • وقد وصل سنوسرت فى نشاطه العسكرى والاقتصادى فى النوبة الى منطقة كوش التى سجلت لاول مرة فى النصوص

المصرية فى عهده والتى تمثل اقليما اما من اقاليم النوبة والتى تتصل بالتاريخ المصرى اتصالا وثيقا خاصة العصور التالية خاصة الدولة الحديثة .

ومن الاحداث الهامة التى تتميز بها عصر سنوسرت الاول اتجاهه ايضا الى منطقة الواحات فى الصحراء الغربية وتسجيل نشاطه الاقتصادى والاستكشافى هناك فى وثائقه . وقد استمر هذا النشاط الاقتصادى بصفة خاصة فى عهد خليفته امنمحات الثانى حيث نجح فى القيام بعدد من الرحلات الاقتصادية فى منطقة بونت فى القرن الافريقى (الصومال) .

ومن الشخصيات الهامة فى عصر الاسرة الثانية عشرة شخصية الملك سنوسرت الثانى الذى خلف لنا عددا من الوثائق الهامة فى التاريخ الاجتماعى المصرى القديم وعلى سبيل المثال ماكشفت عنه التنقيبات الاثرية فى منطقة كاهون قرب الفيوم والتى ادت الى العثور على قرية مساكن العمال وهى القرية التى عثر فيها على عدد من اوراق البردى التى تتحدث عن المجتمع المصرى فى تلك الفترة .
وهى الحقيقة فى غاية الاهمية لانها تعطى صورة عن حياة الانسان المصرى وبصفة خاصة طبقة العمال فى المجتمع المصرى آنذاك . ومن اهم الوثائق المنتمية الى عصره ماسجل على جدران مقبرة احد موظفيه وهو (خنوم حتب) من مناظر هامة تعبر عن بعثة بدوية سامية وافدة الى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء ويبلغ عدد افرادها ٣٧ فردا بسماتهم السامية الواضحة سواء من ناحية ملابسهم او من ناحية ملامحهم السامية كتركيبهم اللحى ..

ويغلب ان هذه المجموعة السامية قد وفدت الى وادى النيل الادنى لاسباب اقتصادية • ولكن العلماء في المدارس الاوربية والامريكية قد اتجهوا الى تفسير هذه المجموعة تفسيرا وثيقا يتصل بما جاء في نصوص العهد القديم عن وفود شخصية ابراهيم عليه السلام الى مصر والواقع ان الوثائق المصرية لاتشير بصورة قاطعة الى هذه الحقيقة التى جاءت في الكتاب المقدس • وليس معنى ذلك انها بعيدة عن الاحتمال ولكن في نفس الوقت ينبغى التحفظ في تفسير هذه المناظر على كونها ترتبط بمجئ ابراهيم عليه السلام الى مصر بصورة قاطعة •

لا شك ان المناظر تتضمن هؤلاء الساميون ولا شك ان ابراهيم عليه السلام عندما خرج من موقع اور السومرى في جنوب العراق ثم اتجه الى موقع حران شمال سوريا ودخل ارض الاناضول بحوالى سبعة كيلو مترا • ثم اتجه بعد ذلك الى موقع الخليل (جرون) ومنها الى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء •

ومن الشخصيات الهامة في عهد الاسرة الثانية عشرة شخصية الملك سنوسرت — الثالث الذى سجل حياته بعدد من المشروعات الحربية الخالدة والتى لاتزال آثارها قائمة حتى الان وهى في موقعيس سمنة وقمنة في النوبة حيث اقام الحصنين الشهيرين بهذا الاسم •

وايضا اعماله النهرية الهامة وهو تحديد سمات الرى النهرى عبر الحواجز الصخرية في الجنادل النوبية حتى تتمكن الملاحة النهرية في منطقة النوبة من تحقيق

لعراضها الحربية والاقتصادية •

وقد تنبه فى الحكم شخصية خالدة فى تاريخ الاسرة الثانية عشرة وهى الملك — امنمحات الثالث الذى يعتبر عصره من انجح الفترات فى التاريخ المصرى القديم وقد ابدى اهتماما خاصا باقامة المشروعات الهندسية المتعلقة بتيسير مهام الرى المعبود المصرى القديم فى منطقة الفيوم •

وهذا يدل على الاهتمام البالغ بالشئون الاقتصادية الداخلية وتيسير عملية الانتاج الزراعى وتوفير المخزون المائى فى مشروعات رى الاراضى الزراعية المختلفة • وقد ادى انشاء خزان الفيوم الى رفع مستوى اقليم الفيوم فى المجال الزراعى الى مرتبة عالية فى الخصوبة والانتاج ومما يدل على نشاط امنمحات الثالث فى المجال الاقتصادى تشجيعه لظاهرة التبادل الاقتصادى مع مواقع بيبلوس (جبيل) على الساحل اللبنانى •

ويعتبر ذلك استكمالا للنشاط الاقتصادى الذى سبق تحقيقه فى عصر الاسرة الخامسة •

والواقع ان قيام الملك امنمحات الثالث بعمل تنظيم اداري في الاقاليم المصريـــة بطريقة متطورة لايدل على قدرة ادارية متفوقة ساعدته على تحقيق العديد مـــن المشروعات العمرانية • وعلى سبيل المثال العمارة ــ الشهيرة باللابيرانث فـــي موقع هوارة في اقليم الفيوم •
والذى قام بزيارته المؤرخ اليوناني هيرودوت واعتبره اعجازا معماريا منقطع النظـير • ويلاحظ ان هذا المبنى الهائل يتميز بان عدد حجراته يماثل عدد اقسام مصـــر الادارية وكما تتميز عمارته بالقدرة المعمارية الكبيرة •

ولم يرث امنمحات الثالث في حكم مصر ملوك عظام في مستواه مما ادى الى اقتراب تلك الاسرة من نهايتها على اثر توصل عدد من الملوك الضعاف الى كرسي الحكم • والواقع ان الاسرة الثانية عشرة تعتبر من الاسرات المصرية الناجحة في اعادة الامن والاطمئنان والتفوق الى السيادة المصرية والتوصل في الصلات الاقتصادية الـــى المستوى الدولي المحيط بها •

وهناك من الشواهد الاثرية مايشهد على ذلك حيث عثر على عدد من الاختـام بين والجعارين المصرية في المواقع في شرقي البحر المتوسط بل في الجزر الشرقيـة ايضا منه وبصفة خاصة جزيرة كريت ومن ناحية اخرى عثر ايضا على الفخار اليوناني في المواقع الاثرية المصرية مما يؤكد ان الصلات الدولية كانت متبادلة في تلك الفترة •

((عصر الانقسـان الثانـي))

ويبدأ بعد الاسرة الثالثه عشرة التى اتخذت مدينة طيبه مركزا لها والاسرة الرابعة عشرة والتى اتخذت سخا فى الدلتا عاصمه لها بينما الاسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة كانتا تمثلان عصر الهكسوس فى مصر واخيرا بداية الاسرة الـ السابعة عشرة ومقرها مدينه طيبة •

وعلى ذلك يتضح ان عصر الانتقال الثانى لايتميز بالوحدة السياسية المصرية القديمة بل يتسم بالانقسام الداخلى وتفتت الوحدة المصريه • وكانت هذه الاسرة خاصة الثالثة عشرة والرابعة عشرة تعاصر الوحدة الاخرى بينما كانت الاسرة الثالثة عشرة فى مدينة طيبة كانت الاسرة الرابعة عشرة فى مدينة سخا • وكانت الظاهرة الواضحة فى حكم هاتين الاسرتين هى ضعف الحكام الذين لم يتمكنوا من اعادة مصر الى سيادتها كدولة متحدة •

وقد ادى ذلك الى تمكن العناصر الاجنبية الوافدة من الشرق من دخول مصر وبداية اول حكم اجنبى لمصر •

فقد ساد عصر الانتقال الاول وجود حركة هجرة بشرية خارجة اساسا من الهند التى كانت ولاتزال مركزا بشريا هائلا من الطبيعى ان يلفظ من ان لاخر الفائض من قدراته البشرية تحقيقا لاعبائه الاقتصادية ومن الطبيعى ان تتجه الهجرة –

الهندية التي خرجت في تلك الفترة تجاه الغرب بدلا من الشرق لانه تتوا جد في شرق القارة الاسيوية مجموعة بشرية هائلة في الصين وهي مجموعة من الشعوب المغولية واتجهت الهجرة الهندية إلى الغرب في طريقها الى منطقة الشرق الادنى القديم ومنها الى اوربا •

وقد اتجهت في هجرتها عبر الهضبة الايرانية كما اتجهت مجموعة اخرى منها الى الالتفاف حول بحر قزوين والاتجاه بعد ذلك الى مناطق الاناضول ومنها الى اوربا •
اما المجموعة الهندية التي وفدت الى الشرق الادنى القديم فقد ادت الى تغذية الهضبة الايرانية بالعناصر الهندية والتي اطلقت عليها فيما بعد العناصر الميدية والكياثيلة والفارسية •

وفي منطقة شمال سوريا العناصر الحورية والسومرية وهي العناصر التي كونت مملكة ميتاني (نهارين) والعناصر الحيثية في سحور وشرقي الاناضول • وقد واجهت هذه العناصر الهندية الاصل الحضارات السامية والشعوب السامية الذائنة اساسا في منطقة الشرق الادنى القديم فحدث نوع من الاندماج • فيما بينها خاصة في منطقة لسوريا وفلسطين وقد خلت هذه العناصر الهندية الممتزجة بالعناصر السامية الى مصر واطلق عليها المصريون اسم (الهكسوس) اى الحكام الرعاة وتمكنوا من الاستيلاء على مصر حتى مصر الوسطى •

ومن العوامل الهامة التي ساعدت الهكسوس على عملية تحركهم السريع واحتلالهم مصر احضارهم وسائل جديدة للانتقال وهي الجياد لاول مرة في التاريخ المصرى

القديم يدخل الحصان كوسيلة انتقال سريعة تخفف جميع المهام الانتقالية سواء مهام مدنية او مهام حربية • وقد كان لهذه العناصر جاذبية بالنسبة للحضارة المصرية التي سرعان ما اقتبست هذه الصفة الجديدة وتكونت لدى مصر فرق من الخيول وايضا استخدمت ليس فقط في الركوب ولكن لجر المركبات العسكرية والمدنية وادت السى نقلة هامة في مجتمع الدولة الحديثة في العصور التالية •

وقد اعتبر المؤرخون الاسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة خاصتين بعصر الهكسوس في مصر الذى دام مائة وخمسين عاما •

ورغم ان آثار الهكسوس في مصر ضئيلة الى حد كبير نظرا لقيام المصريين فيما بعد بتحطيم كافة آثارهم باعتبارهم حكام اجانب احتلوا مصر فقد عثر الاثريون على بعض الالقاب الخاصة بحكام الهكسوس سواء في مصر او فلسطين وبلاد الرافدين وايضا في جزيرة كريت •

ولا شك ان هذه الاثار تدل على ماسبق الاشارة اليه من انتشارهم في المنطقة •

وقد حاول الهكسوس في مصر التأقلم في مصر • بل اندمجوا فعلا في الحضارة القديمة واتخذوا الالقاب المصرية وايضا عبدوا الالهة المصرية القديمة ولكنهم لم يندمجوا في الحياة المصرية الى درجة النصر الكامل لان سماتهم الاصيلة كانت التحكم في المنطقة واستغلالها اقتصاديا ومحوا مقاومة محلية ضدهم ولذلك اساءوا الى الحضارة والى الشعب المصرى القديم وقاموا بهدم بعض المعابد المصرية •

وعلى ذلك يمكن القول ان عصر الهكسوس هو فعلا عصر احتلال لمصر وحاول الهكسوس

خ له المتعربين الشعب المصرى فى البداية عن طريق تقبل الحضارة المصرية •
ولكن سرعان ماعاودتهم سماتهم الاولى واتجهوا الى الاستمرار فى محاولة المصريين
وكانت هذه الحقيقة الاخيرة بمثابة الحافز المباشر لقيام صحوة مصرية صميمة تقوم بمحاربة الهكسوس وطردهم من وادى النيل الادنى واستخدام الحتهم وعلى رأسها الخيل فى تحقيق هذه المهمة الدفاعية عن ارض الوطن •

وقد تحقق ذلك فعلا فى النصف الاول من الاسرة السابعة عشرة وهى الاسرة المصرية القوية التى كانت تتركز فى مدينة طيبة ومن اهم شخصياتها الملك سقنن رع الذى لا يزال جثمانه الخالد قائما فى حجرة المومياوات الملكية فى المتحف المصرى بالقاهرة الذى يتضح فى وجهه حتى الان الجروح الكبيرة المؤكدة لاثار خوضه لاحد المعارك الحربية ضد الهكسوس وانه كان احد ضحاياها •

ومن الوثائق الهامة فى الصراع بين مصر والهكسوس الرسالة التى بعث بها الملك ابو فيس الهكسوسى الى الملك المصرى فى طيبة يقول له فيها ما معناه ان فرس النهر فى طيبة يقلق منامه فى اواريس فى شرق الدلتا او بمعنى اصح انه يريد ان يوقف التحركات الهادفة ضده من الجانب المصرى •
وهذه الوثيقة المعروفة ببردية ساليية بلندن • وقد حسم الموقف فى هذا الصراع تبوأ الملك كامس حكم الاسرة السابعة عشرة فى طيبة والتى تذكر الوثائق وعلى رأسها لوحة كارنافون الحوار المصيرى الذى اجراه الملك كامس مع رجال حاشيته بعد ان وصل الى

مرحلة خطيرة فى الاحساس بحمل المسئولية وبلاده موزعة بينه وبين الهكسوس الاجانب فى مصر الوسطى والدلتا • وتقول الوثيقة ان الملك قال ما معناه الى قواده المصريين اريد ان احدد موقفى ومصيرى فاننى هنا فى طيبة بينما هناك امير اجنبى يحكم فــى اواريس فى الدلتا وامير اخر نوبى يحكم فى كوش وانا هنا بين العامى والنحسى • واريد ان اخلص مصر من اولئك الاعداء وعلى هذا بدأت حرب التحرير فى مصـــــــر سقنن رع وكامس بصفة خاصة • ولكن فى عصر اخيه يمح مس (احمس الاول) الذى — اعتبره العلماء آخر ملوك الاسرة السابعة عشرة واول ملوك الاسرة الثامنة عشـــــــــرة فقد تمكنت مصر بقيادته الى تحقيق التحرير الكامل لمصر بالقوات البرية والقوات النهرية والانتصار فى العديد من المعارك حيث تمكن المصريون فعلا من طرد الهكســــوس خارج وادى النيل ولاحقوهم حتى جنوب فلسطين وذلك تحت القيادة العسكرية لعدد من القواد المصريين المباقرة الامين تركوا سجلاتهم النصية منقوشة فى مقابرهم وعلـــى رأسهم القائد المصرى (احمس ابن اباتا) (واحمس ابن نخبت) ونجح اولئك القادة فى عهد الملك احمس الاول من تحرير مصر وانهاء الاحتلال الاجنبى وعادت مصر دولة مستقلة متحدة مدعمة بجيش قوى يحتل فيه سلاح الفرسان اولوية فى قواته العسكريــــة وبدأ بذلك عصر جديد فى التاريخ المصرى هو عصر الدولة الحديثة الذى يستمر بدوره حوالى خمسمائة سنة خلال النصف الثانى من الالف الثانى قبل الميلاد ويتضمــــــن الاسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين •

الدولـــة الحديثـــة

تعتبر هذه المرحلة مرحلة جديدة في تاريخ مصر الفرعونية في كافة المجالات السياسية الداخلية والخارجية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وذلك بعد التحقيق انتصاراتها الحربية في عهد الملك (تحتمس الاول) اتجهت الى دائرة التوسعات العسكرية تجاه الشمال وتمكنت من التحكم في كل من سوريا ولبنان وفلسطين في كافة عصور حكام الدولة الحديثة لحد كبير • ومن ناحية اخرى اتجهت الى تحقيق التوسع في جنوب مصر حتى وصلت الى موقع جبل برعل شمال الخرطوم في الجنوب •

وبذلك اصبحت مصر وبصفة خاصة طيبة عاصمة الدولة تمتد مساحتها من قرقميسة (جرابلس) شمالا حتى جبل برعل جنوبا ونتج عن هذا التوسع العسكري والنفوذ السياسي في المناطق الا انها لـ على مصر ثروات ضخمة نتيجة لجباية الضرائب والغنائم العديدة الناتجة عن الحملات العسكرية وظهر مجتمع جديد في العاصمة المصرية طيبة حيث لاول مرة دخلت فئات من الاسرى من كافة العناصر في الامبراطورية المصرية واصبحت تكون طبقة لها اعتبارها في المجتمع المصري القديم يمكن الاستفادة منها في كافة العمليات المعمارية التي اتجه الى اقامتها ملوك الدولة الحديثة كذلك من الناحية الاقتصادية وفدت الى مصر فئات من التجار السوريين الخاصة الذين يحملون انماط من المنتجات السورية وقد عبر عن ذلك بصورة رائعة الملك تحتمس الثالث والتى

سجلها على جدران الذى ترك فيه آثاره فى اقصى شرقى معبد الكرنك حيث قاعة الاحتفالات الكبرى الخاصة بالملك تحتمس الثالث وايضا الجدران التى سجل عليها حولياته الشهيرة •

وقد نقش عليها ايضا بعض الامثلة من النباتات والحيوانات السورية التى احضرها الى مصر • وقد استدعى وجود هؤلاء الاجانب فى العاصمة المصرية ضرورة وجود بعض الالهة الاجنبية بل وبعض الكلمات الاجنبية الاصل ويمكن ملاحظة ذلك باللغة المصرية الخاصة بالدولة الحديثة وعصر الانتقال الثالث حيث سارعت بعض القواعد والكلمات الجديدة على اللغة المصرية الكلاسيكية وانعكست ايضا هذه السمات الاجنبية على التعبير الفنى حيث يلاحظ وجود نوع من عدم التمسك الحرفى بالقواعد الفنية المصرية القديمة •

وهكذا يتضح ان السمة شبه الدولية التى تمثلت فى تاريخ مصر فى عصر الدولة الحديثة التى تمثل عصرا جديدا فى نمطه واسلوبه ويمكن اعتبار الثورة الاتونية ومحاولات التوصل الى الوحدانية المتمثلة فى عبادة الاله آتون • نموذجا رائعا لنتائج هذه السمة شبه الدولية فى تاريخ مصر فقد اتسع افق العقلية المصرية وشملت لاول مرة عالمية الاله المصرى وانه لم يعد مختصا بكيان المصريين الدينى ولكن شمل بنى الانسان قاطبة واصبحت النظرة المصرية فى العبادة لكافة البشر فى حدود المنطقة التى تعيشها الحضارة المصرية القديمة •

وفى مجال السياسة المصرية الداخلية يمكن القول انه ظهرت طبقات جديدة فى مجتمع العاصمة المصرية طيبة وعلى رأس هذه الطبقات المتميزة طبقة الكهنة فقد برزت كهانة آمون بصورة واضحة فى عهد الدولة الحديثة بعد ان ازدادت الثروات واتسعت الضياعات التابعة للمعابد الضخمة الخاصة بالاله آمون اله الدولة والامبراطورية فى عصر الدولة الحديثة وكان لهم تأثير بالغ على فراعنة تلك الدولة ومما يستدل على ذلك ان حركة الاتونية رغم عمقها الفكرى فانها قد فشلت بسبب نفوذ كهانة آمون القوى على الشعب المصرى الكبير وتمكن من العودة الى السيادة الدينية بعد فكرة العمارنية مباشرة ويمكن القول ايضا ان رجال الدين قد احتكروا تلك الثروات الى درجة انه فى نهاية الدولة الحديثة وبداية الاسرة الحادية والعشرين اتجه بعضهم الى امتلاك المكانة السياسية ومنصب الفرعون ويتمثل ذلك فى عهد حريحور اول ملوك الاسرة الحادية والعشرين .

وطبقة اخرى احتلت مكانة بارزة فى المجتمع المصرى وهى طبقة رجال الجيش التى تحققت على ايديها الانتصارات العسكرية الهائلة وبصفة خاصة فى عهود تحتمس الثالث وامنحتب الثانى من الاسرة الثامنة عشرة ورمسيس الثانى من الاسرة التاسعة عشرة ورمسيس الثالث من الاسرة العشرين وقد تعالى بعض القواد الى منصب الفرعون فى الفترات التى واجهت عدم القدرة على تحقيق متطلبات مسئوليات الفرعون ويتمثل ذلك فى شخصية الملك حور محب وهو شخصية عسكرية لها قدرتها الفائقة خلال عدد من عصور الحكام المصريين الى ان تمكن الانفراد بالسلطة فى بداية الاسرة التاسعة

عشرة وتبغى الاشارة ايضا بأن عصر الدولة الحديثه كان عصرا مهيبا من ناحية التراث المعماري الخالد ويتجسم ذلك في العديد من المعاثر المصرية وبصفة خاصة المعاثر الدينية القائمة حتى الان في معابد الاله آمون في الكرنك والاقصر والمعابد الجنزية الضخمة في الرمسيوم والدير البحرى بل والمعابد المنحوتة في الصخر من عهد رمسيس الثاني في ابو سمبل وكذلك المعابد الكائنة في كافة المواقع المصرية وبصفة خاصة في ابيدوس في عهد كل من الملك سيتى الاول ورمسيس الثاني •

وتنبغى الاشارة ايضا الى الثراء الحافل في الحياة المصرية والتي يمكن ان تتمثل في المخلفات الرائعة في الفن وكذلك الحلى النادرة حيث عثر على الاواني الذهبية وكذلك الاثار التي يمكن اعطاء بعض النماذج منها في مقبرة توت عنخ آمون حيث يلاحظ ان التابوت الاول لهذا الملك مصنوع من الذهب الخالص ويزن اكثر من مائة عشرة كيلو جرام • هذا بالاضافة الى قناعه المرصع بالاحجار الكريمة ونصف الكريمة هذا بالاضافة الى التابوت الخشبي المكسو بالرقائق الذهبية والتابوت الثالث وكلها داخل التابوت الحجرى الهائل من حجر الكوارتز المغطى بالغطاء الجرانيتي وذلك داخل المقصورات الملكية الثلاثة المكسوة بالرقائق الذهبية داخل حجرة الملك ••

اما فيما يتصل بالاثاث الملكي والحلى الملكية وغير ذلك من الاثاث الرائعة الخالدة فيصعب الاشارة اليه بالتفصيل لانه يتطلب العديد من الوقت لتحقيقه ولكنه يمثل القدرة الفنية الرائعة والنادرة في تاريخ اللغة على مستوى الانسانية جمعاء وتركز الدولة — الحديثة في الاسرة الثامنة عشرة حيث قام بالحكم خلالها العديد من الفراعنة وتنبغى

الاشارة بصفة خاصة الى كل من احمس الاول وامنمحتب الاول وتحتمس الاول وتحتمس الثانى وحتشبسوت ثم تحتمس الثالث وامنحتب الثانى وتحتمس الرابع ثم عصر العمارنة الذى يتمثل فى كل من امنحتب الثالث وامنحتب الرابع ثم يأتى بعد ذلك الملوك سمنخ رع وتوت عنخ آمون وتتى .

اما الاسرة التاسعة عشرة فتتضمن بصفة خاصة الملوك حور محب ورعمسيس الاول وستى الاول ورعمسيس الثانى واخيرا الاسرة العشرين واهم شخصياتها الملك رعمسيس الثالث ثم مجموعة من الملوك الضعاف يدون رعمسيس الرابع حتى رعمسيس الثانى عشر .

وفيما يلى دراسة مركزة للنشاط السياسى والحضارى المصرى فى عهد الاسرة الثامنة عشرة ٠

يمكن تقسيم تاريخ مصر خلال عصر الاسرة الثامنة عشرة الى مجموعة من الاقسام اولها النشاط العسكرى الذى بدأت به هذه الاسرة والذى تحقق بواسطته الانتصار المصرى على الهكسوس وبداية استعادة مصر لمكانتها السياسية بل واستمرار هذا التقليد المصرى بقيام حكام هذه الاسرة بمتابعة الحملات العسكرية الواحدة تلو الاخرى فى فلسطين ولبنان وسوريا والنوبة من اجل تأمين الحدود المصرية الشمالية الشرقية وايضا الجنوبية ٠

وبدأت هذه الحملات العسكرية على نطاق واسع فى عهد الملك تحتمس الثالث بواسطة القوات البرية والاساطيل البحرية ٠ وقد سجلت هذه الانتصارات على جدران المعابد وبصفة خاصة معابد الكرنك ٠

ومن اهم المعارك الخالدة معركة مجدو (تل المتسلم بفلسطين) ووصل مدى الانتصارات العسكرية موقى فرقميش (طرابلس) والواقع ان تحتمس الثالث كان شخصية عسكرية عظيمة وتحقق على يديه الانتصارات العسكرية الجبارة ليس فقط فى شرق البحر المتوسط بل ايضا حتى فى السودان الشمالى واسس فعلا امبراطورية مصر الاولى واصبحت طيبة العاصمة الدوليه لتلك الامبراطورية ٠

وتغيرت الحياة كلية فى تلك المدينة بعد ان ازدهرت ونمت وانتعشت ونمت بدرجة

عالية القدر بعد ان ازداد الثراء المصرى وارتفع المستوى الاقتصادى ارتفاعـــــا هائلا نتيجة الغنائم والهبات والخيرات المختلفة التى وفدت اليها كانت اربـــــاء الامبراطورية • وان المناظر المعبرة عن الثراء المصرى ومواكب اقصى الضرائب والجزية للوافدين الى مصر والتى سجلت على حيطان المعابد المصرية والمقابر الخاصة وعلـــى سبيل المثال مقبرة رخمى رع وكذلك مختلف النباتات والثمار والحلى وغيرها لتشهـــد بذلك واستمرت هذه الانتصارات فى مسارها التاريخى الرائع واصبحت مصر قوة دولية لها مكانتها فى ذلك الوقت فى منطقة الشرق الادنى القديم وليس فقط فى عصر تحتمس الثالث بل فى عصر ابنه وخليفته الملك امنحتب الثانى الذى ورث عن ابيه حبه القتـــــال وبراعته فى شئون الحرب ووصل فى ذلك الى احد عدى وخاصة فى حملتيه الشهيرتيـــن فى السنة السابعة والسنة التاسعة من حكمه • وعلاوة ايضا فى هذه القدرة الملك تحتمس الرابع صاحب لوحة الحلم الشهير التى يحتضنها تمثال ابو الهول فى الجـــيزة •

اما القسم الثانى من تاريخ الاسرة الثامنة عشرة فيتمثل فى بعض الظروف السياسيـــة الداخلية وبعض الاسرة النزاع على كرسى الحكم ويتجلى ذلك الصراع الذى حدث بين الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث وبدأ هذا النزاع عندما اتجه الملك تحتمس الثانى الى اعتبار ابنه تحتمس الثالث صاحب حق فى تولى العرش من بعده • وتـــزوج تحتمس الثالث من حتشبسوت صاحبة حق الوراثة الشرعية حتى يكون قد دعم رغبة والده بهذه الوسيلة ولكن شخصية حتشبسوت لم تكن شخصية مجرد زوجة زوجة او ملكـــــة بل كانت سيدة طموحة لاقصى درجات الطموح من حيث الرغبة الجامحـــة فى السلطـــة

السياسية ولذلك بدأت فى محاولة تركيز الامور فى يدها وتظاهرت بمظاهر الفرعــــون فحذفت تاء التأنيث من اسمها وارتدت زى الرجال كما سجلت فى نصوصها ولادتهـــا المقدسة واتجهت الى توسيع الدائرة لنشاطها المعمارى كما يتضح من معبد هــــا الجنازى الهائل بالدير البحرى وبعثتها التجارية الضخمة نحو بلاد بونت (الصومال) ولكن تحتمس الثالث اتجه اخيرا الى عدم الخضوع لها وضرورة الانتقال منها فانفــــرد بالحكم مازال الكثير من المعالم التى تشير الى شخصيتها وركز نشاطه الحياتى باسره على المجال العسكرى سالف الذكر وتلك خطوط ضخمة فى نقل مصر من مشاكل النزاع الداخلى الى دولة منتصرة وعظيمة من الدرجة الاولى .

والقسم الثانى فى تاريخ هذه الاسرة هو المجال الحضارى وبصفة خاصة فـــــى الجانب الفكرى . والواقع ان الحضارة المصرية القديمة بدأت تدخل مرحلة جديدة من التطور فبينما كانت فى عصر الدولة القديمة تقوم على الملكية الالهية والمركزية المطلقـة واتجهت فى عهد الدولة الوسطى الى العدالة الاجتماعية فان الموقف الحضارى قـــد تغير على اثر خروج مصر عن النطاق المحلى واتصالها بالعالم الخارجى وبصفة خاصـة فى شرقى البحر المتوسط فقد اطلع المصريين على مجتمعات جديدة عليهم وشعـوب وتقاليد مختلفة عنهم فاتسعت دائرة تفكيرهم وتعددت تجاربهم الحياتية مما ادى الـى عدم الالتزام الحرفى بقيمهم المصرية الصحيحة ويمكن ملاحظة العديد من النمـــاذج الحضارية الدالة على ذلك فى عهد هذه الاسرة .

فلقد كان الملك او الفرعون يستحيل عليه الزواج من اميرة اجنبية او انسانة لا تنتمى الى البيت المالك ولكن ظاهرة الزواج السياسى من الاميرات الاجنبيات انتشرت فى عهد هذه الاسرة فقد تزوج الملك تحتمس الرابع من الاميرة المتبانية موت أو أويا وهى ام الملك امنحتب الثالث • كما تزوج الملك امنحتب الثالث من اميرات ميتانيات وبابليات وآشوريات بالاضافة الى الملكة تى الشعبية او التى لا تنتمى الى الاسرة المالكة ولم يقتصر الامر عند هذا الحد بل تغيرت التعبيرات الفنية فى النحت والنقش وان تمثال الملك امنحتب الثالث قد فى صدر المتحف المصرى فى القاهرة ومعه زوجته الاميرة تى فى وضع ينم عن الصلة الاجتماعية الوثيقة بينهما لينم عن مدى تساهل الفنان المصرى وعدم التزامه الحرفى بشخصية الفرعون الاله •

وكذلك اللغة المصرية القديمة تأثرت نتيجة كل ذلك ودخلتها العديد من الكلمات شبه العاميه ولكن قمة التطور الفكرى تتجلى فى الثورة الدينية الخاصة بالملك امنحتب الرابع (اخناتون) وزوجته الملكة نفرتيتى واذا اتجه الدارس الى اعتبار النصف الاول من الاسرة الثامنه عشرة مرحلة يسود ها النشاط العسكرى فان النصف الثانى من هذه الاسرة كانت مرحلة تسود ها الحياة السلمية وتجلى ذلك فى عصر امنحتب الثالث وابنه امنحتب الرابع (اخناتون) الذى كان فيلسوفا متفرغا لفكره الدينى الذى ينادى بالاعتقاد فى الوحدانية الى حد كبير مركزا ذلك القوة الالهية الخفية الكامنة فى الكرة الشمسية والمساة آتون •

وكان اخناتون صادقا فى فلسفته لدرجة انه صرح بها فى قلب معابد آمون • فى الكرنك وسرعان ما بدأ على اثر ذلك صراع هائل بين كهنة آمون من ناحية وبين اخناتون وعائلته ومريديه من ناحية اخرى مما اضطره الى البحث عن عاصمة جديدة واتجه الى موقع تل العمارنة فى محافظة المنيا حيث بنى مدينة اخت آتون والتى كانت تمتد حدودها شرق وغرب النيل • ولا تزال لوحات الحدود الخاصة بها كائنة حتى الان فى غربى نهر النيل فى منطقة الاشمونيس •

والواقع ان مدينة طيبة مدينة المائة باب وهى العاصمة المصرية الرئيسية فى عهد الدولة الحديثة • وقد كانت لها مكانتها الدينية البارزة فى تلك الفترة وكانت المعابد الخاصة بالاله آمون له المدينة والدولة تنعم بالكثير من الامتيازات والاعفاءات الضريبية والثروات الغنائم الناجمة عن التوسعات الخارجية • ويتضح كل ذلك من النصوص المصرية القديمة وفى قوائم الاعياد والاحتفالات الدينية الخاصة بالاله آمون • والمدونة على جدران المعابد • ولا شك ان معبدى الاقصر والكرنك كان لهما مكانة خاصة فى ذلك المجال • ولا تزال اثار اجزاء من الطريق البرى الموصل بينهما فى حالة جيدة • وتحدده تماثيل الكباش • باعتبار ان الكبش هو الرمز الحيوانى لاله آمون •• وقد ضمنت تلك الكباش بين اقدامها الامامية تماثيل صغيرة للملك امحتب الثالث الذى قام بانشاء ذلك الطريق •• هذا بالاضافة الى طريق آخر يؤدى الى معبد الالهة موت والذى عثر فيه على مجموعة كبيرة من تماثيل الالهة سخمت الهة الحرب •••

وقد كانت لمراكب المقدسة في المعابد المصرية دورها الهام في الاحتفالات الدينية كانت تستقر فيها سفن انتقال الالهة وعليها تماثيلها الخاصة وكانت تلك السفن تستخدم في الانتقال بالالهة خلال تلك الاعياد الدينية الخاصة . وقد واجهت الاله آمون وكهنته ازمة دينية خطيرة يمكن اعتبارها من وجهة النظر الامونية مرحلة انكسار للاله آمون . اما من وجهة نظر الفكر الديني عند الانسان فيمكن اعتبارها مرحلة فكرية سامية من اعمق مراحل الانبثاق الفكرى الانسانى العميق . تلك هى الثورة الاتونية .

الواقع ان ظروف نشأة ذلك الفكر الديني الجديد . تستوجب ترقب الدارس عندها بعض الشيء . لقد كان خروج مصر عن نطاقها المحلي في عهد الاسرة الثامنة عشرة وبصفة خاصة في عهود كل من تحتمس الثالث وامنحتب الثاني الى منطقة فلسطين ولبنان وسوريا . اثرها البالغ في احداث تعديل جوهري ليس فقط في السياسة الخارجية والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية . بل ايضا في المجال الفكرى بصفة خاصة لان الحضارة المصرية القديمة بدأت تتشكل بمقومات البيئة المصرية المحلية البحتة . تلك البيئة التي تبلور فيها الفكر المصرى القديم معتمدا على ظواهرها الطبيعية الخاصة وتجسم كل ذلك في الملكية الالهية القديمة . والايمان بالخلود واستمرار الحياة في العالم الاخر وتكريس كافة الجهود الخاصة والعامة في سبيل تحقيق تلك المبادئ . ولكن خروج المصريين واتصالهم المباشر بالفكر السامي القديم الممثل في مكونات الشد

السامية فى فلسطين ولبنان وسوريا ، سواء كان ذلك مع العناصر الكنعانية او الفينيقية او الامورية ، قد ادى الى احداث ذلك التعديل الرئيسى فى مفاهيم الفكرية ، حين ادى المصريين على افكار دينية جديدة بما تتضمنه من نظريات وعبادات وغيرهـا ثم كان لتكرار الحملات المصرية فى تلك الاقاليم عاملا فى تكرار ملاحظاتهم بطريـق مباشر او غير مباشر لتلك الظواهر الفكرية . كما ان اقامة بعض العناصر السامية سواء فى شكل اسرى او تجارى فى طيبة لها اثرها فى تعرف المصريين على ذلك الفكر الاجنبى عليهم بوجه عام .

وكان لكل ذلك نتائجه فى توسيع دائرة التفكير المصرى القديم ، وعدم الاقتصار علـى التجارب الفكرية المحلية الصرفة . وقد انعكس كل ذلك بطريق مباشر او غير مباشـر فى الحضارة المصرية القديمة وبصفة خاصة ابتداء من عهد الملك امنحتب الثالث وابنـه الملك امنحتب الرابع ، كما قد تبلور ذلك ايضا فى التفكير الاقرب الى العالمية منـه الى النزعة المحلية ، وهو ماتجسم فى الفكر الاتونى .

بالاضافة الى تلك الظروف العامة ، هناك بعض الظروف الخاصة المتصلة اتصـالا مباشرا بنشأة العقيدة الاتونية : وتلك الظروف تتصل بالفكر الدينى المصرى بوجـه عام ، فكما سبقت الاشارة كانت هناك عدة معتقدات مصرية قديمة كالعقيدة الهليوبوليتانية فى هليوبوليس ، والعقيدة الهرموبوليتانية فى الاشمونين ، والعقيدة المنفية فـى منف بجانب العقيدة الامونية فى طيبة . وقد صارت السيادة الدينية فى عهد الاسـرة الثامنة عشرة للعقيدة الامونية نظرا لكون الاله آمون هو اله مدينة طيبة واله الدولـة

التى تحقق فى عصرها تحرير مصر من الهكسوس وتتبعهم فى فلسطين ولبنان وسوريا وماتبع ذلك من توسعات فى تلك الاقاليم وكذلك فى النوبة فى الجنوب وتبعا لذلك اصبح الاله آمون ، كما سبقت الاشارة مكانة مميزة بين الاله المصرية الاخرى مما اثار نوعا من المعارضة النسبية بين تلك المعتقدات الاخرى والرغبة فى الحصول على بعض الامتيازات المرادفة الخاصة بالاله آمون •

اما الظرف الثانى فيمكن ملاحظته فى نشأة الملك امنحتب الرابع صاحب الثورة الاتونية فقد نشأ فى ارمنت التى على الرغم من قربها من طيبة فانها كانت تعتبر بمثابة هليوبوليس مصر العليا • وكان لذلك اثره المباشر وفى اهتمام امنحتب الرابع بالعقيدة الشمسية ، حتى ان اسمه الخاص هو نفر خبرو رع بمعنى الاله رع (وهو الاله الشمسى) صاحب الاش الاشكال الجميلة ، ورع ان بمعنى انه الوحيد لرع •

وعلى الرغم من محاولة كهنة الاله آمون من تخفيف مناقشة الالهة الاخرى لهم ، ومحاولة احداث نوع من الدمج بين آمون ورع ظهور الاله آمون رع فان ذلك لم يحل دون رغبة الملك امنحتب الرابع فى تركيزه افكره الدينى تجاه العقيدة الشمسية ، وتبعا لذلك الاتجاه اختار الملك امنحتب الرابع اسم اتون وهو تعبير كان يطلق على قرص الشمس ، رمزا للالهة الشمسى الجديد •

ولم يقتصر ايضا على صورة قرص الشمس التقليدى القديمة بل صورها فى شكل القرص المجسم او الكرة الشمسية نسبيا ، وتخرج منها اشعة كثيرة ينتهى كل شعاع منها بيد

بمعنى افق آتـون كما اتجه ايضا الى تغيير اسمه من امنحتب الى اخناتون بمعنى الذى رضى عنه آتـون .

وبدأ يدعو الى عقيدته الجديدة من تلك العاصمة الجديدة بعيدا نسبيا عن معارضة كهنة الاله امون فى طيبة .

وكان الملك اخناتون مخلصا للغاية فى دعوته للعقيدة الاتونية وذلك على الرغم من عدم الاستجابة الشعبية المطلقة لذلك المعتقد الجديد . فقد اقتصر على عائلته والمقربين منه وعلى رأسه الملكة نفرتيتى . بمعنى الجميلة تتهادى . زوجة الملك اخناتون وامه الملكة تى . ومن الاهمية الاشارة الى ان العقيدة الاتونية لاتقتصر على المناداة بالوحدانية الالهية والنظرة العالمية . بل لقد تميزت ايضا بكون الجبانة فى الشرق بدلا من الغرب على اساس ان الشرق هو المكان الذى يبزغ منه الاله الشمسى اتون كل صباح فهو المكان الابدى . ولاتزال بقايا بعض المقابر المنتمية لعهد العمارنة فى الجانب الشرقى من المدينة . وقد سجلت مقبرة اى بالعمارنة النص الكامل للوثيقة الهامة الدالة على المعتقد الاتونى وهى انشودة آتون التى يمكن اعتبارها بمثابة نص اساسى لذلك المعتقد .

وفيما يلى نص لتلك الوثيقة الهامة دون المقدمة :

" ... انت تبزغ جميلا فى افق السماء .

امون اتون الحى . بداية الحياة ..

عندما اشرقت فى الافق الشرقى . ملأت كل ارض بجمالك .

انت جميل وعظيم وبهى ومرتفع فوق كل ارض .

بشرية تقوم بدورها رمز الحياة عنخ • ومن هنا عرفت تلك العقيدة الجديدة بالاتونية نسبة الى آتـون •

اما الظرف الثالث فيتصل بشخصية امنحتب الرابع • فقد كان فيلسوفا اكثر منـه حاكما سياسيا • فبينما كانت الاحداث السياسية الخارجية بصفة خاصة تستوجب اهتمام الفرعون • فانه لم يبال بمتابعتها وبذل الجهود من اجلها فقد دلت النصوص الخاصة بتلك المرحلة عن عدم اكتراث الملك المصرى القديم في انقاذ النفوذ المصرى فـي الخارج • بل كرس جهوده كلها من اجل فلسفته الدينية الخاصة رغم مانتج عن ذلـك من تطورات سياسية هامة •

كل ذلك يدل على تصميم امنحتب الرابع احداث تغيير ثورى فى العقيـدة المصرية القديمة • والاتجاه نحو الوحدانية والعالمية بدلا من النزعة المحلية وتعدد الالهة • ولم تكن عملية تنفيذ تلك الخطوة الخطيرة فى الفكر الدينى بالمهمة اليسيرة بل واجهت العديد من الاشكالات على رأسها المعرضة الشديدة لكهنة آمون لذلـك الاتجاه الدينى الجديد • وبدأ الملك امنحتب الرابع خطواته التنفيذية ببناء معبـد للاله اتون مجاورا لمعبد الاله آمون فى طيبة ولكن المعارضة الامونية كانت من القـوة بدرجة ان الملك امنحتب الرابع اضطر الى استبدال العاصمة المصرية طيبة بعاصمـة جديدة اتجه الى بنائها لاول مرة فى السنة السادسة من حكمه الذى استمر حوالـى تسعة عشر عاما • فى موقع فى مصر الوسطى هو العمارنة • وسماها اخيتاتـون

ملك مصر العليا والسفلى ... اخناتون ... والزوجة الرئيسية للملك ....
نفرتيتى ، حيا وشابا لابد الابدين ..."

يتبين من دراسة هذا النص ان الملك امنحتب الرابع الذى حكم من حوالى ١٣٨٠ الى ١٣٦٢ ق . م والذى حمل اسم اخناتون ، بعد قيامه بالثورة الاتونية او كما تعرف بثورة العمارنة ، قد سجل فيه آراء المدنية الخاصة بعبادة الاله اتون المصور فى ك شكل قرص الشكس المجسم او بالاخرى الكرة الشمسية كمصدر الحياة ، وقد عالج هذا النص كما يتبين من فقراته ، العديد من الموضوعات وبصفة خاصة الوحدانية والعالمية . والواقع ان المعتقد الاتونى قد نص على الوحدانية الاتونية بصورة مباشرة وخاصة فى الفقرة القائلة : " ايها الاله الوحيد الذى لايناظره اخر " .

ولكن موضوع الوحدانية الاتونية كان ينبغى ان يكون متكاملا مع الجوانب الاخرى الدينية حتى تتوفر عقيدة الوحدانية الكاملة بمعنى الكلمة . وعلى سبيل المثال ، لم تتعرض العقيدة الاتونية بصورة واضحة الى موضوع الخلود واستمرار الحياة فى العالم الاخر ، وهو الموضوع الذى يعتبر ذو اهمية خاصة فى الفكر الدينى المصرى .

ومن ناحية اخرى يلمس المؤرخ سرعة فشل انتشار ذلك المعتقد فى المجتمع المصرى رغم توفر عناصر الوضوح والحقيقة الواقعية فى التعبير عن ذلك الفكر الدينى الاتونى وتجسيم كل ذلك بصورة واضحة فى التعبير مما يسمح لكافة افراد الشعب التعرف على

خصائص ذلك المعتقد الجديد ٠

ويمكن الاستدلال من ذلك على بعض القصور في المعتقد الديني فيما يتصل باستيفاء كافة جوانب الفكر الديني المصرى القديم ٠

وهناك ملاحظة تستوجب الانتباه ، وهى عقيدة الملكية الالهية فى مصر القديمة ، تلك العقيدة التى تعتبر من اهم دعائم الحضارة المصرية القديمة ، وعدم محاولة العقيدة الاتونية تحديد موقف الوحدانية الالهية بالنسبة لتألية الفرعون ، وذلك لان المعتقدات المحلية فى الاقاليم المصرية القديمة كانت لها فاعليتها الشعبية ،وكان من الطبيعى ضرورة توفير الوقت اللازم لاحداث تغيير فى الفكر الدينى على المستوى الشعبى ٠

اما بالنسبة للنظرة العالمية فى العقيدة الاتونية ، فقد اوضحتها نصوص انشودة اتون فى عدة فقرات منها ، وهذا منطلق يستوجب الاهتمام فى تطور الفكر الدينى عند الانسان من حيث انتقاله من المستوى المحلى الى المستوى العالمى ٠ وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد الى ان اتصال المصريين بحكومات المدن السامية فى فلسطين ولبنان وسوريا اثناء عهد الدولة الحديثة اتصالا مباشرا كانت له فاعليتها القوية فى تعديل المفاهيم المصرية التقليدية وتوسيع دائرة الفكر الدينى الى النطاق العالمى ، والذى يعتبر تطورا اساسيا فى الفكر الدينى المصرى القديم ٠

ومن الظواهر الجديرة بالانتباه ، تركيز العقيدة الاتونية على الاهتمام المباشر بالحقيقة ٠ ولم يتجسم ذلك فى التعبير الفنى ، كما سبقت الاشارة فحسب بل يتضح

ايضا في عمارة المعابد الاتونية التى تميزت بساحاتها المكشوفة التى تسمح بدخول الاشعة الشمسية المعبرة عن فاعلية الاله آتون فى كافة مظاهر الحياة .. والواقع ان ذلك الاتجاه المعمارى سبق استخدامه فى معابد الاله الشمسى الخاص بالاسرة الخامسة فى ابو صير • ولكن لم تكن العقيدة الشمسية فى عهد الدولة القديمة لهـا صفة الوحدانية والنظرة العالمية مثلما تركزت عليها العقيدة الاتونية •

وعلى الرغم من الملاحظات السالفة الذكر فان المعتقد الاتونى قد سجل اتجاها انسانيا واضحا نحو الوحدانية مما يجعله من اهم منطلقات الفكر الدينى الانسانى فى مرحلة سادت فيها المعتقدات المتعددة القوى الالهية ولكن قصور المعتقد الاتونى عن حل بعض الاشكالات الدينية المصرية القديمة وخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات المحلية وعقيدة الخلود قد ادى الى عدم شعبيته كما ان اشتداد معارضة كهنة كهنة الاله آمون بصفة خاصة • بالاضافة الى عدم استطاعة الادارة المصرية فى عهد اخناتون الوفاء بالالتزامات السياسية والحربية نسبة الى حكام المدن فى فلسطين وسوريا ولبنان مما ادى الى اضعاف النفوذ المصرى القديم فى تلك الاقاليم • كل ذلك قد نجم عنه انتهاء المعتقد الاتونى بمجرد النهاية الغامضة لحياة اخناتون وبالتالى عودة الاله آمون الى مكانتها السابقة •

ومن الناحية السياسية انعكس هذا النشاط الفكرى على اوضاع الامبراطورية

المصرية فى شرق البحر المتوسط وبدأت السيادة المصرية فى الضعف الشديد وتعبر مراسلات تل العمارنة المنتمية الى هذا العصر .

وتجسم الانقسام الداخلي في مصر عندما اختلف اخناتون مع زوجته نفرتيتى واشترك سمنى كارع معه فى الحكم بعد زواجه من ابنته ولكنه سرعان ماتوفى وتلاه توت عنخ آمون الذى بدأ فى التحول نحو جانب كهنة آمون ولكن شخصيته الضعيفة ادت الى تمكن شخصيه اى غير الملكية الى الاستحواذ على السلطة لفترة وجيزة سرعان ما انتهز القائد العسكرى المرموق حور محب هذا الموقف السياسى الداخلى غير المستقر واستولى على الحكم وبدأ مرحلة جديدة فى الحياة المستقرة الامنة فى مصر فى تلك الفترة المضطربة قرب نهاية الاسرة الثامنة عشرة وتحقق هذا الامن السياسى والعسكرى الداخلي عندما تركز حور محب نشاطه على السلطة التشريعية فترك لنا قانونه الشهير الذى يحدد العقوبات والجزاءات الصارمة التى تعيد النظام الى الحياة المصرية . ومن ناحية اخرى تمكن من تحقيق الامن الخارجى بعقد معاهدة بينه وبين الملك موسيليوس الثالث الحيثى .

وانتقل الموقف السياسى كلية من بعده الى عائلة جديدة وكونت الاسرة التاسعة عشرة .

* * *

* الاســــــرة التاسعة عشرة

أ.

تعرف هذه الاسرة بنشاطها العسكرى والحضارى الكبير الذى بدأ فى عهد الملك رمسيس الاول الذى اتخذ موقع صان الحجر (تانيس) مركزا لنشاطه السياســــــى والعسكرى وخلفه ابنه الملك سيتى الاول الذى كان شخصية عظيمة لا تقل فى انتصارتها عن شخصية تحتمس الثالث فقد قام سيتى الاول بعدة حملات عسكرية فى محاولـــــة استعادة السيادة المصرية التى كادت تنتهى فى مرحلة فترات الانهيار السالفة الذكر •

فقام بارسال حملة الى فلسطين وحملة اخرى الى ليبيا وثالثة الى السودان — الشمالى كما قام بارسال البعثات التعدينية فى الصحراء الشرقية وقد نجحت مشروعاته العسكرية والاقتصادية نجاحا كبيرا • مما ادى الى استعادة مصر لسيادتها السياسية والعسكرية والاقتصادية فى المنطقة وقد خلد كل ذلك فى تراث معمارى هائل فـــــى معابد الاله آمون بالكرنك وخاصة قاعدة الاعمدة الكبيرة ومعبده العظيم فى ابيدوس • ومقبرته الخالدة فى وادى الملوك • وخلفه ملك عظيم آخر هو رمسيس الثانى الذى حكم فترة زمنية طويلة تقدر بالسبعة والستين عاما وسار على نفس الخطة والده وتجلى كـــل ذلك فى انتصاراته العسكرية التى سجلها على نطاق ضخم فى معابد الاقصر والكرنك والرمسيوم وابو سمبل • وبصفة خاصة معركة قادش الشهيرة •

ويقف المؤرخ محاولا تحرى الدقة بالنسبة لانتصاراته لان سجلات الطرف الاخـــر

وهى السجلات الحيثية تختلف فى هذا الشأن وانتهى الموكب بين المصريين والحيثيين فى عهده الى توقيع معاهدة صداقة بين المصريين ويمثلهم رمسيس الثانى وبين الحيثين ويمثلهم حاتو سيمر ودعم هذا السلام السياسى بالزواج بين رمسيس الثانى وابنه الحيثى حاتوسيلس الثالث •

وخلفه احد ابنائه وهو مرنبتاح وفى عصره ازدادت الصعوبات التى واجهت منطقة الشرق الادنى القديم باسرها فقد وفدت الى تلك المنطقة دفعة جديدة من الهجرات الهندية الاوربية وبدأ مرنبتاح تأمين مصر فى الشمال الشرقى وفى الغرب وذلك بتجهيز حملة الى واخرى الى ليبيا وقد اختلف العلماء بشأن خروج بنى اسرائيل من مصر واتجه البعض الى الاعتقاد بان ذلك قد حدث فى عهد مرنبتاح • ولكن ذلك ليس نهائيا ••

لم تستقر الشئون الداخلية فى مصر نتيجة لكل ذلك مما ادى الى ظهور فترة من الاضطرابات السياسية الداخلية والمؤامرات الهادفة الى السلطة ويتجلى ذلك فى عهد كل من آمون ومس سابتاح ثم الملك سيتى الثانى ثم رمسيس سابتاح ثم ارسو ثم ست نخت وتاسرت •

وتعتبر هذه الفترة فترة ضعف شديد انتهت على اثرها الاسرة التاسعة عشرة وبدأت الاسرة العشرين وعلى رأسها شخصية عظيمة تعتبر خاتمة للفراعنة العظام فى مصر الذى حكم ٣١ سنة •

ومن الشخصيات الهامة فى تاريخ مصر الفرعونية شخصية الملك رمسيس الثالث الذى يمكن اعتباره بحق من اواخر الفراعنة العظام الذين عملوا على احتفاظ مصر بسيادتها السياسية والداخلية والخارجية بل ايضا وسيادتها الحضارية فى كافة المجالات المعمارية والفنية وواجه الملك رمسيس الثالث موقف دولى عصيب يرتبط بمجموعة جديدة من موجات الشعوب الهندواوربية التى سبق الاشارة بها فى عصر الانتقال الثانى والتى تحركت به من القارة الهندية الى منطقة الشرق الادنى القديم ومنها الى شرق البحر المتوسط واطلق العلماء اسم شعوب البحر على تلك العناصر الهندواوربية التى استقرت فى جزر قبرص ورودس وكريت وحاولت الاتجاه الى منطقة سواحل فلسطين والسواحل المصرية ومن المصالح الدولية فى تلك الفترة ان اتجهت العناصر الليبية المتاخمة لحدود مصر الغربية الى التعاون مع شعوب البحر فى عمليتهم المضادة لمصر الفرعونية ولكن وجود رمسيس الثالث فى تلك الفترة بالذات قد ساعد على انهاء هذا التحالف والقضاء على القوة المعادية لمصر على شواطىء البحر المتوسط فى شمال مصر •

وقد عزم رمسيس الثالث على الاتجاه بالقوة البحرية المصرية وتمكن من ايقاع الهزيمة المنكرة فى معركة بحرية كبيرة حدثت بين الاسطول المصرى وسفن شعوب البحر والقوة الليبية وقد سجل رمسيس الثالث انتصاراته الحربية على الجدران الغربية الخارجية فى معبد مدينة هابو فى الضفة الغربية فى العاصمة طيبة (الاقصر) وقد سجل الفنان المصرى التفاصيل الدقيقة لهذا الانتصار والذى نتج عنه ان نجحت مصر

من ما اسماه تدفق العناصر الليبية وشعوب البحر المتوسط على حدودها الشمالية الغربية بصفة خاصة وتابع رمسيس الثالث حياته السياسية بنجاح باهر فى كافة الشئون الاقتصادية والداخلية فى مصر ومن امثلة المعمارية فى عصر المعابد الالهية التى قام بتحقيقها فى معبد الاله امون بالكرنك وكذلك معبده الجنائزى فى مدينة هابو .
وحدث ان ضعفت مصر فى المراحل التالية فى عصره نتيجة ضعف الرعامسة التالين له مما ادى الى انهاء الدولة الحديثة وبداية رحلة طويلة من الضعف السياسى والحضارى باستثناء بعض مراحل منها خلال العصر المسمى بعصر الانتقال الثالث .

عصــــر الانتقــال الثالث *

يتضمن هذا العصر الاخير في تاريخ مصر الفرعونية الاسرات من الاسرة الواحـد وعشرون الى الاسرة الثلاثين وهو عصر مجموعة من الاحتلالات الاجنبية نتيجة طبيعية للضعف السياسي الشديد الذي تمثل في نهاية الاسرة العشرين كما سبقت الاشـارة ولم يقتصر هذا الضعف على الكيان السياسي البحت بل عم ايضا مستوى الفكـــر الديني وفقد سمة الاخلاص في الاعتقاد القوى الاله المصرية القديمة ومختلف الجوانب العقائدى الى درجة ان كبير الكهنة يتبوأ منصب الفرعون ويبدأ حكم الاسرة الحاديـة والعشرين وهو الملك حريحور عندما شعرت القوة المعادية لمصر بمدى هذا الانحدار في القيم المصرية سرعان ما امعنت في احتلالها وتحقق ذلك فعلا في عهد الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين على ايدى العناصر الليبية التي تغلغلت فـــي الاراضي المصرية وتركزت بصفة خاصة في اقليم الفيوم وقد حاول الليبيون التمصر والتأقلم مع الحضارة المصرية في كافة مجالاتها ولكنهم ظلوا يحملون سماتها الليبية الاصـــل واستمرت مصر في مراحل ضعفها الشديد وتفككها السياسي الذي استمر في عهـــد الاسرة الرابعة والعشرين والى ان تمكنت العناصر النوبية من فرصة الضعف السياسي من احتلال مصر في عهد الاسرة الخامسة والعشرين وكان ذلك على يد الملك بعنخى كما انتهز الاشوريين في فترة توليهم الامبراطورية ونجحوا في دخول مصر واحتلالها لمدة سبعة سنوات من ٦٧٠ الى ٦٦٣ ق.م. وحاولوا اضعاف الحضارة المصريـــة واحلال الحضارة الاشورية واستبدال الالهه الاشورية مكان الالهة المصرية وقد مســوا

المعابد المصرية ولكن كل هذا الاستقرار العسكري والحضاري لم ينجح بأي حال من الاحوال في انهاء الحضارة المصرية التي كانت رغم احتلال اجنبي كامنة في قلوب الشعب المصري ان ذات ولذلك عندما انصار الاشوريين الى ترك مصر لمتابعة بعض الاحداث في بلاد الرافدين اتجه المصريون الى استعادة حياتهم السياسية والحضارية مرة اخرى والقيام بنهضة مصرية تعتمد على الحضارة المصرية في عهد الدولة الوسطى ويبدأ عصر جديد هو عصر الاسرة السادسة والعشرين ويطلق عليه عصر النهضة المصرية ومن اهم ملوك هذه الاسرة الملك اسماتيك الاول والثاني والثالث والملك نخاو الثاني ويمكن القول بحق ان مصر استعادت مكانتها السياسية والحضارية في عهد الاسرة السادسة والعشرون كما كان لها نشاطها الاقتصادي الذي وصل الى منطقة البحر الاحمر حيث نشطت الرحلات التجارية في هذه المنطقة ولم تستمر هذه النهضة الحضارية طويلا وذلك لظهور قوة هندو اوربية الاصل قوية وقادرة على التوسع والانتصار وهي قوة الدولة الفارسية الاكمينية التي نجحت في ازالة العديد من العقبات السياسية في الهضبة الايرانية واتجهت الى التوسعات الامبراطورية في الشرق الادنى القديم ٠

ونجح الملك قمبيز الثاني في دخول مصر عام ٥٢٥ ق٠م٠ واصبحت مصر ولاية تحت الحكم الفارسي الاكميني الذي امتد من عهد الاسرة السابعة والعشرين والاسرة الثلاثين وقد حاول المصريون القيام بالعديد من الثورات في عهد الاسرة الثامنة والعشرين الى الثلاثين ضد النفوذ الفارسي وتعرضه لهذا المجال من القوة

اليونانية ا سينية الصادية للفرس ولكنهم لم يتمكنوا من ا نتصار عليهم ولم يتحقــق انهاء النفوذ الفارسي ا كميني في مصر ا على يد ا سكندر المقدوني الذي وصل الى مصر واسس مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق٠م٠ وبدأ عصر جديد هو العصــر اليوناني في تاريخ مصر القديم ٠

وعلى الرغم من كل ذلك فقد سادت الحضارة المصرية القديمة واحتفظ الشعب المصرى بحضارته المصرية القديمة رغم وجود السيادة اليونانية وبعدها الســيادة الرومانيـــة

** ** **

العصـــــر الفينيقـــى

العصــــر الفينيقــــى

تعتبر مرحلة الانتقال الى بداية العصر التاريخى خطوة حاسمة فى حيــاة الانسان لانها تمثل بداية مرحلة جديدة سريعة التطور فى كافة المجــالات الاقتصادية والسياسية والحضارية .

وتعتبر هذه المرحلة خلاصة الجهود الانسانية الطويلة فى المراحــل السابقة .

وقد نجح الانسان فى وضع عدد كبير من الادوات المساعدة المادية والفكرية لتحقيق اهداف حياته الجديدة واتفق العلماء على ان توصل الانسان فى بداية تلــك المرحلة الى التعبير بالرموز واختراع الكتابة يعتبر بمثابة علامة مميزة على بدايــة العصر التاريخى لان هذه الاداة التعبيرية الجديدة وهى الكتابة قد ساعدت الانسان على تسجيل حياته وتنظيم كافة شئونه الاقتصادية والسياسية تنظيما جديدا يعتمد على التدوين والتسجيل والتوثيق ، ولذلك اعتبر هذا العامل الفكرى كخـط فاصل بين مجتمعات ماقبل التاريخ ومجتمعات العصر التاريخى بوجه عام . ولذلـك تعرف احيانا المراحل السابقة لبداية العصر التاريخى بمراحل ماقبل الكتابة وتعرف مراحل العصر التاريخى بمراحل الكتابة والسجلات والوثائق .

وهناك ظواهر اخرى خاصة تميز بداية العصر التاريخى فى مختلف المناطق

فقد سجلت وثيقة الملوك السومرية اعتبار ظاهرة الطوفان المحلي بمثابة علامة مميزة لبداية العصر التاريخي ونهاية عصور ماقبل التاريخ في العراق واطلقت تعبير ماقبل الطوفان للمراحل السابقة لعصور ماقبل التاريخ ومابعد الطوفان لمراحل العصر التاريخي وذلك على اساس ان ظاهرة الفيضانات الكثيرة كانت كثيرة الحدوث في العراق القديم ، لان الانسان في ذلك الوقت كان يعمل جاهدا لمحاولة التحكم في مياه الانهار والروافد وكانت ظاهرة الفيضانات تهدد حياته بصورة استدعته لتسجيل احداثها كحادثة يميز بها مرحلة هامة في حياته • وكانت بمثابة مرحلة الانتقال من عصور ماقبل التاريخ الى العصر التاريخي •

وتنبغي الاشارة الى ان الانسان القديم كان يقوم باتخاذ حوادث معينة تؤرخ بها حوليات حياته ويطلق على كل سنة حادثة تميز تلك السنة • واما في مصر القديمة فكان للاحداث السياسية اثر كبير في اتخاذ احداثها كعلامة مميزة بين عصور ماقبل التاريخ والعصر التاريخي ، فقد اعتبر المصريون حادثة اتحاد الشمال والجنوب والتوصل الى الوحدة السياسية في الاسرة الاولى المصرية كبداية للعصر التاريخي في مصر القديمة ، تؤرخ الاحداث على اساسها • وعلى ذلك يتبين ان بداية العصر التاريخي قد اختلفت من مكان لاخر حسب ظروف الانسان من النواحي البيئية والاقتصادية والسياسية •

وفي المغرب القديم كانت بداية العصر التاريخي بداية خاصة فقد كان البربر

يعيشون فى شكل قبلى مستقر ويعتمدون على الرعى والزراعة فى حياتهم المنتميــة لمرحلة العصر الحجرى الحديث الى ان جاءت السفن الفينيقية من شرقى البحــر الابيض المتوسط ورست على مقربة من الشواطئ المغربية المطلة على البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى وبدأت محاولات من الطرفين البربرى والفينيقــــى للتفاهم والتعامل الاقتصادى لاول مرة .

ويصعب على الدارس التعرف على حقيقة هذا اللقاء الاول ولكن يمكـــن الاعتماد لحد معين على ماسجله الكتاب اليونان والذى يحمل فى طياته القصص والاساطير المثيرة المحتملة الحدوث . وتعددت الرحلات والمبادلات الاقتصاديــة وازدادت الصلات بين الفينيقيين والبربر ويعتبر ذلك بمثابة بداية للعصر التاريخى فى المغرب القديم . لان تعرف البربر وهم فى مرحلة العصر الحجرى الحديـــث على معالم عصر المدينة وهو العصر التاريخى يعتبر بمثابة نقلة حاسمة فى حياتهـم نحو بدايتهـــم بدورهم للعصر التاريخى فى المغرب القديم .

وقد تطلبت عمليات الاستيراد والتصدير والتعامل الاقتصادى بين الفينيقيين والبربر انشاء محطات ساحلية وموانئ ترسو عندها السفن لكى تستطيع تحقيق ذلك وبدأ هؤلاء التجار الفينيقيون فى اختيار الاماكن المناسبة لهذا الغرض ويعتـــبر ذلك بداية للعصر الفينيقى فى تاريخ المغرب القديم .

وقبل دراسة هذا العصر وتتبع تركته الاثرية ونتائجه السياسية والحضاريـــة

فى المغرب القديم ينبغى على الدارس التعرف اولا على الاسباب والدوافع المباشرة وغير المباشرة لخروج هؤلاء الفينيقيين من مدنهم الاصلية واتجاههم نحو غربى البحر الابيض المتوسط وتأسيسهم مدنا فينيقية جديدة على طول السواحل المغربية والاسبانية • وتتصل تلك الاسباب والمبررات اتصالا وثيقا بتاريخ منطقة الشرق الادنى القديم فى الالفين الثانى والاول قبل الميلاد •

المبررات التى ادت الى خروج الفينيقيين الى غربى البحر الابيض المتوسط :

يمكن للباحث عن هذه المبررات ارجاعها الى دوافع اقتصادية واخرى سياسية وبشرية • اما عن الدوافع الاقتصادية فهى تتصل اتصالا وثيقا بطبيعة العناصر المتفرقة وظروفها التاريخية منذ بداية العصر التاريخى فى منطقة الشرق القديم • فقد وصلت تلك العناصر الكنعانية الاصل الى هذه المنطقة واستقرت على الساحل الفينيقى قبل بداية العصر التاريخى وتمكنت من تأسيس عدة مدن مثل صور وصيدا وجبيل وبعض المدن الداخلية مثل اريحا وبيسان ومجدو وغيرها • وشعرت تلك العناصر منذ البداية بضرورة التجمع حول مدنها وكذلك تحصين هذه المدن بمختلف الوسائل الدفاعية لاطمئنان على حياتهم فى تلك الاماكن لانه قد تبين لهم ان منطقة الساحل الفينيقى بل والمنطقة السورية والفلسطينية لاتنعم بالهدوء الدائم بحكم موقعها الجغرافى كطريق طبيعى بين منطقة بلاد الرافدين ووادى النيل وايضا منطقة هضبة الاناضول • هذا

بالاضافة الى مواجهتها لساحل البحر الابيض المتوسط فى جزئه الشرقى •

ولذلك كانت هذه المنطقة تقع تحت تأثير كافة العوامل السياسية والبشرية والحضارية فى منطقة الشرق الادنى القديم • ومن ناحية اخرى كانت العناصر السابقة التى قطنت منطقة سورية وفينقيا وفلسطين اى المجاورة لها لا تتسم بالوحدة رغم انتمائها الى عنصر بشرى ولغوى واحد وهو العنصر السامى • فهناك العناصر الامورية فى منطقة لبنان الداخلية وهناك العناصر الارامية فى سورية وهناك العناصر الكنعانية فى فلسطين والساحل الفينيقى • وقد نتج عدم توصلهم الى الوحدة تنافسهم على السيادة السياسية والاقتصادية • كل ذلك ادى الى ضرورة تأمين الفينيقيين لانفسهم وتحصنهم فى قلاعهم ومدنهم ذات الاسوار العالية للدفاع عن انفسهم فى الوقت المناسب •

ويلاحظ ايضا ان الفينيقيين انفسهم لا يميلون بطبعهم للمسائل السياسية بل يركزون نشاطهم فى المجالات الاقتصادية • فهم يفضلون الامان والاستقرار السياسى حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى عملياتهم التجارية • ويلاحظ الدارس خلال تاريخ المدن الفينيقية انهم يقبلون دفع الجزية امام ضغط العناصر المهاجمة حتى يتحقق لهم السلم ويتابعون نشاطهم التجارى •

تبين هذه الظواهر العامة طبيعة العناصر الفينيقية ومواجهتها لواقع موقفها وتركيز نشاطها فى المجالات الاقتصادية • وعلى ذلك يلاحظ منذ بداية

العصر التاريخى اتصال الفينيقيين اتصالا وثيقا مع مصر وقبرص وكريت وايضا بـــلاد العراق • وقد برز الفينيقيون فى هذه المجالات التجارية بصورة ملحوظة واصبحت شهرتهم متوقعة لدى الاسواق الاجنبية • فاتجه اليهم المصريون منذ الاسرة الاولى للانتفاع بثرواتهم الطبيعية وبصفة خاصة خشب الارز الذى استخدمه المصريون فى كافة مشروعاتهم المعمارية والعقائدية •

وكذلك نبغ الفينيقيون فى صناعة البرونز والعاج والعظم والزجاج وقد تطلب تصنيع هذه المواد البحث عن الخامات الاصلية المتوفرة فى البيئات الاجنبيـــة • وكان ذلك ايضا من الدوافع المبررة لرحلاتهم الخارجية • وكذلك اظهر الفينيقيـــون قدرة فائقة فى صناعة الاقمشة وبصفة خاصة المصبوغة باللون الارجوانى وقد اعتمـــدوا فى ذلك على استخراج هذه الاصباغ الخاصة من بعض الاصداف البحرية التـــى عثروا عليها على سواحلهم • ولم يقتصر النشاط الاقتصادى على التصنيع السالـــف الذكر بل اتجهوا ايضا الى الاهتمام بالزراعة وصيد الاسماك • وقد اتاح لهم هـــذا النشاط الاقتصادى فرصة الاتصال بالاسواق الخارجية والتمرس على الطرق البرية والبحرية مما اكسبهم خبرة فائقة وقدرة فى هذا المجال •

كل ذلك قد اعطى هذا البعد الاقتصادى اهمية خاصة فى اتجاههم نحـــو تسويق تجارتهم والبحث عن امكانيات اقتصادية جديدة تضاعف من انتاجهـــم وتفتح لهم بالتالى اسواقا جديدة • واتجهوا فى هذا الصدد الى منطقة الشرق

الادنى القديم اى المناطق المحيطة بهم • وكذلك اتجهوا الى المناطـــق البحرية على اوسع مدى بحكم موقفهم الجغرافى المواجه لمنطقة حوض البحر الابيض المتوسط • وقد كان للعوامل السياسية والبشرية اثر كبير فى اعطاء الجانب البحرى من نشاطهم اهمية خاصة مما جعلهم يركزون نشاطهم التجارى قرب نهاية الالـــف الثانى قبل الميلاد فى هذا الجانب البحرى مما ادى الى ضرورة انشاء محطـات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه سفنهم اليها لتكون بمثابة مناطق يستطيعون الاستقرار فيها وتحقيق اغراضهم الاقتصادية ، وادى ذلك الى تتابع هجراتهـــم بصورة تدريجية وعلى مرات متعددة لتحقيق هذا النشاط الاقتصادى فى هـــذه الاسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر الابيض المتوسط •

اما المحور الثانى لهذا الاتجاه نحو الهجرة الى شمال افريقيا فهو يتركـز فى النواحى السياسية والبشرية فى منطقة الشرق الادنى القديم فى الالـــف الثانى قبل الميلاد وبداية الالف الاول ق•م• الواقع انه يمكن اطلاق الصفـــة الدولية لحد كبير على تاريخ الشرق الادنى القديم خلال الالف الثانى قبل الميلاد وبصفة خاصة نصفه الثانى وذلك من النواحى السياسية والبشرية والحضارية فقـــد تميز تاريخ هذه المنطقة خلال تلك الفترة لوجود تحركات بشرية هائلة آتية مـــن الشرق ومتجهة نحو الغرب وهى التحركات المعروفة بتحركات الشعوب الهندوأوربية فقد بدأت هذه الشعوب تتغلغل وتتسلل الى منطقة الشرق الادنى القديم لاسباب

اقتصادية واخرى سياسية وتدخل المنطقة من عدة جهات اما عن طريق الهضبة الايرانية او عن طريق الالتفاف حول البحر الاسود ودخول المنطقة من منطقة مضيق البسفور والدردنيل ومنها الى آسيا الصغرى وقد نتج عن هذه الهجرات ظهور قوى سياسية جديدة لاول مرة فى تاريخ الشرق الادنى القديم مثل قوة الشعوب المعروفة فى التاريخ المصرى الهكسوس والتى اختلف العلماء فى محاولة التعرف على عنصرها البشرى ولكن يتجه جزء كبير منهم الى الاعتقاد بأصلهم الهندى الاوربى المختلط ببعض العناصر السامية فى منطقة سورية وفلسطين اثناء استقرارهم هناك فى طريقهم بعد ذلك الى مصر فى عصر الانتقال الثانى • وايضا مثل القوى الميتانية التى تتكون من العناصر الحورية والسورية وذلك فى منطقة شمال وشرقى سورية فى النصف الثانى من الالف الثانى قبل الميلاد •

هذا بالاضافة الى قوة الدولة الحيثية القديمة والحديثة فى منطقة وسط وشرقى آسيا الصغرى • وقد حاولت هذه القوى الهندية الاوربية اكتساب السيادة السياسية والحضارية والاقتصادية فى منطقة الشرق الادنى القديم على حساب العناصر السامية التى سبقتها الى الاستقرار فى هذه المنطقة • وكانت منطقة سورية وفلسطين والساحل الفينيقى من المناطق الاساسية التى تأثرت بصورة مباشرة بهذه القوى غير السامية • وأدى ذلك الى اعتكاف الفينيقيين فى مدنهم المحصنة محاولين الحياة وسط هذه القوى السياسية المحيطة ببلادهم •

ولم يقتصر الموقف على هذه القوى فقد كانت هناك قوى اخرى لها دورها الرئيسى فى تاريخ الشرق الادنى القديم وهى القوتين المصرية والعراقية القديمة وتتضمن الاخيرة القوى السومرية والاكادية والبابلية والكاشية والاشورية وذلك خلال الالفين الثالث والثانى ق.م. فقد حاولت كافة هذه القوى توسيع دائرة نشاطها السياسى والاقتصادى والحضارى. ووصل امتدادها الى منطقة سورية وفلسطين وفينيقيا وقرب نهاية الالف الثانى قبل الميلاد ازداد نشاط الاراميين فى سورية وكذلك شعوب البحر وهى عناصر اخرى تنتمى الى عائلة الشعوب الهندية الاوربية. كما ازداد ايضا الضغط السياسى والبشرى من القوى المختلفة فى المنطقة وبصفة خاصة القوى الاشورية مما كان من المبررات الدافعة الى اتجاه الفينيقيين نحو الطريق البحرى والاستقرار فى المراسى الجديدة فى منطقة شمال افريقيا حتى يتمكنون من تحقيق نشاطهم التجارى السالف الذكر. وخاصة ان اوضاعهم السياسية الداخلية لم توصلهم الى تكوين دولة فينيقية متحدة بل كانوا متفرقين فى مدنهم وعلى رأس كل مدينة ملكها المنتمى غالبا الى الطبقة الثرية.

وتجدر الاشارة الى حدوث بعض اتحادات سياسية بين المدن الفينيقية اثناء بعض الازمات ولكن هذه الاتحادات لم تكن من القوة التى تكفل لها الوقوف كدولة صامدة امام القوى السياسية الاخرى المحيطة بها.

وقد اتجهت بعض هذه الدويلات الفينيقية الى الاستعانة بمصر الفرعونية ضد بعض القوى السياسية الاخرى مثل القوى الحيثية كمحاولة من ناحيتها للصمود

امام محاولات الحيثيين فى التغلغل فى المناطق السورية • وتنبغى الاشارة فـــى هذا الصدد الى ان العلاقات الفينيقية المصرية كانت تتسم بالطابع الاقتصادى والحضارى بصورة خاصة ويمكن ارجاع ذلك من الناحية التقويمية الى مرحلة الدولـــة القديمة والدولة الوسطى ولا تزال نصوص اونى وسنوهى تشهد بهذه الصلات الحضارية والاقتصادية بين مصر وفينيقيا •

وعلى ذلك فتاريخ الشرق الادنى القديم فى الالف الثانى ق•م• مزدحـــم بهذه الصورة الدولية فى المجالات السياسية والحضارية وتأييدا لذلك قد اصبحت اللغة الاكديه وخطها المسمارى بمثابة اللغة الدولية فى المنطقة فى ذلك الوقـــت وحتى فى مصر الفرعونية قد استخدمت هذه اللغة فى عصر تل العمارنة •

وعلى ذلك يمكن القول ان هذه المبررات الاقتصادية وكذلك البشرية والطبيعية والبيئية كانت لها فاعليتها الهامة فى دفع العناصر الفينيقية الى الخروج نحو غربى البحر الابيض المتوسط وتأسيس مراكز فينيقية على الساحل المغربى • ولكن كانـــت هناك مبررات اخرى مباشرة فى هذا الصدد اتخذت مظهرا قصصيا كما رواها الكتاب اليونان وتتصل هذه القصص بعملية تأسيس المراكز ذاتها وبعض الحوادث الـــتى حدثت اثناء هذه المرحلـــة •

عملية تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض المتوسط :

اتجه العلماء الى الاعتقاد بأن مدينة صور كان لها الدور الاول فى عملية تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض وذلك على اساس ان الزعامة السياسية والحضارية قد انتقلت الى تلك المدينة قرب نهاية الالف الثانى وبداية الالف الاول ق٠م٠ ولكن هذا الرأى ينبغى اعادة النظر فيه لانه من الصعب التيقن من أن هذه الهجرة الفينيقية قد اقتصرت على مدينة صور ٠ فعلى الرغم من تعرض المدن الفينيقية الى جهات شعوب البحر وكذلك الضغط الاشورى فان ظروف العناصر الفينيقية فى هذه المدن بوجه عام متشابهة رغم تفاوتها فى السيادة السياسية ٠ وعلى ذلك يمكن القول بامكانية اشتراك عناصر فينيقية اخرى من الصوريين فى الاتجاه نحو المغرب ٠ وهناك تقليد يتجه الى القول ان تاريخ تأسيس مدينة صور كان حوالى ١١٩٤ ق٠م٠ وذلك على اثر انتصار ملك عسقلان على مدينة صيدا مما دفع اهل صيدا الى الاتجاه الى تأسيس مدينة صور والتى تتميز بجزيرتها المواجهة لنشاطهم الفينيقى مما يجعلها فى حماية طبيعية لحد ما ازاء التدخلات المباشرة ٠ ولكن هذا التقليد ينبغى اعادة النظر فيه لانه من الصعب اعتبار هذه المدينة الفينيقية الاصل ترجع الى هذا التاريخ المتأخر زمنيا فى عملية تأسيسها وعلى ذلك يمكن اعتبار تأسيسها يرجع الى مرحلة اكثر قدما من هذا التاريخ السالف الذكر ٠ ومن الجائز كون هذا التاريخ يمثل مرحلة هامة فى تاريخ هذه المدينة ٠ ومن الاهمية بمكان الاشارة الى ضرورة الاحتياط فى تقبل التقويمات الزمنية التى سجلها

الكتاب اليونان والرومان بالنسبة الى البلاد الاجنبية لعدة اسباب ، منها وجود اتجاهات اقتصادية وسياسية معينة تدفع هؤلاء الكتاب الى اتجاهات خاصة في كتاباتهم التاريخية ، هذا بالاضافة الى ان نشاط الكتاب اليونان الفعلى في الجانب التاريخى يتأخر نسبيا من الناحية الزمنية الى حوالى بداية الالف الاول ق . م .

وعلى ذلك فيغلب اعتبار مدينة صور رائدة مرحلة الهجرة نحو الغرب قرب نهاية الالف الثانى قبل الميلاد . وكان لموقع مدينة صور منذ البداية اتصالا بالنشاط البحرى بحكم كونها جزيرة تستوجب الحياة فيها مداومة الاتصال البحرى . وكان الصوريون يعتمدون على مختلف انواع الخشب اللازم لبناء السفن والمجاديف الخاصة بها كما يتجهون الى الاعتماد على اشرعة السفن من مصر .

اما عن الحادثة الشهيرة التى روتها القصص بالنسبة لهجرة العناصر الفينيقية فتتلخص فى شخصية الاميرة اليسا اخت الملك بيجماليون ملك صور التى اتجهت الى الزواج من خالها اشرباس وهو احد كهنة ملقارت ، وقد اغضب ذلك اخوها الملك بيجماليون وامر بقتل هذا الكاهن مما دفع اليسا الى الهجرة واشترك معها عدد من اهل صور المعارضون لبيجماليون واتجهت فى هجرتها الى جزيرة قبرص حيث انضم اليها هناك احد كهنة الالهة عشتارت واشترط ان تكون له ولعائلته اولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة وان يكون ذلك وراثيا فى اسرته

كما انضم اليها ايضا ثمانون عذراء كانوا اعدوا للبغاء المقدس وكان ذلك لضمان استخدام المراكز الجديدة • وقد اتجهت هذه الهجرة الفينيقية الى منطقة الساحل الافريقى المغربى •

وانتهت هذه القصة بانتحار الاميرة الفينيقية اليسا على اثر طلب رئيس البربر الزواج منها • وكان يطلق احيانا على اليسا اسم ديدو وهو اسم غير فينيقى وينبغى على المؤرخ التوقف عند هذه القصة والتردد بصدد الاعتراف بكافة تفاصيلها لانه قد كتبها الكتاب اليونانيون • وكما سبقت الاشارة فمن الضرورى اعادة النظر ازاء كتاباتهم الخاصة بالفينيقيين • ولا يمنع ذلك من امكانية حدوث بعض احداث هذه القصة •

ومن الاهمية الاشارة الى مصدر تاريخى ثان وهو ماسجله المؤرخ اليهودى يوسفوس الذى كتب فى القرن الاول الميلادى نقلا عن آخرين انه فى السنة السابعة من حكم بيجماليون اسست اليسا مدينة قرطاج • وعلى ذلك فهناك عنصر تاريخى سليم يتعلق بارتباط هذه الاميرة مع عملية تأسيس قرطاج بعد استبعاد العناصر القصصية التى من المحتمل كونها غير جديرة بالواقع • وموضوع الاساطير والقصص معروف فى التراث القديم سواء كان فى المجالات الدينية او السياسية او الاجتماعية وهو طريف من حيث تقبل الجموع الشعبية واستساغتها له • ويبقى على الباحث تحرى الدقة فى استنباط الحقائق من هذه الاساطير • كما انه يلاحظ وجود اساطير كثيرة تتصل بالشخصيات البارزة وعمليات تأسيس المدن الهامة وكذلك الاحداث

الرئيسية وذلك لان الكتاب القدامى ارادوا لفت الانتباه الى اهمية هذه المسائل وقاموا بتسجيلها فى صورة شعبية تجمع بين الواقع والخيال .

اما عن الزمن الذى حدثت فيه عملية تأسيس هذه المراكز الفينيقية فيعتمد الباحث فيه على المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية وكذلك على الادلة الاثرية . ومن الجدير الاشارة الى وجود تعارض واضح بين كلا المصدرين فى هذا الشأن . فبينما المصادر الكلاسيكية تشير الى ان مدينة قادس قد اسست ١١١٠ ق.م. — واوتيكا سنة ١١٠١ ق.م. وقرطاج ٨١٤ ق.م. وذلك على اساس اعتبار بعض التواريخ اليونانية اساسا تقاس عليه التقويمات الزمنية للاحداث الاجنبية فقد سبقت الاشارة الى عدم دقة هذه التقويمات الزمنية التى لحقها الكتاب اليونان بالنسبة لتاريخ العناصر الاجنبية . واما عن التواريخ اليونانية الثابتة فهى تاريخ سلب طروادة سنة ١١٩٤ ق.م. وبداية الاحتفال بالالعاب الاولمبية سنة ٧٧٦ ق.م. وعلى ذلك يعتبر من الضرورى اعادة النظر فى الازمنة الخاصة بتأسيس كل من قادس واوتيكا . اما بالنسبة لمدينة قرطاج فقد اتفق العلماء على قبول تاريخ تأسيسها وهو ٨١٤ ق.م لتأكيد مختلف الكتاب هذه الحقيقة على اعتبار بأن هذا التأسيس كان قبل بداية الالعاب الاولمبية بمدة ثمانية وثلاثين عاما .

اما عن المصادر الاثرية فقد اقم العلماء بالبحث والتنقيب عن اقدم الاثار الفينيقية فى مختلف المواقع فى الساحلين الافريقى والاسبانى . وثبت حتى الان

عدم وجود أية آثار فينيقية الاسس فى تلك المناطق قبل حوالى ٧٥٠ ق ٠ م ٠ وعلى ذلك هناك تعارض واضح بين الجانبين الكلاسيكى والاثرى ٠ ولكن من الجائز امكانية العثور على آثار فينيقية تلقى بعض الضوء على هذه المشكلة ٠
ولا تزال عمليات الحفر والتنقيب مستمرة فى المواقع الاثرية لاستكمال هذه الثغرات فى تاريخ تلك المنطقة فى العصور القديمة ٠ وقد اعتمد الاثريون فى دراستهم التقويمية لهذا الموضوع على الفخار الفينيقى الذى وجد فى المقابر القرطاجية الاولى والتى نجت من عملية الافناء الرومانى لمدينة قرطاج وهى عاصمة الدولة القرطاجية ٠ وقد وجد مع هذا الفخار فخار يونانى وجعارين وتمائم مصرية قديمة ٠ وعلى ذلك امكن بالدراسات المقارنة التعرف على زمن هذا الموقع الاثرى بالاضافة الى استخدام الطرق التقويمية الاخرى فى هذا الصدد ٠

ومن المراكز الهامة التى كانت من اقدم المواقع الاثرية والتى عثر فيها على هذا الفخار الفينيقى الاول هو موقع سالمبو حيث عثر على معبد الالهة تانيت ووجدت فيه الاوانى الفخارية الفينيقية التى احتوت على بقايا عظام الاطفال المضحى بهم لاجل اكتساب رضاء هذه الالهة ٠

وقد اتجه هؤلاء الفينيقيون المهاجرون الاول نحو الساحل الافريقى الغربى يبحثون عن اماكن يستطيعون ان يرسوا عليها بسفنهم وينزلون بها بضائعهم حتى

يتمكنون من تحقيق اغراضهم الاقتصادية • ويصعب على الباحث فى هذه المرحلة الاولى من تأسيس المراكز الفينيقية فى غربى البحر الابيض المتوسط التعرف على كيفية حدوث عمليات التأسيس الاولى • ولكن مما يستوجب الاشارة الى ان هذه العمليات لم تكن من الصعوبة بمكان من ناحية مواجهة الفينيقيين للعناصر البربرية • ولايعنى ذلك انعدام وجود اشكالات فى هذا الصدد •

ولكن تحقق البربر من مقاصد الفينيقيين الاقتصادية البحتة كان من العوامل الرئيسية فى تقبلهم لهم • ولكن الاشكالات البيئية كانت من الصعب التغاضى عنها وخاصة ان استخدام الطريق البحرى يستوجب توفر الموانى والارصفة المناسبة لعمليات رسو السفن •

ولا شك ان استكشاف الفينيقيين للاماكن المناسبة لتحقيق هذا الغرض قد استغرق بعض الوقت الى ان تبين لهم ان السهول الواقعة فى شمال تونس تعتبر من انسب الاماكن لتأسيس مراكزهم الاولى اكثر من السواحل الصخرية فى المناطق الاخرى • ولذلك احتلت منطقة قرطاج المرتبة الاولى بين المراكز الفينيقية منذ البداية •

هذا بالاضافة الى اهمية موقعها الجغرافى القريب نسبيا من الوطن الاصلى بالمقارنة بالمراكز الاخرى البعيدة • كما ان طبيعة موقع قرطاج تسمح بالتوغل لحد ما فى الداخل اكثر من المراكز الاخرى حيث تعوق الجبال والهضاب دون تحقيق ذلك بسهولة نسبية •

وقد استمرت عملية التأسيس والهجرة والانتقال بصورة تدريجية ومتتابعة مما ادى الى بداية عصر جديد في تاريخ المغرب القديم وهو العصر الفينيقي •

ويعتبر العصر الفينيقي في المغرب عصرا مكملا للتاريخ الفينيقي في المشرق • فهو كما سبقت الاشارة يمثل مرحلة توسع اقتصادى خارجي في ميادين جديدة على فينيقي المشرق • ويلاحظ الدارس ان تلك المحطات التجارية التي اختار مواقعها الفينيقيون في المغرب محطات ساحلية او قريبة من الساحل اى انهم لم يتوغلوا في الداخل كثيرا • وقد ظل هذا الاتجاه واضحا في تاريخهم حتى بعد استقلالهم عن المشرق وتأسيسهم الدولة القرطاجية • فقد كانت تلك المحطات عبارة عن مراسى او موانى صغيرة لاستقرار السفن الفينيقية لاغراض التموين بالماء والزاد وكذلك نقل المواد الخام وتصدير المصنوعات المشرقية الفينيقية والمصرية وايضا اليونانية • ولذلك يلاحظ ان مواقع تلك المراسى كانت عبارة عن اما جزر متاخمة للساحل مثل موقع قادس الذى يعتبر من اقدم المحطات التجارية الفينيقية في غربى البحر الابيض المتوسط او بروز طبيعى ساحلى يصلح ان يكون بمثابة حاجز للامواج مما يسهل رسو السفن في مأمن من العواصف البحرية • واحيانا يقوم الفينيقيون بايصال الجزر القريبة بالشاطئ • وبذلك تتكون الموانى والخلجان المناسبة للاغراض التجارية وكذلك يقيمون الارصفة والمخازن وكافة احتياجات الموانى • • وهناك اختلاف بين العلماء عن اقدم تلك المواقع الفينيقية الاولى في غربى البحر الابيض المتوسط • ولكن من الممكن

القول بأن المواقع البعيدة الكائنة في اقصى الغرب قد بدأ الفينيقيون في إقامتها قبل المواقع المتوسطة لحوض البحر الابيض المتوسط • وذلك لان الغرب وبصفة خاصة شبه جزيرة ايبيريا كان الهدف الاول لرحلات الفينيقيين وذلك لوجود المواد الخام وبصفة خاصة القصدير والرصاص بوفرة في اسبانيا وفي منطقة تاتسوس في جنوب غربي اسبانيا وهي التي سمتها نصوص العهد القديم تارشيش • وكذلك اتجه الفينيقيون الى جزر البليار وبصفة خاصة ايبزا وايضا غربي جزيرة صقلية ومالطة وسردينيا • وكذلك استقر الفينيقيون في مواقع ساحلية على الساحل الافريقي وداخلية لحد ما ابتداء من لبدة الكبرى وطرابلس حتى المغرب متضمنا ساحل افريقيا الغربي حتى على الاقل جزيرة الصويرة في المغرب • وعلى رأس تلك المواقع قرطاج وليكسوس وتمودة • ويعتمد المؤرخ في التعرف على هذه المواقع الاولى من نتائج الحفائر للطبقات الاثرية الاولى التالية لمرحلة العصر الحجرى الحديث المتميزة بالفخار المنتمي لها • وتعتبر طبقات هذه المواقع بمثابة سجل عيني لعصور التاريخ المغربي القديم •

ويغلب أن تأسيس المراكز الفينيقية في المغرب قد تم حوالي القرن الثامن ق•م• وعلى ذلك يكون العصر الفينيقي قد استمر من ذلك الوقت حتى منتصف القرن ٦ ق•م• حيث بدأت الدولة القرطاجية في الوقوف على قدميها كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق • ولو ان بداية العصر الفينيقي من الناحية التقليدية كما سبقت

الاشارة ترجع الى نهاية الالف الثانى ق٠م٠

ولقد كان العصر الفينيقى فى المغرب عصر استكشاف اقتصادى اكثر منـــه مرحلة سياسية وهو من تلك الناحية الاخيرة يعتبر تابعا لحكومات المدن الفينيقيـة المشرقية وبصفة خاصة مدينة صور ولقد ظل هذا الارتباط والالتزام الحربى والحضارى كائنا لحد كبير حتى بعد استقلال هذه المراكز الفينيقية عن المشرق وبدايــة العصر القرطاجى ٠

ومن الظواهر الهامة التى تميز العصر الفينيقى منافسة اليونانيين الشديدة لهم فى الميدان الاقتصادى ٠
وهناك اعتقاد بأن اليونانيين قد سبقوا الفينيقيين فى انشاء المراكز التجارية فــى غربى البحر الابيض المتوسط ولكن يغلب ان عملية الانشاء هذه كانت فى وقــت متقارب وقد حدث احيانا ان استقرت العناصر اليونانية فى منطقة ثم تمكـــن الفينيقيون من الاستحواذ على السيادة الاقتصادية فيها بعد ذلك وبذلك انتقلت الى حوزتهم ٠

وعلى الرغم من هذه المنافسه الاقتصاديه فقد سادت العلاقات السلميـــة بين الجانبين لحد كبير باستثناء عمليات القرصنة التى كانت تقوم بها بعض الجماعات من كلا الطرفين بحثا عن الثروة بطريقة غير مشروعة ٠

ولقد شملت التجارة الفينيقيه الكثير من الصناعات اليونانية رغم حدة المنافسة . وتنبغى الاشارة فى هذا الصدد الى اهمية الدور الفينيقى فى الحضارة اليونانية وبصفة خاصة فى التعرف على الابجدية . فقد اعترف اليونانيون بفضل الفينيقيين فى هذا الشأن مما كان له اثره البالغ فى تيسير تحقيق العمليات التجارية . لان وجود وسيلة الاتصال السهلة يساعد على تسهيل اجراءات تلك العمليات . ولقد عاون نظام المقايضة على توسيع نطاق المبادلات التجارية لما فى هذا النظام من ميزات عينية تساعد على اداء الشراء والبيع فى عمليات مباشرة . وفى صميم تعامل البربر مع الفينيقيين الاول النشاط التجارى فى سلام مما ساعد على تدعيم العلاقات البربرية الفينيقية ليس فقط فى المجال الاقتصادى ولكن ايضا فى المجال الحضارى . لقد بدأ البربر يتعرفون عن قرب بالمظاهر الحضارية والتجارية الجديدة مما دعم قدراتهم الحضارية وساعد على تطويرهم . وكذلك تأثر الفينيقيون بالبربر وتقاليدهم وعقائدهم . وهذه الظواهر سرعان ماتصل الى قمتها فى اثناء العصر القرطاجى . وكذلك سادت العلاقات التجارية السلمية بين قرطاج واوتيكا من ناحية ومصر من ناحية اخرى عن طريق برقة التى استقرت فيها بعض العناصر اليونانية قرب نهاية القرن السابع ق.م.

. . . . .

وقد بدأت العلاقات الفينيقية اليونانية فى التطور من الاطار السلمى الى الاطار الحربى على اثر ازدياد المنافسات التجارية والسياسية . وقد ظهرت بوادر

ذلك في جزيرة صقلية التي جمعت بين الجانبين اليوناني والفينيقي • وقد بدأت تلك المشاحنات بين الطرفين في بداية القرن السادس ق • م • ولم تستطع مدينة صور القيام بدور الحماية والدفاع عن هذه المراكز الفينيقية الغربية بسبب الخضوع الاشوري والبابلي الكلداني • وهنا بدأت مدينة قرطاج تحتل مكان الزعامة وعملت على تحقيق تلك الحماية • ويمكن القول انه منذ ذلك الوقت قد بدأت فعلا الدولة القرطاجية في التواجد كقوة سامية جديدة في غربي البحر الابيض المتوسط وذلك منذ حوالي منتصف القرن السادس ق • م •

ولم يقتصر هذا التهديد اليوناني على جزيرة صقلية بل لقد ظهر ايضا على الساحل الليبي في طرابلس حيث استقرت بعض العناصر اليونانية وحاولت ايضا منافسة القرطاجيين • وذلك غير القوة الفارسية الهائلة التي وصلت سيادتها الغربية حتى مصر في عهد الملك الفارسي قمبيز الثاني سنة ٥٢٥ ق • م • والتي حاولت التحرك غربا بالمراكز الفينيقية وعلى رأسها قرطاج ولكن البحارة الفينيقيون في الاسطول الفارسي امتنعوا عن تحقيق هذا الغرض •

وبذلك تخلص الفينيقيون من عنصر جديد قوي كان من اشد الاخطار التي تهدد تواجدهم في تلك المنطقة •

اما عن كيفية الانتقال من هذه المرحلة الفينيقية الى المرحلة القرطاجية المستقلة فقد تم ذلك على يد اسرة فينيقية في مدينة قرطاجنة هي الاسرة الماجونية نسبة الى زعيمها واسمه ماجو وكان قائدا للجيش •

وتنبغي الاشارة في هذا الصدد ان ظاهرة الاسر كانت سائدة في هذا المجتمع بسبب النظام الاقتصادي حيث استحوذت الاسرة الثرية على السلطان واصبحت لها الزعامة في ذلك الوقت • وقد تمكن ماجو من انشاء جيش قرطاجي قوي من الجنود المرتزقة من كافة العناصر الليبية اي البربرية الذين كانوا يعملون كمشاة في الجيش وكذلك العناصر البربرية النوميدية الذين تميزوا بقدراتهم في ميدان الفروسية وايضا العناصر الدالية وغيرها •

ولم يتردد اليونانيون في الانخراط في صفوف الجنود المرتزقة في الجيش القرطاجي • ولكن كان لهذه القوة العسكرية المأجورة خطورتها في كافة الجوانب التنظيمية والتكتيكية والقومية • وكانت هناك اشكالات دفع الاجور واحتمالية قيامهم بتذمرات داخلية بسبب تأخر دفع الاجور • ومن ناحية اخرى اتجهت قرطاج

سياسة عقد المحالفات السياسية مع بعض القوى المتاخمة لها مثل الاتروريين في شبه الجزيرة الايطالية • هذا بالاضافة الى قيام تلك المدن الفينيقيه بعمليات تحصينية قوية للدفاع عن كيانها مثل بناء الاسوار والحصون والثكنات وكذلك تجهيز الجيش بالمعدات والمؤن وايضا توفير السفن اللازمة لاسطول القرطاجى •

وقد عثر في الجزائر في الكثير من هذه المواقع الفينيقية على آثار هذه التحصينات الدفاعية •

وبذلك بدأت مرحلة جديدة اقرب الى الصفة السياسية منها لاقتصادية وهى مرحلة العصر القرطاجى • ازدادت فيها الصلات الفينيقية البربرية وانتقل فيهما المغرب من الاطار المحلى البحت الى صميم معترك التطورات السياسية الدولية في حوض البحر الابيض المتوسط •

خاتمـــــــــة

يتضح من كل ذلك عراقة الحضارة المصرية القديمة وجذورها التاريخية في كافة المجالات الحضارية والفكرية والاقتصادية والسياسية .

وقد اعترفت المدارس العلمية في العالم اجمع بفضل الحضارة المصرية القديمة ابتداء من مرحلة انتاج الطعام خلال العصر الحجرى الحديث حوالي الالف السادس ق . م . وحتى نهاية العصر الفرعوني بأولوية مصر على كافة حضارات الانسان في العالم اجمع .

ومن الاهمية الاشارة الى ان تلك الحقيقة قد توصل اليها العلماء نتيجة للدراسات الموضوعية المقارنة . هذا وقد عقدت المؤتمرات العلمية العديدة والمتخصصة في هذا المجال وكذلك كتبت الابحاث العديدة التي تقر هذه الحقيقة التاريخية . وقد اتجه البعض الى اعطاء نوع من الاولوية الحضارية الى كل من فلسطين (نادت بذلك الاستاذة كاتون توسون) والاناضول وكذلك شمال سوريا وشمال شرق بلاد الرافدين وايضا شمال الهضبة الايرانية .

وقد اتجه العلماء ايضا الى الدراسة منطقة الشمال الافريقى وخاصة فى تونس والجزائر والمغرب واتضح اولوية مصر (نهر النيل الادنى) ويرجع كل ذلك الى العامل البيئى المصرى القديم وفاعليته فى تشكيل الحضارة المصرية القديمة •

الواقع ان الحضارة من حيث المبدأ هى نتيجة تفاعل الانسان مع البيئة • والبيئة المصرية القديمة فريدة من نوعها لانها تتسم بالانتظام الدقيق لدرجة ان الانسان المصرى القديم قد نظم شئون حياته ابتداء من مجىء الفيضان لاول مرة كل عام حوالى منتصف فصل الصيف • كما ان الحياة الزراعية مرتبطة كل الارتباط بالقوى الطبيعية فى البيئة المصرية • ويلاحظ ان نهر النيل الادنى منضبط اما نهر النيل الاعلى الى اسوان فلا تسرى عليه هذه الحقيقة • وان الدافع فى اولوية مصر هو انتظام بيئة نهر النيل الادنى ابتداء من العصر الحجرى الحديث وحتى نهاية العصر الفرعونى •

* * *

بعض المراجع الرئيسية في الموضوع

بعض المراجع العربية والمترجمة الى العربية :-

ج • تشيلو : ماذا حدث في التاريخ

رشيد الناضوري : المطاء الحضاري

احمد ابو زيد : ماقبل التاريخ

احمد فخري : مصر الفرعونية

احمد بدوي : في موكب الشمس

نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم

سليم حسن : مصر

جون ولسن : الحضارة المصرية

عباس بيومي : منستر